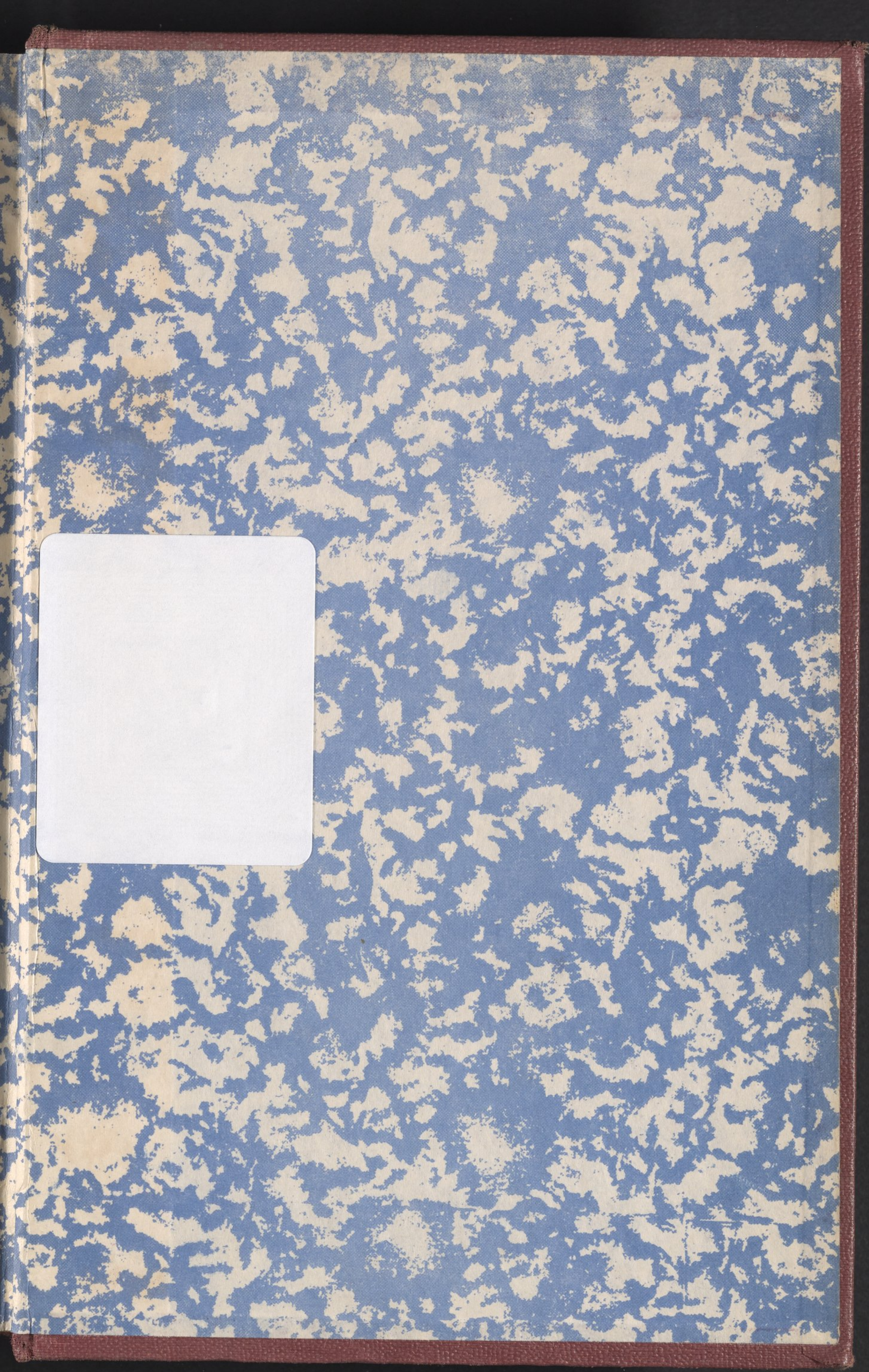




ذكريات باريس

صور لما فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال

بقلم

زكي مبارك

دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب

من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الامريكية

واستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

مؤلفات زكى مبارك

١
الأخلاق عند الغزالى

٢
La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire

٣
البدائع

٤
حب ابن أبى ربيعة وشعره

٥
شرح الرسالة العذراء Etude sur la Lettre Vierge

٦
الموازنة بين الشعراء

٧
مدامع العشاق

٨
أثر الشعر فى ربط الشعوب

٩
سرائر الروح الحزين

١٠
النثر الفنى فى القرن الرابع

تحت الطبع

الاهداء

الى الصديق الذى وَصل جناحى و راشَ سهمى

الى الأستاذ « عبد القادر حمزة » أهدى هذا الكتاب

زكى مبارك

مصر الجديدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣١

تمهيد

أيها القارىء!

كنت عوّدتك إلف المقدمات الطوال، كالذى فعلتُ فى تقديم كتاب «حب ابن أبى ربيعة» وكتاب «مدامع العشاق» ولكننى لا أجد ما أقول فى تقديم هذا الكتاب غير السطور الآتية:

عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلما تُقدّر لانسانٍ سواي، ولم يكن ذلك فقط لأنى اتصلت بها نحو خمسة أعوام. وانما كان ذلك لأنى وصلت اليها بعد يأس وبعد شوق. وكانت كل زَوْرَةٍ تبدو لعينى وكأنها الأولى والأخيرة، فكنت أنتهب محاسنها فى شَرَهٍ ونَهَم كما يفعل الصبُّ المولَع وهو يودّع حسناء ستمضى إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب. ويا طالما ودعت من أسراب الحسان! أضيف إلى هذا أني يوم دخلت باريس كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية مالا يعرفه إلا الأقلُّون، وكنت قبل ذلك أَلِفتُ تلك اللغه ألفة شديدة، حتى كان لا يتكلم بها جماعة فى جِدّ أو هزل إلا تعقبت مايقولون تعقب الدارس الفاحص الذى يدرك ماظهر وما بطن من أسرار الحديث (وهذا كلُ ما عندى من عيوب الفضول) فكان ذلك مِعوانًا على فهم ما طُبع عليه الفرنسيون من شتّى الغرائز والخِلال

طالت إقامتى فى باريس، وكانت لأغراض علمية سدّد الله

فيها خَطاىَ وهدانى سواء السبيل . ولكن دراساتى لم تحل بينى وبين التأمل فيما يقع فى مدينة النور من صراعٍ بين الهوى والعقل والهدى والضلال . فأنشأت كثيرا من القصائد والرسائل فى أغراض مختلفة بعضها من وَحْى العقل وبعضها من وحْى الوجدان

وقد عدت إلى تلك الثروة الأدبية فأضفت جزءاً منها إلى أصول كتابى «سرائر الروح الحزين» وجزءاً إلى مواد الطبعة الثانية من كتاب « البدائع » والباقى هو هذه الأقباس التى أقدمها اليوم

يقول المسيو دى كومنين: إن الكريم لا يذكر البلاد التى رحل عنها إلا مصوَّرةً بصورة من عرف فيها من كرام الناس . وكذلك تبدو باريس على البعد ممثَّلةً فى شمائل انسانين اثنين هما المسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونال . والمسيو بلانشو ـ سكرتير اتحاد الطيران فى باريس ـ آية من آيات النُّبل والخُلُق العظيم ، وابنة خاله الآنسه سوزان مثالٌ أعلى لسلامة الذوق وكرم النفس وحياة الوجدان . ويعلم الله ماذكرت هذين الانسانين إلا غلبنى الدمعُ وقهرنى الشوقُ وَصَهَرَني الحنين . وستظل باريس قِبلة روحى ما بقيتْ فى النفس ذكرى ما لقيت عندهما من عطفٍ ورعاية وحنان

تلفتُّ حتى لم يبن من دياركم دُخانٌ ولا من نارهنّ وقودُ

وإن التفات القلب من بعد طرفهِ طوال الليالى نحوكم لَيزيد

بعد هذين الانسانين تتمثل باريس فى صور الاساتذة الكبار

الذين انتفعت بعلمهم هناك أمثال دُوميك ومَرْسيه وديموميين وكولان وماسّينيون وتُونْلا وديبويه وميشو وشامار ومورنيه

وبعد أولئك وهؤلاء تتمثل باريس فى صُوَر تلك الوجوه الصِّباح التى رأتها عيناى وألفها قلبى ثم أقصتنى وأقصتها ضرورات الحياة إلى حيث لا أمل فى تراسل أو تلاق، برغم ما قيدنا من العناوين، وما حددنا من المواعيد

يا أخت ناجية السلام عليكمُ قبل الرحيل وقبل عذل العذَّلِ
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت مالم أفعل

واليوم يتلفت القلب إلى باريس فتقبل الذكريات أفواجاً فى عنف وطغيان فتغرق الروح فى كوثر النعيم المتخيَّل المرموق، فماذا عسى أن أفعل للنجاة من ذاك الطوفان؟ أأفزع إلى صفحات هذا الكتاب؟ كيف ولم يكن إلا ظِلالا خفيفة لما لقيت فى باريس من مُتَع الحياة، وهو مع هذا لم يحو كل الذكريات: لأن أطيب الذكريات لا يكتب ولا يقال، وانما تقلّبه النفس فى هدآت الليل كما يفعل الشحيح وهو يقلِّب كنزه المدفون

رباه! ماذا أبقيت لى من باريس؟ ألا ترانى أروح إلى السينما الناطق فى صَبْوة وجنون أَتسمَّع كيف يتكلم الباريسيون وأنظر كيف يجدّون وكيف يلعبون؟ إلى اللقاء يا باريس! إلى اللقاء يا مدينة المجد والحب والجمال! إلى اللقاء يا وطن المسيو بلانشو والآنسة بونال!

بين الحب والمجد

لم تنسنى فتنةُ الدنيا وزينتها ... ما فى شمائلك الغرّاء من فِتَنِ
أطوف بالحسن تصبينى بدائعهُ ... كما يطوف مُعَنَّى القلب بالدِّمَنِ
فلا تثير مغانيه ونضرتهُ ... فى ظل ذكراك غير الهمّ والحزَنِ
آمنت بالحب لولا أنت ما جمحت ... منى الضلوع إلى أهلٍ ولا وطنِ

***

يا من تحيرتُ لا أدرى أيسعدنى ... غرامهُ أم هواهُ مِحنة المِحنِ
ما ضرَّ لو نَعِمتْ عيناى أو شقيتْ ... قبل الفراق بمرآى وجهك الحسن
لولا مثالك فى باريس ألمحهُ ... فى طلعة البدر أو فى نضرة الفنَنَ
ما صافح النوم أجفانى ولا احتملت ... جوانحى ما أثار البين من شجن

***

جَنَت علىَّ الليالى غير ظالمةٍ ... إنى لأهلٌ لما ألقاه من زَمنى
فما رأيت من الأخطار عاديةً ... إلا بنيت على أجوازها سَكَنى
ولا لمحت من الآمال بارقةً ... الا تقحَّمت ما تجتاز من قُنَنِ
أحلتُ دنياىَ معنىً لا قرار لهُ ... فى ذمة المجد ما شرَّدت من وَسَنِ

١٢ يونيه سنة ١٩٢٧

ثورة الوجد

نسيتم العهدَ واسترحتمْ　　من لوعة الحافظِ الامين
فليت ما راضكمْ فنمتمْ　　أَراح بعد النوى جفُونى
وليتنى إذْ يئِستُ منكمْ　　كبحتُ فى غُربتى شجونى

***

ولى خِداعُ المنى وقرّتْ　　مطامحُ الواجدِ الحزينِ
فما بكائى على حبيبٍ　　لم تُقضَ فى حبهِ دُيونى
ألقيتُ بالنفس من هَواهُ　　فى لُجة السِّحر والفُتون
وقلتُ أرتادُ من صباهُ　　ملاعِبَ الطيش والجنون
فما تذوّقتُ من جَناهُ　　إلاَّ صدَى النوح والانين

***

يا رَوعةَ البدرِ فى سَماه　　وفتنةَ الزهر فى الغُصون
تَنَاسَ ما شئتَ سوف تخبو　　حرارةُ الدمعِ فى الشئُّون
وسوف تبلَى على الليالى　　غرائبُ السحرِ فى العيونِ
أَستغفرُ الحبّ سوف يبقَى　　على صُرُوف الاسى حنينى

باريس فى ٣ يوليه سنة ١٩٢٧

الى باريس

قبل الرحيل

بعد شهور طوال أسهرتُ فيها ليلى ، وأشقيتُ فيها نهارى ، صحت منى العزيمة على العودة الى باريس . وكانت نشوة فرح تشبه نشوات الطفل حين يحدثه أهله عن سفر سعيد ، وكدت أ كتب الى خلصائى : أيها الاصدقاء ، أنا عائد الى باريس! ولكنى توقّرت ، وكتمت فرحى ، وأقبلت أُعِدّ ما لم أ كن أعددته من المفكرات والمذكرات . . والملابس ! وانطوت الأيام بسرعة خاطفة ، ومضيت الى «سِنتريس» لتوديع أبى وأهلى وأصدقائى ، وكان منى ماتعودته من الجمود حيال تلك الدموع الحِرار التى يسكبها الوالد — لا عدمته — كلما أسلمنى الى رفق الله ولطفه فى سفر بعيد . ومضت بى السيارة وهى تحمل منى قلباً راضته الأيام بعد الجُموح ، وعلّمته كيف يجمد ويتحجّر أمام أهوال الفراق .

وجاء صباح السبت الأخير من يونيه ، وإذا أنا أمضى بأقدام ثابتة الى محطة « باب الحديد » ، وفى انتظارى أصدقاء قلائل جداً ثلاثة أو يزيدون ! وغاب عن ذلك اليوم أصدقاء كنت آمل أن أراهم هناك . وهمّ القطار بالقيام فحسدت المسافرين الآخرين: لأن

مودعيهم كانوا من الجنس اللطيف الذى يحسن التوديع ، ويقدم اليه أصلح وَقود من التقبيل ، ثم التلويح بالمناديل البيض ! واكتفيت من مودعىّ الفضلاء بعبارات : فتح الله عليك ، وجعلك من السالمين الغانمين ! .

فاللهم تقبل من عبادك الصالحين !

فى الباخرة :

مرت الساعات بين القاهرة والاسكندرية وأنا مقسَّم الفكر ، منتشر الروية ، أنظر تارة فى الصحف ، وأخرى الى ما نمر به من الحقول ، حتى أسلمنا القطار الى الباخرة فى غير عناء . ونقلت أمتعتى الى مكانى فى السفينة ثم جاءت ساعة الغداء فشُغِلنا عن توديع الاسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات ! فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب

وُضعت المائدة ، وأقبلت أتخير مكانى بين المسافرين والمسافرات ، فلمحت مكانا خالياً بين سِرب من الظباء . فبادرت الى احتلاله . وإذا صديق من زملائى الفرنسيين يقول : ماذا تريد يامسيو مبارك ؟ هذا مكان مشغول !

ماذا أريد ؟ ! ماذا أريد ؟ !

الخبيث يعلم ما أريد ، ولكنها الأَثرة والغيرة واللؤم ،

كل أولئك حمله على إقصائى عن المكان المنشود !

ورجعت أتلفت علنى أجد مكانا طيباً بين جِيرة يخفق لهم القلب ، وتهفو اليهم الجوانح ، فلم أجد بعد البحث الطويل . وانتهى بى المطاف عند طرف من المائدة فيه اثنتان من العجائز ، وفيه رجل مصرى . أما العجائز فالقارىء يدرك أن الأُنس بهن محال . والرجل المصرى ، ماحاجتنا اليه ، وقد تركنا فى مصر خمسة عشر مليوناً غير آسفين ! على أن المصرى فى مثل هذه الأحوال قد يكون هو « الانسان » الذى عناه الشاعر حين قال :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوّت إنسان فكدت أطيرُ

وكذلك مرت أيامى فى الباخرة والملائكة مستريحون لم يكتبوا فيما أظن سطراً واحداً فى صحيفة السيئات ، وأحسبهم يتورّعون عن تقييد تلك الخواطر « البريئة » التى كانت تمضى فى التحسر على مافات من مجاورة الحسان ! على أن الغىَّ فى بعض الأحوال قد يكون أطهر من الرشد . وقد يكون الإثم الجارح أسلم عاقبة من التقى المصنوع !

رجال الدين :

فى أكثر المرات أجد فى سفرى طوائف من الراهبين والراهبات . ولى فى كل مرة ملاحظات وتأملات ، ومشاهداتى

فى هذه المرة أمتع وأنفع ، والى القارىء البيان :

الجنس اللطيف لطيف دائما ، فالراهبة أعقل من الراهب وأبعد من الفضول ، كتابها فى يدها دائماً ، تقرأ آياته فى تقى وإخلاص . وقد لاحظت أن بين الراهبات فتيات يقطر من وجوههنّ ماء الحسن ، ويترقرق فى أعطافهنّ ماء الشباب ، وفيهن من سحر الجفون آيات بينات ، فبدا لى أن الله عز شأنه أخذ يتخير لنفسه أطايب الجمال ، ورأيت أن التقوى لاتصلح إلا من مثل تلك الوجوه الملاح . وليس من العنف فى شىء أن نصارح القارىء بأنه لا خير فى تقوى كثير من الناس ، لان أكثرهم لايتقى الله إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق : فهى تقوى ضرورة ورياء ، لاتقوى بر وإيمان . وبعض الأتقياء لئام لا ينهون عن الغى إلا حسداً لأهله على ما آتاهم الله من نعم المال والجمال والشباب ، ولو أنهم ظفروا بسبب من أسباب الفتك لودعوا التقى وهم فرحون . وحسن السلوك عند أشباه الأبرار أشبه بسلوك العبيد فهو فى جملته ضرب من الصعلكة ولون من ألوان الموت ، وهم يعلمون ذلك ، ولكنهم يتكلفون الرضا بحظهم من الصلاح !

الراهبة أعقل من الراهب ، كذلك أفترض ، فقد كان معنا فى الباخرة راهب شنيع الإسراف ، لا يرضيه نبيذ المائدة ، لأنه شراب عادى يبذل بسخاء للجميع ، فكان يطلب لحسابه أجود

أنواع الشراب ، ثم يدعو من حواليه من الشوابّ النواهد الى التفضل بمشاركته فى ذلك الوِرد المباح ! يفعل ذلك ، وأنا أنظر اليه وملء جوانحى حقد وضغن ، فهو يفعل كل مايريد ويظل قديساً ، وأنا لا أفعل شيئاً ثم يهاجمنى ذلك الزميل الفرنسى اللئيم قائلا : ماذا تريد يامسيو مبارك ؟ !

هـذا وحق الله من نكدالزمانوسوءحظى !

والنفاق نعمة عظيمةعرف قيمتها اللئام فأوغلوا فيها ، وافتنُّوا فى جمع أسبابها. والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ، فأسرفوا فى العناد حتى لا أمل فى ردهم الى الحد المعقول . وأنا والله غير نادم ، فليظفر من شاء من الأحبار ، والرهبان ، والأشياخ ، بما شاء من طيبات الحياة ، تحت ستار التقى والدين ، فتلك كلها حظوظ سافلة لايفرح بها الا الضعفاء الذين يعرفون أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لا ينهض بأثقاله إلا الأقوياء الأشداء

فتاة تشكو الفراق :

كان ذلك حظى من رفقة المائدة ، ولم يكن بد من السعى الحثيث للترويح عن النفس ، وقد وصلت بعد جهد الى التعرف الى فتاة كانت تغنى فى مسرح . . . بالقاهرة ، وهى فتاة ناهد حسناء ، رشيقة القد ، مشرقة الجبين ، وفى عينيها النجلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت الذى ورد ذكره فى القرآن ،

وفى صوتها غُنة موسيقية كأنها غنة الظبى الوليد ، ولأناملها رقة جذابة تفيض بالكهرباء ، وفى خطراتها تكسّر وتثنّ أين منهما الغصن المطلول ، ولها رفق بارع فى إذكاء نار الحب والوجدفيمن تختار من أصحاب القلوب ... هى فتاة فرنسية تعوّدت اللهو بالأشخاص ، وبالأشياء ، وبالأوطان ، فلم يعد يهمها من تَلقى ولا من تُفارق ، ولم تعد تفكر أى أرض تسكن ، وإلى أى وطن تعود . ولكنها فيما تقول وقعت أخيراً فى أشراك الحب ، بعد إذ سخرت بآلاف المحبين ، وبعد إذ بُذلت فى مرضاتها التضحيات الخطيرة بلا حساب. أما الانسان الذى استطاع أن يكويها بناره ، وأن يردها وهى صاغرة إلى زمرة الأشقياء : فهو شاب مصرى فقير ، لايجد أسباب اللهو فى أحياء القاهرة ، ولكنه يملك فقط عينين ساجيتين ، وشباباً قوياً ، وجاذبية تميد لهولها الجبال

كم ساعة قضتها تلك الفتاة وهى تبث الىّ شكواها من مرارة الفراق ، وكم لوعة ثارت فى صدرى من حنينها الى سواى ، وكم خلوة حلوة على ظهر السفينة استمعت فيها الى أنفاسها الِحرار وهى تتكلف أسباب الصبر الجميل ! !

أيها العاشقة الحسناء !

أنا أيضاً ... شاب فقير !

باريس فى ٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الحب الاثيم

فى باريس

الانسان فى عُرف المناطقة حيوان ناطق ، لأن ارسطاليس عرّفه كذلك . وفى مقدورنا أن نقول : الانسان حيوان مخدوع . وكنت أحب أن أقول : حيوان مغرور ، ولكنى وجدت التعبير الأول أدق وأصدق فى تحديد ذلك الحيوان الخادع المخدوع الذى اسمه إنسان ! !

الانسان حيوان مخدوع : لأنه يخدع نفسه بما يسميه « تجارب واختبارات » فالرجل الذى تستهويه امرأة فاجرة فتقوده إلى بؤرة من بؤر الفساد فى باريس ثم تسرق ما يملك من عين أو نقد يرجع إلى بيته أو مثواه وهو يخدع نفسه بعبارة « هذه تجربة » أو « ماذهب من مالك ما وعظك » على حد المثل الذى كنا نعطيه لتلامذة المدارس الثانوية ليضاف إلى موضوعات الانشاء . والشاب الذى يحمله جنون الشباب على غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضا يعيا فى برئه الأطباء ، يجرّ رجليه على شواطىء السين وهو يدمدم : « هذه تجربة ، هذا اختبار لمكاره الحياة » وذلك كله خداع فى خداع ، والرجل هو الخادع وهو نفسه المخدوع

لا أذكر أن فكرة تملكتنى وسيطرت عليَّ كما استبدت بى هذه الفكرة : فأنا موقن أن غنيمة التجارب ضرب من الافلاس أو هى الافلاس ، وإلا فما نفع التجارب إذا كنا سنظل طول حياتنا عبيداً للأهواء والشهوات ، وسخرية فى يد الهوى القاهر، أو النزق الغلاب

هذه تجربة ! إى والله ! ولكن متى تنفع ؟ وهذا اختبار ، ولكن متى يفيد ؟

التجارب المرة تنفع صاحبها فى شىء واحد ، ذلك بانها تعطيه لونا من ألوان الأنين تكبر به قيمته عند من يستمعون لأحاديث البؤس والشقاء . والحكماء فى العالم كله قوم أفنوا أنفسهم وخسروا شبابهم وثروتهم ، ثم أقبلوا يتحدثون إلى الناس بما يجب أن تتحلى به مجموعة الحيوانات التى تتكوّن منها فصيلة الانسانية . ونحن حين نستمع لأقوال الحكماء فى صمت وخشوع لا نفعل ذلك اعترافا بفضل الحكمة ، ولكننا نقبل عليها بأنفس مهددة بنفس المصير الذى تخوِّفنا منه حكمة الحكماء : فالواعظ يبكى نفسه حين يعظ ، ولكنه يوهمنا بأنه يبكى اشفاقا بنا ، ورحمة لنا ، وخوفا علينا ، ونحن نوهمه أننا نبكى لبكائه ، وننزل عند حكمته ، والواقع أننا نبكى أنفسنا حين نسمع أخبار من أشقتهم الرذيلة وأفناهم الإسراف ، لاننا ننحدر الى نفس الهاوية ، ونهوى

إلى ذلك القرار الذى يعز منه الخلاص

*
* *

طالما تحدث الناس عن الحب فى باريس ، ولذلك رأيت أن أكتب هذا المقال لأن أكثر المتحدثين عن الحب فى باريس يخوضون فيما لا يعرفون ، وهذه فائدة جديدة للتجارب أستطيع بها أن أستطيل على القراء فأدعى العلم وأَصِمهم بالجهل البسيط ، راجيا أن لا تجرحهم هذه الكلمة ، وأن لا يستكثروا على رجل أشقته دنياه ، وحمله شبابه على أن يطأ جمرات الشهوات ، أن يعزى نفسه بكلمة « جربت » و « شاهدت » إلى آخر ما فى القاموس مما يتصل بهذه التعابير !

الحب فى باريس نوعان : حب شريف ، وحب أثيم

والحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون غير الهوى العذرى الذى يجد القارىء آثاره فى كتاب (مدامع العشاق) فنحن نعرف أن الهوى العذرى آية من آيات الوجد المنزه عن الآثام والشهوات ونعرف أن العشاق العذريين قوم يجدون لذتهم الباقية فى النوح والحنين ، ويجدون غذاءهم الروحى فى التغنى بمثل هذه الأبيات :

سقى بلداً أمست سُليمى تحلُّهُ ... من المزن ما تروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإِنه ... يحل به شخص علىّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدىّ وإن شطّ المزار نعيم

ومَن لامنى فيه حميم وصاحب فرُدَّ بغيظٍ صاحبٌ وحميمُ

الهوى العذرى الذى تحدث عنه العرب وأنطق الشعراء بأجمل وأروع ما أوحى الحب النبيل من آيات الشعر الوجدانى هو غير الحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون ، وأكثر الألفاظ مقول بالتشكيك له عند كل قوم مدلول !

لكن ما هو ذلك الحب الشريف ؟

هو الذى يجرى بين فتى وفتاة ، أو رجل وامرأة ، لغرض غير مادى ، وتقع حوادثه فى الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن السمعة . وهو حب معقّد كل التعقيد لا يفهمه إلا من راضوا أنفسهم على مكارهه ، واكتووا بناره . وهذا النوع من الحب يخالف الهوى العذرى ، لأنه يستبيح أشنع الذنوب والآثام . ولكنه مع ذلك يجرى فيه الأرق ، وتسيل من أجله المدامع ، وتُعرف فيه نكايات الوشاة والعذال ، وتتخذ من أجله الرسل ، وتُدوَّن له المكاتبات . وعلى الجملة هذا النوع من الحب هو الذى خلق شعراء فرنسا وكتابها وفنانيها وفلاسفتها أيضاً . ولا يوجد فى فرنسا رجل عبقرى لم يمسه الحب بعذاب أليم

وهذا الحب شريف لأنه يقع غالبا فى ظروف قاهرة لا يمكن منها الفرار ، ففى فرنسا نساء جميلات حَبتهن الطبيعة بأكرم ما تهب من ألوان السحر والفُتون . والمرأة الجميلة فى فرنسا

خطر على عالم القلوب ، وأقسى الأفئـدة يلين ويتفجر بالعطف والحنان أمام تلك الظباء الأوانس اللائى يخطرن من حين إلى حين فى الأحياء المرحة الجذلة التى تفيض وتزخر بأسباب الطيش والجنون . ونحن والله أرق أكباداً من أن نرمى عشاق الجمال القاهر بالفسق والفجور. فهم قوم مساكين منحهم الله عيوناً تنظر ، وقلوباً تشعر ، وأكباداً تتوجع ، وأحشاء تتفتت ، وقال لهم كونوا شعراء فكانوا ، وهو سبحانه يقول للشىء كن فيكون ، فكيف بالانسان الذى تغنيه الإشارة ، وتكفيه اللمحة ؟ إنه يفهم جيد الفهم أن الجمال خُلق ليُعشق ، فليس بعيداً أن يُسرف فيعبد الجمال من دون الله

هذا النوع من الحب طبيعى لا يمكن حربه ولا دفعه لأنه فى الفطرة ، ولا يمكن أن يقال إنه خاص بفرنسا من دون الأمم فهو حظ مشاع بين جميع الشعوب . ولكل أمة منه نصيب . حتى مصر ! وإنى لأحسب أنه ألزم للانسان من ظله ، وأنفع له من الماء والهواء

***

أما الحب الذى انفردت به باريس فهو الحب الأثيم ، وهو الحب الذى تغلب فيه الدعارة والفجور ، وهو حب له ظاهر خلاب جذاب لأنه يشبه الحب الشريف من بعض الوجوه ،

ففيه أيضاً تعاطف وتراحم وحنان . وإنك لتدخل حدائق باريس في المساء فتجد مئات العشاق متعانقين فوق المقاعد مظللين بالأشجار المورقة، ومحروسين بالحشائش الخضر . وكم من مرة تأملت هذه المناظر المريبة وأنا وافر الاعجاب بما يملك أهل باريس من أسباب الحرية المطلقة التي لا نجد قبساً من شعاعها في مصر . ولكن ماذا تخفي هذه المناظر ، ماذا تخفي ، ماذا تخفي من عوامل الضعف والتدهور والانحطاط ؟ !

إن في باريس طوائف من الفتيات ألجأهن الفقر والعوز إلى مرافقة الشبان ، أو حملتهن أزمة الزواج على الإسراع بالتعرف إلى الرجل الذي جبن عن مجابهة تكاليف الحياة الزوجية الشريفة ، وقنع بما تحمله إليه المصادفات من غنائم الإثم والفسوق ، هؤلاء الفتيات الفقيرات خطر على باريس وزوّار باريس . وهن خطر محقق على الشبان المصريين والشرقيين الذين حرمتهم التقاليد الإسلامية من الأُنس بالمرأة الفاجرة ، فكم من شاب مصري أسلم شرفه وعرضه لامرأة بَغِيّ في أول ليلة دخل فيها باريس ، وكم من شاب مصري جاء باريس ليتعلم فظل جاهلا ثم عاد إلى أهله يحمل أشنع وأوبأ ما عرف الطب من جراثيم الأمراض . والفرنسيون يعلمون علم اليقين أن عاصمتهم موبوءة ، وأن الحي اللاتيني حي الطلبة بنوع خاص هو مهد الوباء ، ومن أجل ذلك

رأيت منهم من يتباهى بأنه لم يعد إلى ذلك الحى منذ كان طالباً . ومن الأساتذة من لا يعرف من ذلك الحى غير السوربون والمعاهد الملحقة بجامعة باريس

وبعد ذلك فامن أكتب المقال ؟ إن ذلك الحيوان المخدوع الذى اسمه إنسان سيعلل نفسه دائماً ويخدعها بما يسميه التجربة ، فهل أستطيع أن أقترح فقط على صديقنا الدكتور الديوانى مدير البعثة المصريه فى باريس أن يضع نظاماً يفرض فيه الكشف الطبى على الطلبة المصريين من حين إلى حين ، علهم يتقون الله فى أنفسهم فيفرون من أوباء الحب الأثيم ؟

باريس فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مصر فى باريس

أصبحت مدينة الطلبة عنواناً على مجد الأمم : فلكل أمة دار يأوى إليها أبناؤها المغتربون : فلأمريكا وبلجيكا واليابان دور فى مدينة الطلبة . حتى الأرمن لهم دار ! أما مصر فسكوت عنها فى تلك البقعة الجميلة . وقد اقترح بعضهم مرة فى مجلس النواب على وزير المعارف أن يفكر فى إنشاء دار مصرية بمدينة الطلبة فى باريس ، ولكن قيل يومئذ إنه من الخير للطلبة المصريين أن ينبثُّوا فى الأوساط الفرنسية

وهم قد انبثُّوا بالفعل . ولكن أين ؟ فى الحانات والقهوات !

الحب فى باريس

وفى ليفربول

صديقى «ن...» شاب جميل الوجه ، طيب القلب ، سليم الذوق . عرفته لأول مرة فى القاهرة فى صيف سنة ١٩٢٥ وقد فرقتنا الأيام بعد ذلك ، فذهب إلى ليفربول ، وبقيت أنا موزع الجهد ، مقسّم القلب ، بين القاهرة وباريس

وفى هذا اليوم صادفته هائما فى حديقة لكسمبور ، فتعانقنا وتبادلنا أطيب التحيات ، وسألته وسألنى عما لقى وما لقيت ، ودعوته إلى لحظة نقضيها فى قهوة داركور أمام السوربون

جلسنا ، وتحدثنا ، وشربنا

لكنى لاحظت أن صديق سنة ١٩٢٥ غير صديق سنة ١٩٢٩ فقد كان الصديق الأول فى سذاجة ، وطهارة ، ونبل ، وإخلاص . أما الصديق الثانى فهو إنسان مداور ، ماكر ، خبيث ، محتال ، لا تصل إلى قلبه إلا عن طريق النفاق

ابتدأ فلعن باريس ، وأهل باريس ، ومحبى باريس . فقلت : استثن من فضلك ! فأجاب : العفو يابيه !

باريس فى رأيه مدينة دعارة وفسق ومجون وشهوات، وليس فيها على حد تعبيره إلا فاسق أو ختّال ، وقد انطلق كالقذيفة يصف الفرنسيين بأشنع ما حوت القواميس من قبيح الصفات والنعوت ، ثم اندفع يقابل بين الأخلاق الانجليزية والأخلاق الفرنسية ، فكان الانجليز فى رأيه ملائكة ، وكان الفرنسيون شياطين . هنالك ابتسمت ، وقلت : الآن ياصديقى اطمأننت عليك !

فقال : وكيف ؟

قلت : كنت فى شك من أمرك ، فقد كنت أخشى أن تعيش فى بلاد الانجليز بدون فائدة ، كما هو حظ كثير من أعضاء البعثات المصرية ، أما الآن فقد عرفت أنك استفدت !

قال : هـذا غريب . أنت لم تختبرنى حتى تعرف إلى أى حد وصلت

قلت : بلى ، قد اختبرتك ، وان لم أوجه اليك سؤالا ، ولم أسمع منك جوابا ، فانّ حملتك الشعواء على الأخلاق الفرنسية تدل أو ضح دلالة على أنك أُشربت أخلاق الانجليز وسجاياهم . وقد علمتنى التجارب التى كوت يدى ، وأشاطت دمى ، وأيأستنى من صفاء الطبيعة البشرية ، وأقنعتنى بأن الانسان حيوان لئيم ، علمتنى تلك التجارب أن أجهر الناس صوتاً فى الدفاع عن الفضيلة

هم المنافقون ! وأنت ياصديقى تتأفف من هواء باريس ، وتعلن أن جوها مشبع بأوزار الغواية والفسوق ، وفى هذا دليل على أنك أصبحت انجليزيا صميما ، ونحن نرسل أبناءنا إلى انجلترا ليتخلقوا بالأخلاق الإنجليزية ، فلم تضع إذن الدنانير اليومية التى أُنفقت عليك ، فلطالب البعثة فى كل يوم دينار ، كأنه ابن الملك فى أساطير الأولين ! !

قال الصديق ، وعلى وجهه بوادر الألم والغيظ : أوضح . فانى لاأدرك تماما أىّ هدف ترمى ، ولا أىّ وجه تريد

قلت : يجب أن تعلم أن الانجليز أقدم الناس عهداً بالنفاق . وأنا لاأتكلم عنهم من الوجهة السياسية فقد يكونون فى السياسة صرحاء ! إنما أتكلم عن الأخلاق : الانجليز يعملون كل شىء ، ويكتمون كل شىء : يقترفون أشنع المنكرات ، ويظهرون دائما سيماء الطهر والعفاف . والويل كل الويل لمن يفتضح أمره بينهم فانه لا محالة مطرود منبوذ . وهم فى هذا يعملون كما كان يعمل الاسبرطيون قديما : فقد كانوا يعاقبون السارق لا لأنه سرق ولكن لأنه لم يعرف كيف يخفى السرقة ويمشى فى ثياب الأبرياء

قال الصديق : هل عاشرتهم ياسيدى حتى تحكم عليهم هذا الحكم ؟

قلت عاشرتهم قليلا ، ولكنى قرأت أكثر ما نقل من مؤلفاتهم

إلى الفرنسية واقتنعت كما اقتنع كثير من أحرارهم ومفكريهم بأن الحواضر الانجليزية أوكار خبث ورياء ، وأن لندن بوجه خاص تضم إلى جنباتها أخطر ما عُرف من أساليب الإثم المستور !

وأنت ياصديقى تمثل نفس الدور أصدق تمثيل ، فأنت تركت ليفربول لتقضى إجازتك فى باريس ، والشيطان يعلم لِمَ جئت باريس ، ونصيحتى لك أن تعيش فى فرنسا بنفس فرنسية لا انجليزية : فالفرنسيون تضيق صدورهم بالنفاق ، ويحتقرون المنافقين . وهم حين يحبون يحبون فى صراحة ، وحين يبغضون يبغضون في وضوح ، وقليل منهم من يحسن المداورة ويميل إلى التضليل .

لكن صديقى لم تغنه هذه الخطبة ، واستمر يقبّح الأخلاق الفرنسية ، ويمجّد الأخلاق الانجليزية

فما الحل ، وكيف السبيل إلى هدايته ؟

آه ! لقد اهتديت إلى الحل .

فما هو ؟

كأس من بيكون ! فان لم تغن الكأس الاولى فكأس ثانية وثالثة حتى تصفو نفسه ، ويخلو رأسه من عقارب النفاق ،

ويعود طفلا محبوبا كعهدي به لا يشارى ولا يمارى ولا يكذب ولا يمين

ياغلام ! هات كأسا من بيكون!

جاءت الكأس مترعة ، ونظر إليها الصديق نظرة غَزِلة ، ثم شربها فتقطبت لها أسارير وجهه ، وتطلقت أسرار قلبه ، ودعوت بكأس ثانية فكاد من طرب يهيم ، وخلته ينشد وهو نشوان :

جمعتَ بالكأس شملى الله يجمع شملكْ

بحق رأسك دعنى حتى أقبِّل نعلكْ

وعُدنا نتكلم عن باريس وصراحة الباريسيين. فقال : أنا الآن معك ، فباريس هى المدينة الوحيدة التى يعيش فيها المرء على فطرته ، يحب مايحب ، ويبغض مايبغض ، فى صراحة وجلاء . وأنا معك أيضاً فى أن الانجليز منافقون . ولكنى أحب أن تعلم أنهم ليسوا جميعاً سواء

قلت : كيف ؟

قال : نحن نعيش فى ليفربول . والحرية فيها تكاد تكون تامة ، ويكفى فى بيان ذلك أن أقص عليك النادرة الآتية :

قامت فى الجامعة مناظرة موضوعها :

« أيهما أحب إليك : أن تكون أحببت مرة وأخفقت »

أو أن تكون خليَّ القلب من نعيم الحب وعذابه ؟ »

وقد أعطى الطلبة لأنفسهم مذاهب من الآراء لا حدَّ لها في المفاضلة بين الوجهتين . ثم قام في الختام مدير الجامعة وقال :

« تتكلمون عن الحب ؟ هذا جميل ! ولكنى أرى أننا مقبلون على جفاف ، فقد كنت ألمح فى شرفات الجامعة الطلاب والطالبات أزواجاً أزواجاً يتهادون التحيات والقبلات فى خفر وحياء ، وكنت أتعامى حتى لا أفرق بين حبيبين يتناجيان . أما اليوم فقد عدت أمشى فى أرجاء الجامعة بخُطاً مسروقة ولا تقع عينى على محب ولا محبوب

أيها السادة ! الحب فى خطر ! أنقذوا سمعة الجامعة ! »

قصَّ صديقى هذا الحديث ، ثم نظر فرآنى أفكر ، فقال : ما خطبك ؟ قلت لاشىء ! لقد تذكرت أن هذه المناظرة ألقيتْ هذه السنة فى الجامعة المصرية فمن المحتم أن يكون اقترحها أحد الأساتذة الأنجليز ، ومن المرجح أن يكون قد استُقدِم من ليفربول : فنحن نأخذ بقاياكم فى العلم والحب ، لو تعلمون .

وعند هذا الحد كانت صفت نفس الصديق ، وتحلّل حقده المزعوم نحو باريس ، وسألنى عن بعض الناس فى مصر . فقلت : إنهم بخير ، ولا عيب فيهم إلا أنهم انجليز أو أشباه الأنجليز ، وأنك تعلم ماذا أريد !

باريس فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٢٩

صيد القاهرة

أم صيد باريس ؟

صديقى . . .

كتبت إلىّ تسألنى أن أصف لك ألوان الحياة فى باريس ، وألوان الحياة لها فى نفسك معان غريبة تشوق النفس وتثير الوجد ؛ فباريس عندك مدينة الفتنة واللهو والمرح والمجون ، وشارع عماد الدين الذى تقضى فيه ليلك وشطرا من نهارك يجب أن يكون فى لجبه ، وضوضائه ، صورة مصغرة جداً لشوارع باريس ، وقد ضاق عليك ذلك الشارع البهيج فيما أظن ، فأنت تريد أن تحيا حياة أوسع وأطيب ، ولو عن طريق الخيال ، متأسيا بالشريف الرضى إذ يقول :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى   فلعلى أرى الديار بسمعى

وأنا والله عاذرك ، فقد أتيح لى أن أواجه الحياة فى مغانى القاهرة والاسكندرية ودمياط والمنصورة وأسيوط ، ثُم رأيتها جميعا أضيق من سَمّ الخياط ، وما عسى أن يطيب العيش بين أقوام لا يفرقون بين الهزل والجد ، ولا يحلو لهم غير القيل والقال ، وهم فى أنفسهم أصغر من أن يقدروا نضرة السراء ، أو

قسوة الضراء ، فمن حقك علىّ وأنا صديقك الذى يأسى لقلق نفسك وبلبلة خاطرك أن أتحفك ببعض الصور الناطقة من حياة باريس ، ولكن ماذا أقدم لك ياصديقى ؟ وماذا أختار من بين ما أرى وما أسمع ؟

تكاثرت الظباء على خراش　　فما يدرى خراش ما يصيدُ

لكن اسمع ، اسمع ، فقد وجدت الجواب ! . .

أنت بالطبع تعيش فى مغانى القاهرة عيشة خالية من كل معانى السعادة لخلوّ القاهرة المسكينة من أودية الصيد ! هذا مفهوم جدا ، ولا موجب للمواربة لأننا بحمد الله لم نُرزق مثقال ذرة من نعمة النفاق التى يرتع فى ظلالها المنافقون . وكل حظك فيما أظن لا يتعدى المناوشات الصغيرة فى طريق الاهرام أو طريق السويس وأحيانا فى شارع شبرا المتواضع حين يخلو جيبك من بقايا تلك الاوراق المعدودة التى تقلبها بين يديك مرة ومرة ، وثالثة ، أول يوم من الشهر ، ثم تتفقدها فلا تجدها فى صبيحة اليوم التالى . أليس كذلك ؟ بلى وما أحسبك من المكابرين !

ولكن ما رأيك فى أن ذلك الصيد الذى تظفر به فى بعض غدواتك أو روحاتك أطيب مساغا وأحمد عاقبة من صيد باريس . لا تلوِ وجهك ياصديقى ولا يثقل عليك كلامى فانا أقول الحق . إن صيدك فى القاهرة حلوٌ وديع لا يحمل المسدس ولا

يحسن الضرب بالرصاص . هل فهمت الآن ؟ إن صيدك يكاد يُجنُّ من الفرح حين يقع فى الشِّبَاك . وقد يتأبَّى ويتمنع ، ولكنه يتمنى أن يظل سجين الفخ أبد الآبدين . وقد يكون صيدك مسلحا ، ولكن بأى سلاح ؟ سلاح الطرف الغضيض الذى يحمل فى تكسره ما بقى من سحر هاروت وماروت . وقد يطمع صيدك . ولكن فيم يطمع ؟ فى نزهة قصيرة بالسيارة فى حراسة القمر وعلى شواطىء النيل . فان نفحته بشىء من بقايا فضلك فأنت فى عينيه أكرم من أقلَّت الارض وأظلَّت السماء

أما صيد باريس فيختلف عن ذلك الصيد أشد الاختلاف . ولكن هل فى باريس صيد ؟ لقد بحثت كثيرا هذه المسألة ، نظرتها أولا فى أمهات الكتب وفى المعاجم والقواميس ، واختبرتها ثانيا فى المسارح والمشارب والحدائق والشوارع والميادين ، وسألت عنها الناس ، من جميع الأجناس ، وانتهيت بعد البحث الطويل إلى الحقيقة الآتية :

« ليس فى باريس صيد . ليس فى باريس إلا ظباء هرب منها قانصوها »

هذه هى الحقيقة التى لا يمترى فيها إلا كل مغرور مفتون ، وأى لذة وأى فتنة ، وأى سحر بقى لتلك الظباء الغوادر اللاتى أضناهن كيد الليل ومكر النهار ؟ إن الفتاة لا تجدك إلا بعد

أن تكون قد ألِفتْ جميع ضروب الختل والخداع : وفى صدر كل فتاة باريسية خاطر يوسوس وقلب يخون ، ويندر جداً ألا يكون فى جيبها سلاح محشو بأسباب الحتف والهلاك . ففى كل جريدة وكل نشرة وكل مجلة أخبار مزعجة بشعة مخيفة عن ضحايا الحب الأثيم . وإذا كنت تجد أحياناً فى الصحف المصرية صدًى لحوادث الفتيات الفاتكات فذلك وَشَل قليل جداً إذا أُضيف إلى هذه المجازر البشرية التى تقع فى باريس مدينة النور فيما يزعمون

ولك أن تسأل ياصديقى عن سر هذا الوباء الخلقى الذى يفتك بالناس فى باريس ، وتوضيح ذلك سهل : فإن جمهرة الفتيات اللآئى تتكوّن منهن عصابات الإثم والغواية ينشأن عادة من طبقات فقيرة. والطبقات الفقيرة هنا هى طبقات العمال . والعامل الفرنسى فى الأغلب رجل خشن جاف تشقيه مهنته ويضنيه عمله. فإذا شبّت له طفلة ألحقها بعمل من الأعمال يكون غالباً فى دار من دور التطريز، وفى تلك الدور طبقات مختلفة من النساء يعرفن جميعاً كيف ينظم الهندام الفتان ، وكيف يكون للمرأة اللبقة أصحاب وأخدان . وكذلك تقضى الفتاة يومها فى بيئة لينة تقتل الوقت بالعمل وبالتحدث عما وقع لفلانة مع فلان ، والفتاة الحدَثة طُلَعة متشوِّفة تصغى لكل حديث ، وتتطلع إلى كل قادم ، وتتأمل كل حركة ، وتميل مع كل ريح . فإذا جاء المساء عادت إلى مأواها فوجدت

أمها فى ثيابها الخَلِقة ، ولقيت أباها كعادته قذر الثياب عابس الوجه لايعطف ولا يلين ، ثم تُقدَّم المائدة فتراها باردة لا طعم لها ولالون ، لأنها مائدة عمال فقراء يتقاسمون اللقمة ويتناهبون الحِساء ، فترجع الفتاة إلى ذاكرتها تستحضر ما سمعت طول اليوم من وصف المآدب والموائد حيث كان النساء العاملات يعددن بإسهاب وإطناب ما كان من ترف وفتنة ورفاهية مع الأصدقاء والخلان

ومن تلك اللحظة تتسع الهوة بين الفتاة وبين أهلها فهى بينهم فى سجن مظلم لانوافذ له ولا أبواب ، وتمر الأيام تلو الأيام وهى تفكر وتدرس وتقارن بين حالتها التعسة وحالات رفيقاتها اللاتى يمرحن فى بحابح النعيم . وتسأل نفسها : أيكون هؤلاء الرفيقات من بيوتات أغنى وأقدر على جلب أسباب المرح والرغد والاقبال ؟ ثم يتضح لها بعد البحث أن النشأة تكاد تكون واحدة وأن هؤلاء اللاهيات المرحات لا يمتزن عنها إلا بشىء واحد، شىء واحد فقط لا أكثر ولا أقل ، وذلك الشىء الواحد ما هو وما عسى أن يكون : هو الصديق !

الصديق ! نعم هو الصديق الذى يغيِّر الفتاة من حال إلى حال ، وهو من أمرها على كل شىء قدير ، ولكن كيف السبيل إلى هذا الكنز الثمين ؟ كيف ؟ كيف ؟ ذلك ما تحار فيه الفتاة ، لأنها

لا تزال فى أول عهدها بالحياة ، وهى ككل فتاة ناشئة تحمل فى صدرها بقايا طيبة من عناصر الخجل والحياء ، وكذلك تقضى عدة أسابيع أو عدة أشهر وهى فريسة الهواجس والبلابل والتأملات السود ، لانها أضعف وأوهن من أن تصارح أمها أو رفيقاتها بتلك الحاجة الملحة : حاجة الفتاة الشقية العذراء الى الصديق

وفى أثناء هذه الأزمة الخطيرة تتأمل وهي فى دار من دور السينما فاذا فتى يسارقها النظر ويهدى اليها طيف ابتسامة ، فتعود المسكينة إلى نفسها فاذا قلبها يخفق ، وبصرها يزيغ ، وتدمدم فى فرح مشوب بالخوف : هذا صديق ! ثم تجرؤ رويداً رويداً فتبادله النظرات والبسمات فى هدوء متكلَّف مصنوع ، لأنها صارت كالثمرة الناضجة تنتظر أول هزة لتودع الدوح وتهوى إلى الأرض !

ويتلاقى العاشقان على الباب ، فيقول الفتى : مدموازيل ! فتجيبه الفتاة : مسيو ! ويقف الأمر لأول مرة عند هذا الحد . فاذا مضت الفتاة إلى بيتها قضت الليل كله أَرِقة مهتاجة لا تعرف السبيل إلى القرار . هذا فتى رشيق حلو الشمائل مليح الهندام ، يظهر انه تلميذ فى مدرسة ثانوية أو طالب فى إحدى كليات الجامعة ، أو موظف ناشئ فى إحدى المصالح العمومية ، ألا يكون هذا هو الصديق المنشود ؟

وفى اليوم التالى تبكر الفتاة إلى نفس الملهى علها تجد رفيق

الأمس ، وما أشد سرورها حين تراه ينتظرها على الباب وهو فى رُواء آنق وأروع ، وقد أخذ زينته ، ومَوّج شعره ، وأصلح من هندامه ، وأحضر لها باقة من الزهر النضير .

هذا ياصديقى شعر بديع يقع على قلب الفتاة موقعاً أخاذاً يأسر منها العقل والحواس . . ثم تمضى الأيام فى فتنة متصلة أنت أعرف بما لهـا من دقائق وتفاصيل ، إلى أن يقع الخطر ، وهذا الخطر يبدو لأول وهلة بسيطاً مأمون العواقب لأنهما قد تواعدا على الزواج . ولـكن كيف يكون ذلك والفتى قد نشأ فى بيئة غنية وقد أرسله والداه ليتم دراسة الطب أو الحقوق فى باريس ، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يعينه أهله على التزوج من فتاة فقيرة ليس لها مهر ولا ثروة ، والمهر والثروة هما أساس الزواج فى أوروبا وخاصة فى باريس

وكذلك يفترق العاشقان بعد أن تكون الفتاة قد ألقت نفسها الى الأبد فى هاوية الشقاء . ومن هنا ينشأ الحقد الخالد حقد الفتاة اللعوب على كل فتى جميل ، فان سمعت أن فتاة باريسية سلبت عاشقها ما يملك ، أو ضربته بالمسدس ، أو طعنته بالسكين ، فاعلم ياصديقى أنها تنتقم من عاشقها الأول ، وكل عاشق هو فى عينها صورة مكررة لذلك الغادر الختال . . .

افهم هذا واقنع بصيد القاهرة ، واذكر أخاك بخير ، والسلام .

باريس فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

شهداء السين

شهداء السين ؟ إى والله ! وكم للسين من شهداء

إننا لا نتحدث فى هذا المقال عن ضحايا الحب ، ولا عن الصرعى الذين تنقل الجرائد أخبارهم صباح مساء ، فان باريس من بين مدن العالم تمتاز بهذه المآسى الشنيعة المزعجة التى تقع بين العشاق فى كل حى من أحيائها العديدة . ولعل السر فى هذا يرجع إلى أن أهل هذه المدينة شديدو الحساسية ، سريعو التأثر والانفعال . والباريسى بطبعه رجل قلق كثير الوساوس والشجون . ويزيد فى هذا سيادة النظام الخطر : نظام المخادنة ، وهو نظام لا يقصر شره على الأعزاب وحدهم ، وانما يتعداهم الى الأزواج : فليس من المستغرب هنا أن يكون لكل زوج خليلة ولكل زوجة خليل . والقوم قد درجوا على الشر حتى لا يرجى لهم شفاء ، فحوادث الحب والخيانة هى كل مايجرى فى المسارح ودور السينما ، وكل مايجرى أيضا فى الدراسات الأدبية التى يتلقاها الشبان فى المعاهد والجامعات . ولنظام المخادنة خيره وشره : فهو خير لانه شبه دواء لهذا الجنون المستعر جنون الشباب ، وهو شر مستطير لانه يخلق من الفساد الخلقى والاجتماعى أمراضا كثيرة أيسرها الموت الذريع كلما هبت رياح الشقاق

لا نتكلم هنا عن ضحايا الحب ، وانما نتكلم عن شهداء الفاقة والبؤس ، فان باريس لم تستطع ولن تستطيع أن تصيِّر أهلها جميعاً سعداء ، وكيف يمكن ذلك ونحن فى عصور لا تعرف ما القناعة وما الزهد وما الرضا بالقليل ، وقد عفَتْ منها جميع الرسوم الدينية التى كانت تحمل الناس بقوة العقيدة على الرضا بأرزاقهم وحظوظهم فى الحياة ، ومن النادر أن ترى كنيسة مزدحمة بأسراب المؤمنين والمؤمنات ، حيث تلقى العظات والكلمات الحكيمة للتأسى بالأنبياء والقديسين ممن قضوا أعمارهم ينتظرون ما تسوق إليهم الرحمة الالهية من صنوف البر والاحسان . انما يعيش أهل باريس فى التطلع بعضهم إلى بعض وحسد من يجد لقمته فى الصباح وحساءه فى المساء ، وقد يتشوفون إلى من تواتيه الظروف فينحدر إلى الحانة يعبّ ما طاب له من ألوان الشراب . تلك هى حياة أهل هذه المدينة التى تأكل أبناءها كما تفعل القطة المجنونة ، وليس فى الدنيا مدينة يموت فيها الإنسان جوعا إذا نفدت دراهمه غير باريس ، وتشبهها لندرا وبرلين فى هذا الجانب المظلم . فليس ازدهار المدن فى الواقع إلا مُتعة للأغنياء والموسرين ، أما الفقراء فلهم من المدن المزدهرة حظ البأساء والضراء

فى باريس طائفة كبيرة من أهل البطالة والفراغ ، وهذه الطائفة كثيرة التطلع والتشوف إلى حوادث الطريق ، فهذه

الملاهى الوقتية التى تسوقها الحوادث هى كل ما يملكون من أسباب التسلية . وكذلك تراهم يتجمعون تجمّع النمل فى لحظة واحدة إذا تصادمت سيارتان ، أو سقط كلب تحت الترام ، أو قبض البوليس على رجل متشرد ، أو وقف بائع متجول فى ناحية يعرض ماعنده من طرائف الأشياء ، وهؤلاء الناس يسميهم الباريسيون « بادو » badaud ولهم فيهم قصص وأحاديث

***

كنت أمس فى الساعة الحادية عشرة صباحا أمشى على شاطىء السين فما راعنى إلا فتى يلقى بنفسه فى الماء . وسرعان ما تجمّع الناس وفى دقائق معدودة جاء البوليس وجاء رجال الاسعاف ، وفى هذه الأثناء مرت بالخاطر أخيلة كثيرة وأطياف شتى من صور الحياة: من عسى أن يكون هذا الفتى ؟ ومن أى طبقة ؟ وما هى محنته ؟ وكيف استسلم إلى هذا المصير الفاجع ؟ وكيف بدا له أن يودع باريس ؟ وكيف كان حقده على الوادعين والوادعات ، والآمنين والآمنات ، قُبيل اللحظة التى أقدم فيها على هذا الجرم الفظيع ؟ وما الذى كان يمر بباله من نعماء هذه الدنيا وبأسائها ، حين حملته رجلاه إلى هاوية الفناء ؟ وكيف كان شعوره بالموت والحياة ، والعدم والوجود ؟ وفيمن كان يفكر ؟ وإلى من كان يحن ويشتاق ؟ وعلى من كان يعتب ؟ وكيف كان يتمثل ظلام الهلاك ؟

مرت هذه الأسئلة بالخاطر مرَّ الطيف ، ثم رفعت بصرى أتأمل ما أمامى ، فاذا رجال الاسعاف قد نزلوا فى فُلك صغير يبحثون هنا وهناك عن جثة الغريق ولكنهم لا يهتدون ، وبعد لحظة تراءى للمتجمهرين شبح على الماء فأهابوا بالبحارة ، فمضى بعضهم فى فُلكه حتى أدرك ذلك الشبح . ولكنه لم يجده إنساناً إنما هى لفافة من الورق تطفو على وجه الماء ، فعاد البحار يبحث فى مكان آخر ، وبعد عشر دقائق عثرت أسنان الملاقط على جثة الغريق فرفعوه ، وما كاد يبدو وجهه حتى حسبه الناس ينُوس ، ورجوا أن يكون فيه رمق من الحياة ، وزادهم طمعا فى نجاته ما بدا من بريق شعره ، ونضارة جسمه . وجاء الطبيب يخلع عن المسكين ملابسه ، وشرط أذرعته يخرج الدم يتصبب ، وبُدئت عملية التنفس الصناعى فى مهارة ونشاط

وكان الناس يشاهدون هذا المنظر فى تطلّع لا يصحبه ألم ولا حزن. أما أنا فقد وقفت ذاهل اللب أنظر ما سيكون ، ولعل هذا يرجع إلى أننى كدت أغرق فى عهد الحداثة لو لا أن أتاح الله لى مروءة ذلك الفلاح الصالح المرحوم أحمد الصواف ، وقد أنقذتُ بنفسى أربعة من الغرق ، أعاننى الله على إنقاذهم من تلك الميتة الشنعاء ميتة الاختناق

منظر محزن يخلع القلوب. رأيت أن أنظر فيه أخلاق الناس

فى باريس ، وقد أدهشنى أن رجال الاسعاف كانوا يتضاحكون أحيانًا وهم يجرون عملية التنفس ، وزادت دهشتى حين رأيت المشاهدين يتبادلون بعض النكت فى طمأنينة وهدوء ، وبلغ الأمر أن فاه بعضهم بكلمة مضحكة فأغرق الناس فى القهقهة بشكل مخجل مُريب ، حتى كاد البوليس يفرق جمعهم ، ثم تركهم فى غيهم يعمهون

ومضت ساعة كاملة فى عملية التنفس والصريع ملقى على وجهه يقاسى جسمه الفانى ألوانا من الإجهاد ، وطال بى الوقوف وقرصنى الجوع فمضيت أتناول الغداء ، ولا أدرى كيف عدت بعد ذلك لأرى مصير الغريق ، وقد رأيت الناس لم يتفرقوا ، ورأيت رجال الإسعاف ماضين فى عملية التنفس بنفس النشاط الذى ابتدؤا به فلما دقت الساعة الثانية وكان قد مضى على عملية التنفس أكثر من ساعتين عرفوا أن لا أمل فى ذلك الصريع الذى سقط شهيد البأساء فى باريس

وسرعان ماجاءوا بنعش صغير حملوا فيه جثة الميت ، حملها رجلان اثنان وتبعهما الناس وهم يتزاحمون كأن لم يروا من قبل ميتاً يحمل على الأعناق ، وسرت مع السائرين أنظر ما سيكون فرأيتهم يدخلون به المستشفى الذى يسمى (بيت الله) فعجبت كيف صحت التسمية لذلك المستشفى الذى يتلقى على الرحب والسعة من لم يبق لهم غير رحمة الله

وقد خفّت حركة الناس حين وصلوا بالميت إلى ذلك المكان إذ رأوا أن ملاحقته هنالك ضرب من الفضول المرذول ، وأقبل عدد من السيدات فى الثياب البيض ثياب التمريض فتلقين الميت ببعض التسبيحات والدعوات

***

كان ذلك الحادث أمام كنيسة نوتردام وكان مفهوما بالطبع أن الغريق من أهل ذلك الحى . ومع ذلك لم يُر أحد يهتم بالميت فلا أهل ولا أصدقاء ، ولم يُرفى الحاضرين من يقول : هـذا هو المسكين فلان الذى كان يعمل فى مخزن فلان

فكيف وقع ذلك ؟

الجواب حاضر : ذلك أن باريس تستقدم إليها العمال الفقراء من جميع الأقاليم الفرنسية : ثم تتركهم بلا ناصرولا معين

وفى باريس منازل لإيواء البائسين فيها ما يسمونه « منازل الحبال » وسميت كذلك لأن فيها حبالا يضع عليها البائسون ثيابهم ثم ينامون على البلاط : بأجر مقبول هو ثلاثة مليمات فى الليلة ، وفيها ما يسمى « بيت الشعب » وهو بيت كبير جداً ينام فيه الفقراء ويتناولون لقمة فى الصباح وحِساء فى المساء : بأجر مقبول أيضاً هو ثمانون قرشا فى الشهر . ولكن أتظن أن جميع الشبان البائسين يصبرون على مواجهة الحياة فى بيت الشعب

ومنازل الجبال ؟ هيهات ! فقد غرست فى أبنائها روح الترف ، وعلمتهم كيف يثورون على أوضاع الاجتماع ، كما غرست فيهم روح السخرية ، وعلمتهم كيف يشهدون مصارع المنتحرين فى هدوء مطبوع

باريس ! أيتها الطاحونة العاتية ! أيتها الدنيا الغادرة ! كم فيك من قلب مفطور ! وكم فيك من دم مطلول ! ومع ذلك لا تزالين أمل الآمل وأمنية المتمنى ، ومأوى ماندّ وشرد من ألباب الشعراء وعباقرة الفنون

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠

حديث المائدة

كنا خمسة على المائدة وكانت ربة الدار تسأل كل واحد عما عمله فى يومه ، فابتدأ أحدنا وقال :

فى هذا اليوم تغديت فى فرساى ، فى مطعم أنيق لم تقع العين على مثله ، فأكلنا كيت وكيت ، وشربنا ذيت وذيت ، وأخذ يعدد أصناف الطعام والشراب بشكل شائق جذاب ، حتى كاد لُعاب الحاضرين يسيل شوقا إلى ذلك الطعام الموصوف

قلت : ومن الذى هداك إلى ذلك المطعم ياسيدى ؟ فأجاب : إنه قسيس ، ولا يعرف قيمة الطعام غير رجال الدين ! فهم وحدهم أهل الخبرة الدقيقة بمختلف المطاعم وحانات الشراب !

ماذا يملك

رئيس الجمهورية الفرنسية

صديقى ...

لقد ظلمتنى حين كتبت تسألنى أن أفصل لك بعض الأنظمة الدستورية فى فرنسا الحاضرة ، فانا رجل حُبِّب إلىّ أن أهتم بالماضى من حياة الشعوب . وهذا نفسه جانب من جوانب الضعف فى حياتنا العلمية والأدبية ، وهو ضعف يكاد يُقصر شره على أمم الشرق . فالمصريون مثلا يعرفون من أخبار الأمويين والعباسيين ما لا يعرفون من أخبار الفاطميين والمماليك ، حتى إذا وصلت إلى العهد الأخير الذى تكوّنت فيه مصر الحديثة وجدت سواد المتعلمين يجهل ذلك العهد تمام الجهل . ومن أجل هذا كانت حماستنا لدراسة التاريخ حماسة فاترة ، لاننا نبدأ بدراسة مالا تمسنا دراسته ، وننتقل بأذهاننا وعقولنا الى أجيال بعيدة لا تربطنا بها غير روابط ضعيفة أصبحت على أهميتها فى ضمانة التاريخ . ولو أننا ابتدأنا فدرسنا حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية لكان نشاطنا أوفر ، وإحساسنا أعمق ، وفهمنا أدق . لان العصر الحاضر أقرب الينا ، وأعلق بنفوسنا وعقولنا وقلوبنا وحواسنا . وهو لذلك جدير بأن يجعلنا أكثر

استعداداً لفهم العصور التى خلقته وكوّنته ووصلت به الى صورته الحاضرة. وإنك لتعلم أنه لولا اهتمام الشبان فى مصر بمتابعة الحوادث اليومية لكان من الممكن أن تجد عددا كبيرا من طلبة المدارس الثانوية يجهلون كيف ابتدأت النهضة الأخيرة فى سنة ١٩١٨ . وأنا حين أقول (١٩١٨) متأكد أن بعض الشبان سيتلفت ويقول: «هذا خطأ، إن النهضة المصرية الأخيرة ابتدأت سنة ١٩١٩» ويندر جدا أن تجد من الشبان من يميز جيدا كيف ابتدأ مصطفى كامل وكيف انتهت حياة محمد فريد: لان الكتب المدرسية لا تعنى بذلك، وهى حين تُعنَى به تذكره مقتضبا مخطوفا لا يغنى ولا يفيد. وقل مثل ذلك فى الشؤون الأدبية، فان الشبان يعرفون عن امرىء القيس وزهير، على بعد العهد، ما لا يعرفون عن البارودى واسماعيل صبرى، وقد لقيت فى باريس شابا من «البوسنه» يحفظ قصيدة امام العبد فى مناجاة الاهرام! فحدثنى بربك كم شابا فى المدارس الثانوية يعرفون مَن هو امام العبد وكيف ناجى الاهرام! وعساك لا تجد من يعرف «امام العبد» غير من ساجلوه واكتووا بأهاجيه مثل شوقى وحافظ ومطران

وهذا الجهل الذى نرمى به شباننا مصدره أنهم يكتفون فى الأغلب بما يتلقونه فى المدارس الثانوية. وأساتذة تلك المدارس يحدثون الطلبة عن كل شىء إلا ما يختص بالعهود الأخيرة، وعساك

تذكر مهرجان شوقى : فقد كان من المقرر أن تلقى عنه محاضرة فى الجامعة المصرية ، وكانت الكلمة للدكتور طه حسين، أفتذكر ماقال ؟ لقد ألقى محاضرة عن الأخطل ، بحجة أن الجامعة لايدرس فيها غير الأموات من الشعراء !

وهذا الإحجام عن دراسة العهود القريبة والحاضرة له سبب : ذلك أننا فى مصر تغلب علينا الوساوس الشخصية ، ونكاد نقع صرعى لمناوشات الأحزاب . فهناك كتب عن «التربية الوطنية» لمدارس المعلمين عرض فيها المؤلفون لحوادث العهد القريب ثم أغفلوا عامدين اسم « سعد زغلول » لان اسمه قد يثير حقد بعض الناس ! !

وبعد فهذه مقدمة ضرورية طويت فيها السبب الذى أحجمت من أجله عن موافاتك بما سألت . وأنا محدثك اليوم عما يملك رئيس الجمهورية الفرنسية لانه على أى حال « مسيو » كما يقول الباريسيون ، ولا تنتظر منى تفصيلا طويلا لأنى رجل ملول ، ولا أقول هيوب : فقد أقدمت يوم جدّ الخطب غير وجل ولا هياب ، وما عهد الثورة ببعيد

ولتعلم أولا أن غرام فرنسا بالنظام الجمهورى غرس فى نفوس أبنائها الحقد على العهود الملكية . وهذا الحقد قد أفسد عقول كثير من أساتذة التاريخ . حتى رجال السوربون . فمن النادر أن يتكلموا عن ملوكهم بعبارات الاحترام . والغالب عليهم أن يخوضوا

فى أحاديث ملوكهم خوضا أثيما . وقلّ منهم من يفرق بين الحياة الاجتماعية والحياة الشخصية ، حتى انك لتدرك أنهم لا يصلحون أن يكونوا أساتذة تاريخ . والفرنسى كما تعلم من أذكى الناس ، وهو يوجّه ذكاءه أحيانا توجيها خطرا حين يؤرخ الملوك ، ويكفى أن أذكر لك أن بعض أساتذة السوربون أخذ مرة يعدد مثالب ملك من ملوكهم الماضين ثم ختم محاضرته بالعبارة الآتية إذ قال :

« وبعد هذا كله لا ينبغى لنا أن ننسى أن ذلك الملك أتى بحسنة غطت على جميع سيئاته : وهى أنه تفضل فمات » ! !

وهذه العبارة تُريك الى أى حد يبرع أولئك القوم فى إلقاء النكتة . . وقد انقضى عهد الملكية بخيره وشره ، ولم يبق له من الأنصار إلا أقلية ضئيلة لا يحسب لها حساب ، أفتدرى ما نصيب رئيس الجمهورية فى فرنسا الحاضرة ؟

اسمع واعجب أيها الصديق

إن رئيس الجمهورية الفرنسية يشابه تمام المشابهة ذلك الخليفة العباسى الذى قال

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما هان ممتنعاً عليهِ
وتُؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شىء فى يديهِ

فهو يملك كل شىء ، وليس بيده شىء . إن رئيس الجمهورية الفرنسية له حقوق تفوق حقوق الملوك . فهو بحكم الدستور

الفرنسى يملك من السلطة أكثر مما يملك ملك الانجليز وملك البلجيك ، وهو مع هذا أضعف من أصغر فلاح فى انجلترا أو بلجيكا . وأصغر فرنسى يملك من الحرية الشخصية مالا يملك ذلك الرئيس . . . وإليك بعض البيان :

رئيس الجمهورية الفرنسية يملك حل البرلمان ، فالنواب والشيوخ يعيشون تحت رحمته : إن شاء أبقى عليهم ، وإن شاء مزقهم شر ممزق ، وتركهم يخطبون وداد الناخبين من جديد ، ويا له من عبء ثقيل !

ولكن مهلا ! فان ذلك الرئيس بحكم الدستور لايملك حل مجلس النواب إلا إذا صادق مجلس الشيوخ ، وهيهات أن يصادق الشيوخ على حل مجلس النواب ، لأن النواب إليهم الأمر فى انتخاب الشيوخ ، وبذلك تتلاشى سلطة رئيس الجمهورية على البرلمان

رئيس الجمهورية له حق العفو : فبيده أن يعفو عمن حكم عليهم بالإعدام أو قُضى عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فهو بذلك سيد ترجى رحمته ويُخشى غضبه

ولكن عفواً ! فان رئيس الجمهورية لايملك حق العفو إلا إذا اقترحته اللجنة الخاصة بذلك فى وزارة الحقانية

وعلى هذا ضاع فضله فى إنقاذ من أشقاهم القضاء . وقد يحدث أن يقتنع هو ببراءة بعض المتهمين ، ولكنه مع ذلك لايملك أن

يتدخل أو يتعقب ،لأن الدستور لايجيز له ذلك ، وهو للدستور من الخاضعين

رئيس الجمهورية هو الذى يرأس مجلس الوزراء فلا يُقضى بشيء إذن وهو غائب

ولكن رويداً ! فان الوزراء هم الذين يُعدون كل شيء ، ويقضون فى كل شأن . وليس لرئيس الجمهورية أكثر من شرف الحضور ، وليس له بحكم الدستور أن يناقض الوزراء ، وله فقط أن يبدى ملاحظاته . وللوزراء أن يخالفوه إن شاءوا ، وأن يوافقوه إذا أرادوا . وقد كان يقع حين كان بوانكاريه رئيساً للجمهورية ، وكان كلمنصو رئيساً للوزارة ، أن لا يفكر رئيس المجلس فى دعوة رئيس الجمهورية : فكان بوانكاريه لا يعلم بموعد انعقاد المجلس إلا حين تصله برقيات هافاس !

رئيس الجمهورية مطلق التصرف فى جميع أعماله ومشيئاته يُوَلِّى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويعطى ويمنع كيف أراد

ولكن هذا كله لاقيمة له ، وليس فيه أثر للحرية الشخصية إذا لاحظنا أن الدستور الفرنسى ينص على أن أعمال رئيس الجمهورية وتصرفاته لاتعمل عملها المنشود إلا إذا وُضع إمضاء الوزير المختص بجانب إمضاء الرئيس

ولا تدهش إذا قلت لك إن رئيس الجمهورية الفرنسية

لايملك حق مخاطبة الجماهير . فان سألت ما معنى ذلك فانى مخبرك بأن رئيس الجمهورية ليس له أن يُعدّ الخطب التى يلقيها فى الحفلات الرسمية ، وإنما يكتبها الوزراء بأنفسهم ثم يقدمونها إليه مطبوعة وفى أكثر الأحيان يجلس الرئيس من الوزير مجلس التلميذ من الأستاذ حيث يُرِيه الوزير المواطنَ التى يخفض فيها صوته والمواضع التى يتكلم فيها بشدة وفقاً للقاعدة المأثورة : « لكل مقام مقال » !

ولك أن تسأل بعد ذلك : إذا كان هذا مركز رئيس الجمهورية، فما الموجب لبقائه ؟

وأجيبك بأن الفرنسيين أنفسهم يسألون هذا السؤال ، ومنهم من فكر فى إلغاء هذا المنصب اكتفاء بقوة البرلمان ولكن هل معنى ذلك أن النواب والشيوخ يعيشون فى فرنسا عيش الحكام المستبدين ؟

لا . لا . فان الفرنسيين يكرهون السيطرة والاستبداد وقسوتهم على نوابهم وشيوخهم شديدة ، ورقابتهم عليهم قاسية. وقد حدثنا بعض الأساتذة أنه كان أستاذاً بإحدى المدارس الثانوية فقدم أحد النواب لزيارته فى مكتبه وأخبره أنه يقترح بصفته أباً لتلميذ لا بصفته نائباً أن يتفضل الأستاذ فينقل ابنه إلى فرقة أعلى . فرفض الأستاذ الاقتراح بحجة أن ذلك الابن

جاهل و كسلان . وهنا ثار الزائر وقال : بصفتى نائباً أفرض أن ينقل ابنى إلى فرقة أعلى من فرقته . فغضب الأستاذ وانتهر النائب وطرده من مكتبه . وفى اليوم التالى ـ بعد مفاوضات سرية ـ جاءت اشارة من وزير المعارف بنقل ذلك التلميذ إلى فرقة أعلى : فثارت هيئة المدرسين واحتجوا على الوزير و كشفوا مهزلة ذلك النائب المختال ! !

وقد عقب الأستاذ على هذه القصة بأن فرنسا لم تكن لتطرد الملك المسؤول لتقع تحت سيطرة ٥٠٠ ملك غير مسئولين !

والخلاصة أن رياسة الجمهورية الفرنسية نكبة على كبار الرجال : فقد يكون الرجل من أنفع الناس لأمته ، ثم ينتخب رئيساً للجمهورية فيُشَلّ نشاطه سبع سنين . وقد حُرمت فرنسا من عبقرية بوانكاريه أيام الحرب ، لأنه كان سجيناً طليقاً فى قصر الأليزيه ، وأنت تعرف ما يقاسى القائد المغوار حين يحال بينه وبين الميدان

ماذا يملك رئيس الجمهورية الفرنسية ؟ ماذا يملك ؟

إنه لا سلطان له إلا بفضل ماضيه ، إن كان من أصحاب الماضى النبيل ، إنه لا يملك إلا كلمة الخير يقدمها خالصة الى الوزراء ، وقد يكون سلطانه لا حدّ له إذا كان ممن رُزقوا قوة العقيدة

وحرارة الاخلاص، فان الفرنسيين أهل كبرياء وعناد، ولا يطيعون إلا راضين مقتنعين

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »

باريس فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

كان ياما كان

تحدث بعض الناس فى هذه الأيام عن وصول العرب إلى أمريكا قبل كريستوف كولومب، وهى مسألة تحتاج إلى تحقيق طويل، والذى لاشك فيه أن العرب فرضوا سيادتهم على عدد عظيم من الأمم القديمة، وملكوا ناصية السياسة والمدنية بلا مزاحم نحو ثلاثة قرون، وهى مدة ليست قليلة فى سيادة الشعوب

كل هذا جميل، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هناك أعجوبة أخطر من أعجوبة العبور إلى أمريكا قبل أن يعرفها الاسبان، أوَ يدرى القارىء ما هى تلك الأعجوبة؟

تلك هى احتلال فرنسا وانجلترا وإيطاليا لأكثر أقطار الشرق الأدنى فى أقل من أربعين عاما

لقد آن أن نفكر فى الحاضر، وأن نعرف أن احتلال العرب لجزء من أوروبا وتفكيرهم فى فتح أمريكا لا يغنيان شيئا فى هذه الفضيحة الشنيعة فضيحة الصبر على الاستعباد

وبيد الأمم الشرقية محو هذا العار، لو فكرت جدّيا فى الخلاص وزهدت فى المجد المكذوب الذى يمثله هذا البيت :

وتفرّقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبرُ

زفرات

لم أَقْضِ منك مُرادى ولا شَفَيْتُ غليلى
يا فِتنتى فى مُقامى ومحنتى فى رحيلى

ضللتُ، والحبُّ تِيهٌ إلى النجاة سبيلى
فمن سِوَاكَ نصيرى ومَن سِوَاكَ دليلى

أُحب فيك عذابى يا هاجرى وذُبولى
وتستطيبُ جُفونى على السُّهاد عويلى

يا طيفُ أنت كتابى على النَّوى ورسولى
فصِفْ لظَلَّام قلبى مدامعى ونُحولى
وانقُلْ إليه شكاتى فى حُبهِ وذُهولى
وما جَناهُ رقيبى وما جناه عذولى
وصِفْ غليل فؤادى لريقهِ المعسول
وما تُجنُّ ضُلوعى للَحْظهِ المكحول

رَبَّاهُ مَنْ لأسيرٍ مُصفَّدٍ مَكْبول
يهيمُ بين رُسومٍ من المنى وطُلولِ
حَبَسْتَ وَقَدْ حَشاهُ على غريرٍ مَلولِ
مُصرَّد العطف ضارٍ على العقوق مَطولِ

باريس فى ١٩ يونيه سنة ١٩٢٧

سهرة فى قهوة الجامع

صديقى الأستاذ أحمد الزين

تحيتى اليك من هذه الديار التى طالما تشوقت اليها ، وحننت إلى ربوعها العامرة ، وقرأت أخبارها فيما تُرجم عن حياتها إلى اللغة العربية

وبعدُ فقد كنت سألتنى أن أكتب اليك ، ووعدتك مخلصا بذلك ، وهأنا أفى بالوعد ، فسامحنى أولا ان لم أقل « هأنذا » فانها ثقيلة ولم يلتزمها إلا المتكافون ، وأنت تعرف إلى أى حد يُملُّني التكلف ، ويثقل علىّ التزام مالا يلزم فى الكتابة وفى الحديث .

لقد ذكرتك ياصديقى ، ولكن حاشا أن يمر ببالك قول عنترة العبسى

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
برقت كبارق ثغرك المتبسم

لاتذكر هذا لأنك تعرف أولا أن الله كتب علينا أن نعيش فى سلام هو شر من الحرب : فلا رماح ولا سيوف ،

وتعرف ثانياً أنه ليس فيك أى سِمة من سمات الملاحة حتى نذكر بسماتك العِذاب ، وهذا لا يجرحك بالطبع ، لأنه ماحاجتك إلى الجمال وقد وقفت حياتك على مغازلة الصحف البالية فى دار الكتب المصرية . إنما يحتاجُ إلى الجمال أديب متأنق تقضى عليه تكاليف الحياة بأن يلتقط الأسرار فى صالات الرقص وأبهاء الوزراء ، أمثال فلان وفلان ، وقد أراحك الله من كل ذلك ، فاحمده حمد المخلصين على أن منحك فقط بِنْية متواضعة وذهنا ثاقبا ، ولسانا فصيحا يصل بك إلى ما تريد ، أو بعض ما تريد ، فى عصر لا تغنى فيه بلاغة القلم ولا فصاحة اللسان .

لقد كنت نسيتك ياصديقى ، ولم يذكرنى بك إلا قهوة الجامع فى باريس ، فقد سافر خاطرى الى قهوة الحامية الجديدة بالقاهرة . حيث تقضى سهراتك فى صحبة أصدقائنا الأساتذة محمد الهراوى وحسن القاياتى وكامل كيلانى ومحمد عبد المطلب . وحيث تشربون مالذّ وطاب من قهوة أبى الفضل لا قهوة أبى نواس . وأنا لا أتهمكم ياصديقى بأنكم تؤثرون قهوة أبى الفضل لأنها رخيصة ، كلا ، معاذ الله أن يمر بخاطرى ذلك ، فأنا أعرف أنك لا تعاقر الراح لأنها لا تتناسب على الأقل مع رجل معمم يحمل إجازة الأزهر الشريف ، وصديقنا الهراوى رجل محتشم أشد الاحتشام ، والسيد حسن القاياتى من سلالة أبى هريرة رضى الله

عنه ! وأخونا كامل كيلانى مشغول بتدبير صحته ؛ وهو عافاه الله مهدَّم لا يخاطر بحياته فى منازلة الصهباء . يبقى الشيخ عبد المطلب وهو رجل لو رأته الكأس لولّت هاربة الى حيث لا تعود ، فليس منها وليست منه ، مهما حشر نفسه فى زمرة الشعراء ! وبهذه المناسبة تستطيع أن تطمئن على أخيك من هذه الناحية ، فأنا أيضاً لا أشرب الراح ، أو على الأصح لا أشربها الا مُشعشعة مقتولة لا ترخى المفصل ، ولا تزيغ البصر ، ولا يسرى روحها الى قرارة الأسرار وليس لى منها يعلم الله صَبُوح ولا غَبُوق الا حين أبكى عهداً سلف ، أو أطرب الى عهد مأمول . وقد صحا القلب ، والحمد لله ، فلم تبق داعية الى معاقرة الشراب ، وتذكُّر الأحباب . وأغرب ما يمر بخاطرى فى هذه اللحظة حديث الشيخ يوسف الدجوى حين كان يقول فى دروسه بالأزهر إنه لا يشرب إلا الماء ويعلق على ذلك بقوله : والماء مع هذا شراب الحمير ! وكنت إذ ذاك أعجب كيف يتحسر مثل هذا العارف بالله على أن لم يرزق من الشراب إلا ما يشاركه فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك أن الكلام قديم ، وأنه يرجع الى الأخطل الشاعر النصرانى المعروف . وهذا الكلام له معناه على كل حال ، فأكثر الناس يتنسكون كارهين ، ولا يعزّيهم إلا ما يرجون أن سيكون من الرحيق المختوم فى دار النعيم . والرحيق المختوم سر لا يعلمه إلا الله ، فقد كان أبو نواس يصف قهوته بأنه

خُتم عليها من عهد نوح . وستعرف بعد عمر طويل إن كان مصيرك الى الجنة كيف يقول شعراؤها فى ذلك الختم الذى ورد ذكره فى القرآن الشريف ، على أنه سيكون هناك أيضا رحيق غير مختوم ، ستكون هناك أنهار كاملة من عتيق الشراب ؛ وستنسى يا سيد احمد تلك القهوة السوداء التى تتصبّح بها كل يوم فى دار الكتب المصرية ، والتى يلقانا بوجهها البُنِّى القاتم صديقنا الأستاذ احمد زكى العدوى كلما زرناه فى مكتبه حتى كدنا ننقطع عن زيارته فراراً من وجهها الآدم المحبوب !

وأعود فأقول : إنى ذكرتك فى قهوة الجامع ، وذكرت معك قهوة الحامية ، وهى قهوة سخيفة لا هى بالجديدة ولا هى بالقديمة ، ولا أعرف لأى سبب هجرتم من أجلها قهوتكم الأولى التى كانت تسمى « قهوة الآداب » وقد كان يُظن أنها سميت بذلك من أجل حضراتكم ، ولعنة الله على العقوق ! هى قهوة سخيفة لا تحفظ شيئا من تقاليد الماضى . وخير منها فى هذا المعنى قهوة احمد عبده فى حى سيدنا الحسين (١) . وليس فيها أيضا شىء من سِمات الحاضر ، فليس على جدرانها صور ولا خرائط ولا لوحات فنية ،

(١) فى هذه القهوة كان يسهر الوراق الشهير الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ليستشير أهل الفضل فى إحراق كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وكان ذلك قبل سفره إلى بيت الله الحرام!

وليس فيها قانون ولا عود ، ولا يخطر ببال أهلها أن يضعوا فيها معدات السينما ، أو يستقدموا لها - ولو مرة فى السنة - بديعة ، أو نعيمة ، أو أم كلثوم ، ومن المحتمل فقط أن يكون صديقنا الأستاذ رامى يطرفكم هناك ببعض أغانيه وتغريداته : فعهدى به رخيم الصوت مخضرم الملامح ، فيه بقايا من اللطف والإيناس ! ! على أن فى إنشادك الشعر يا صديقى مُتعة كافية لقضاء السهرات فى مرح وطرب ، وهذا لا يمنع أن أقترح عليكم أن تهاجروا الى مقصف حديقة الأزبكية ، فانكم ان فعلتم ذلك دللتم على ان المصرى يميل بطبعه الى المهاجرة ، وأنه ليس كالماء الآسن الذى يفسده الركود .

أما قهوة الجامع فى باريس فهى تختلف عن قهوتكم أشد الاختلاف ، هى قهوة عربية بكل معانى الكلمة ، وتذكّر القادم عليها بقهوات القاهرة وبغداد والاستانة والقيروان ، فحيثما رفعت بصرك فمناظر عربية وإسلامية طريفة لا نقص فيها ولا تحريف . وأنت حين تجلس فى قهوة الجامع تروعك الموسيقى الشرقية التى تطالعك بأجمل الألحان . وفى القهوة مغنون بعضهم من تونس ، وبعضهم من بغداد ، وفيهم مغن من الاسكندرية (١) ، وقد سمعت فى الليلة الماضية طائفة من القصائد وطائفة من المواويل والأدوار المصرية والمغربية ، وليتك كنت معى لتعرف كيف يحيا ابن هانىء

(١) هو العواد الشيخ عبده درويش

الأندلسى حين يردد المغنى قوله فى ترجيع مملوء بالعطف والحنان :

حسبوا التكحل فى جفونك حليةً

تالله ما بأكفهم كَحَلوكِ

ودَعوْكَ نشْوى ما سقوك مدامةً

لما تمايل عِطفك اتهموكِ

والدور الذى مطلعه « على روحى أنا الجانى » والدور الذى فيه « امتى أشوف أنس الجميل » وقد طربت الى هذه الأغانى حتى كدت أقترح عليهم أن يغنونى « صيد العصارى ياسمك » أو « يانخلتين فى العلالى يابلحهم دوا » أو « الفؤاد ناوى ونادر ، إن جفاك ما عاد يعود لك » لولا أن صديقا أفهمنى أن مثل هذا الاقتراح له ثمن فى مثل هذه القهوة ، وأنا كما تعلم فقير أو بخيل !

وبهذه المناسبة أرى من واجبى أن ألومكم على التهاون فى الأنس بالموسيقى ، فأنا لا أذكر أنى رأيتك مرة فى حفلة غناء تهز رأسك وتقول : الله ! الله ! ولم أر الهراوى أيضا يطرب لمثل ذلك ، ولعله يتوقر عن تشجيع الغناء ، وان كان يشجع الكتاب والمؤلفين ، والسيد حسن القاياتى يجلس دائما فى ركن مظلم ان ذهب الى حفلة ساهرة ، وأخونا كامل ترك تقاليده الجميلة حين كان يفتش عنا بحماسة لاحدّ لها لنسمع معه أغانى الآنسة ملك

أو عبد اللطيف البنا أو صالح عبد الحى . والشيخ عبد المطلب لا يطربه المغنى إلا إن رفع عقيرته وصاح :

أمن تذكُّر جيران بذى سَلَمِ
مزجت دمعا جرى من مقلة بدمِ

وانصرافكم عن الموسيقى والغناء هو سبب تخلفكم فى الشعر فقد أصبحت شياطينكم مستأنسة لا تفزع إلى واديها الأول وادى الجن وادى عبقر الذى نسبت إليه العبقرية ، كما أن السر فى نبوغ شوقى هو تهالكه الفاضح على الموسيقى والغناء ، ولولا السهرات الطروبة المجنونة التى يقضيها شوقى فى بيئات اللهو والطرب والتمثيل والغناء لمات شيطانه منذ أزمان ! وقد كانت تكونت فى مصر عصابة لقتل شوقى ، وأعدت لذلك « نبوتا » غليظا اسمه الديوان ، ومع ذلك مات الديوان وانهزمت العصابة وبقى شوقى يطغى كالحية النضناض . إنى لألومكم على ترك الموسيقى لوما عنيفا ، ولا ألوم نفسى لأنى تركت الشعر وتركت معه عالم الأحلام . وصناعتى الآن كما تعرف : مؤلف كتب ، ومنشىء مقالات ، ومدرس ، وهى أثافٍ ثلاث . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل !

وينجذب الناس الى قهوة الجامع فى باريس لعدة أسباب : منها القهوة التركية البديعة التى تنقلك الى عالم غير عالمك

فى لطف ساحر أخّاذ، ومنها الشاى المنعنع الطريف الذى يذكر بقول السيد عبد العظيم القاياتى :

وعسجد الشاى يُجلَى   فى أكؤسٍ من لُجَيْنِ
هذا يروق لقلبى   وذا يروق لعينى

ومنها النساء الجميلات اللائى يطفن بأركان القهوة بعد العشاء فيسحرن السامرين . وأكثر هؤلاء الجميلات يردن من ألمانيا والنمسا وأمريكا فى طلب الحب والغرام . وهن يذكرننى بموسم السياحة فى مصر حين تهبُّ أرواح الشتاء ، وموسم السياحة فى مصر شىء لاتعرفه ياسيد احمد ولا يعرفه أحد من زوار قهوة الحامية ، هو موسم بديع تُجْلب فيه إلى مصر عرائس العالم القديم والجديد ، ومن الفرض الواجب على كل غانية مُترَفة أفاض الله عليها من نعمة المال والجمال أن تزور مصر فى الشتاء التماساً لبركات سيدى (أبى الهول) صاحب الأنف المجدوع ! ولا تكون السيدة أنيقة حقا حتى تستطيع أن تقول وهى تحاور أترابها الساحرات : « حينما جلست فى سفح الهرم أمام أبى الهول » أو « حينما ركبت الجمل وطفت حول الأهرام » أو « حينما ركبت الحمار وتوجهت إلى مقبرة توت عنخ أمون » الخ . الخ . والسيدة التى لم تمكنها ظروف الحياة من التحدث بمثل ذلك تتوارى خجلا وحياء إذا خاض النساء فى حديث

مصر وما فيها من عجائب وغرائب . موسم السياحة هـذا ياصديقى فرصة عظيمة للشبان المصريين يعرفون به طرائف الحسن المجلوب من وراء البحار ، ويقضون بسببه ليالى سعيدة لم يشهد مثلها خوفو ولا عمرو بن العاص . وأخوك يعرف هذا الموسم معرفة جيدة ، وليس معنى ذلك أن لى فيه حوادث وتجارب سعيدة أو شقية ، كلا ، فأنت تعرف أن حِملى ثقيل ، وأن أعمالى لاتمكننى من اقتناص أمثال هذه الفُرص الشوارد ، وقد يمضى العام ولا أعرف كيف طعم السهر فى مغانى القاهرة ، ولـكن عندى فى هذا الموضوع كتاب معتبر خط يد اسمه « منحة الفتاح ، فى حوادث السوَّاح » وهو كتاب ممتع لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من حوادث السائحين والسائحات ، وما يقع للشبان المصريين مع الامريكيات والألمانيات . وفى النية طبعه ونشره تعميما للفائدة ، وإن كنت أخشى أن يصرف الطلبة عن الاستعداد للامتحانات ، وتنظيم المظاهرات ، ومصر الآن فى دور جدى خطير من حياتها السياسية والدستورية والاجتماعية . على أنه لامانع على كل حال أن يأخذوا من كل شىء بطرَف ، مجاراةً لأمثالهم فى الأمم الحية المستقلة ، ونحن بحمد الله أحياء ومستقلون . أليس كذلك ؟!

***

كل مافى قهوة الجامع جميل ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع ، وأنها بالفعل فى جناح من مبانى الجامع . فاذا ركب انسان سيارة وقال : إلى الجامع ، فإن السائق لايمضى به إلا إلى القهوة ، وأكثر السائحين والسائحات لايفرقون بين الجامع والقهوة : حتى لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين ، وفى هذا عار وخزى يندَى له جبين الرجل الغيور . فما الذى يضر الجماعة الذين يديرون شئون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لا بدَّ لهم من قهوة عربية فى باريس ؟!

كل ماعندهم فى المحافظة على الآداب أن يضعوا لوحة على أركان القهوة فيها هذه العبارة :

Une tenue très correcte est exigée

ومع هذا نجد للعشاق حركات وإشارات ينفر منها الذوق ، ويمجها الطبع ، ولا تجمل مطلقا بمحل يتصل ببيت من بيوت الله .

إن باريس تحتمل كل شىء ، وأهلها لايخجلون من شىء ، ولكنى لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأماكن العبادة أجنحة دنيوية خَطِرَة يجرى فيها اللهو

واللعب ، مهما قيل إن الغرض منها شريف ، وأنه لايقع فيها إلا اللهو المباح ...

لقد كنت أصلى فى المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلا بقول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

ولكنى لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التى تطغى بها القهوة على كرامة الجامع (١)

وبعد فانى أرجو أن يقع خطابى من نفسك موقع القبول ، وأن تبلغ تحياتى إلى صديقنا عبد الله حبيب وسائر زملائك الفضلاء. والسلام .

باريس فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠

(١) ونحن مع هذا نعتذر للصديق الحميم الحاج طاهر الصباغ مدير قهوة ومطعم الجامع فى باريس : فتلك ملاحظة أثبتناها لوجه الله والحق

الحديث ذو شجون

ما فرطنا فى الكتاب من شىء[1]

وردت هذه الكلمة الجامعة فى القرآن المجيد . ولرجال الدين فيها تأويلات طريفة : فقد سئل بعضهم كيف يصح أن يكون القرآن لم يفرط فى شىء وهو لم يتكلم عن الأسلاك البرقية وخطوط سكة الحديد ؟ فأجاب : لقد أشار الكتاب العزيز الى كل ذلك بقوله « ويخلق مالا تعلمون »

ولقد مرَّ بالخاطر هذا التأويل حين قرأت ما كان بين معالى وزير الأوقاف ودولة النحاس باشا : فقد استطاع الامام أن يقرأ على المصلين (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلَّى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية : ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب)

---

(١) كتبت هذه الفكاهة بمناسبة خطاب حلمى عيسى باشا إلى مصطفى النحاس باشا يلفت نظره إلى مايقع من المظاهرات حين يتوجه لصلاة الجمعة

والشيخ الكارم حين تخير هذه الآيات كان يرمى بالطبع الى أن القرآن لم يفرط فى شىء ، حتى الرد على وزير الأوقاف !

غير أنه من المستظرف أن نشير الى أن الآيات القرآنية لها مع حلمى باشا عيسى تاريخ عجيب : فقد كان وزيراً للمواصلات فى إحدى الوزارات السابقة ، وماتت قرينة الأستاذ الشيخ شاكر ، فذهب الوزير للتعزية ، ولكنه لم يكد يطأ أرض السرادق حتى صاح القارىء : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) فقال بعض الحاضرين : شكر الله سعيك يا وزير المواصلات !

شىء ثقيل

وبمناسبة صلاة النحاس باشا نرجح أن ستفكر بعض الدوائر الوزارية فى مسابقة المصلين . وعلى ذلك ينتظر أن يتكرر الدرس الذى أخذه رشدى باشا عن سعد باشا ، رحمة الله على الجميع !

وتفصيل ذلك ان السلطان فؤاد (جلالة الملك) لما تولى السلطنة فى أيام الحرب أخذ يصلى الجمعة بمواظبة فى مساجد القاهرة ، وكان من المفروض أن يصحبه رئيس الوزراء ووكيل الجمعية التشريعية ، وهناك اضطرب رشدى باشا لأنه كان قليل العلم بأركان الصلاة . فلما التقى مع سعد باشا قال له :

« الحقنى يا سعد ، الله يسترك ، أنت يا حبيبى كنت

فى الأزهر وصليت على الأقل مليون صلاة ، وما أظن أنك نسيت ، فما رأيك فيمن يريد أن يتتلمذ لك حتى يتعلم فروض الصلاة ؟ »

وكانت ضحكات وفكاهات ، فقد أخذ سعد باشا يعلم زميله الفاتحة والتحيات ، ولكن ذلك لم ينفع ، لضعف ذاكرة رشدى باشا ، ولصعوبة الموضوع !

وأخيراً قال سعد باشا لزميله : ما عليك ، أنت ستصلى بجوارى وتصنع كما أصنع ، وهذه كل الحكاية

وقد ذهبوا بالفعل للصلاة ، غير انه لسوء الحظ كان الامام يطيل الركوع والسجود ، فقال رشدى باشا بالفرنسية وهو ساجد : شئ ثقيل !

وفى ذلك الحادث الطريف قال حافظ بك ابراهيم :

سعدٌ يصلِّى ورشدى ؟ آمنت بالله ربى!
وذاكَ فتحٌ جديدٌ قد جاء من غير حرب
يارب أبقِ فؤاداً حتى يصلى ألِنْبى

والاشارة فى البيت الأخير الى اللورد اللنبى . . . . وستبقى المشكلة على ما كانت عليه: ففى الوزراء من نسى تقاليد الصلاة ، ومنهم من لا تخطر له فى بال إلا أن قرأ أن مظاهرة قامت بعد صلاة الجمعة فى حى سيدنا الحسين!

لوعة السباعى

للأستاذ محمد السباعى فضل كبير على أكثر أدباء اللغة العربية ، وترجمته لكتاب الأبطال كانت ولا تزال من أبدع ماتزدان به مكاتب المتأدبين ، ولا أدرى لِمَ لا يطبع ذلك الكتاب طبعاً يتناسب مع ما يستحقه من الخطر والجلال

لم أر الأستاذ السباعى الى الآن، ولكن صديقنا الأستاذ العقاد ، آنس الله وحدته (١) ، كان يحدثنا عنه أحاديث عجيبة لا يمكن أن تنشر فى صحيفة سيارة ، ويكفى أن نشير الى أن ميدان السيدة زينب كان من الأماكن المختارة لمخاطراته الغرامية !

وقد تعودت ان أقرأ خواطر الأستاذ السباعى وأنا أبتسم لأنى أقدر ما وراءها من القلق والاضطراب ، وكنت أفترض دائما ان الرجل يلهو فى خواطره الوجدانية ، الى أن رأيته يقول :

« ناشدتكم الله يا أهل هذا الجيل اذا وقعت كلمتى هذه فى أيديكم مصادفة فلا تهزأوا بها ، ولا تسخروا منها ، ولا تهمونى بأنى أشتكى آفة موهومة ونكبة خيالية ، محتجين بأن العواطف من كواذب الاحساسات ، وأن آلام الحب أوهام وأحلام ، وأن التعقل والتروى خير ملكات النفس وأصح وظائفها ، وأنه

(١) كان الاستاذ عباس العقاد سجينا عند كتابة هذا المقال

لاحقائق فى هذه الحياة الا البورصة والسمسرة والبنك والأسهم والسياسة والنقابات ومائدة الطعام ومائدة القمار وصحة البدن وقوة العضلات، الخ »

المسألة إذن جِدّ فى جِدّ، والأستاذ السباعى فى خطر ، ولكن كيف السبيل الى إنقاذه وشباب هذا الجيل لايكاد أحدهم يظفر بقطعة حب حتى يأخذها ويجرى الى السطوح !

على أن الأستاذ السباعى لا يعدم سبيلا الى السلوة والعزاء أليس هو الذى يقول :

« أيتها المحاولة ستر جمالك ! حرمتنا سورة الحسن منظومة في صحيفة محياك فقرأناها فى صحيفة الطبيعة منثورة ، فأنت لم تحتجبى ما دمنا نراك فى الصباح المنير ، والجدول النمير ، فهلا منعت النجم لمعانه ، والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير ألحانه ؟ »

الحمد لله ! الآن اطمأننت على الأستاذ السباعى ، فلا شقاء ولا عناء ، وقديماً علل نفسه بمثل ذلك من قال :

أليس الليل يجمع أم عمرو وايانا فذاك لنا تدانِ
نعم وأرى الهلال كما تراهُ ويعلوها النهار كما علانى

وقد مرت بى أزمات تشبه أزمات الأستاذ السباعى ، وسأجتهد فى الاكتفاء بنور الصباح ، ولمعان النجم ، وسريان

البرق . ولكن ، وا أسفاه ! أنا أعيش الآن فى بلاد لا يُرى فيها شمس ، ولا قمر ، ولا نجم ، ولا برق . فكيف العزاء ؟

أتريد الحق ياسيد سباعى ؟ العشق نعيم على أن تكون لك حبيبة كتلك التى زعمتَ أنها تزورك سراً فى بعض الأحايين ، أما الطواف بالديار ، وتقبيل الآثار ، فهو فى عالم الحب يشبه أزمة القطن فى عالم الاقتصاد ، فما أحوجك اذن الى صدقى باشا جديد !

تزوج يامسيو راسين

على أن الأستاذ السباعى يحملنا فى بعض خواطره على الاقتناع بأنه صار من عباد الله المخلصين إذ يقول :

« الحمد لله على تقطع أسباب الأمل . هذا الغدر والغش والخيانة هو قصارى حظ الإنسان من المرأة التى يهوى ... هذه عكارة الكأس بعد رشفك رحيقها ... هذا هو الشمع الذى تنتهى إليه بعد أخذك العسل من قرص الخلية ، هذه جيفة الحب القذرة »

وقد ذكرتنا هذه الكلمة ما كان من شأن راسين الشاعر الفرنسى : فقد كان المعروف أنه ترك التأليف المسرحى غضباً من تحامل النقاد على رواية فيدر . ثم ظهر بعد البحث أنه كان يتهيأ فى سريرة نفسه للرجوع إلى الحياة الدينية ، فقد كان

له رؤساء روحيون يكرهون التمثيل والممثلين ، وقد صبر على مغاضبتهم له طوَال أيام الشباب . فلما أخذ عوده فى الذبول فكر فى هجر التأليف المسرحى والرجوع إلى حظيرة الكنيسة . وكذلك ذهب إلى رئيسه الروحى يطلب إليه أن يُعدّه لحياة الرهبان . ولكن رئيسه كان يعرفه كما يعرف نفسه ، وكان يقدِّر أنه سيظل طوعا أو كرها زِير نساء ، وأنه لن يتوب عن جولاته فى ميادين باريس . وإذ ذاك قال له : خير من هذا كله أن تتزوج يامسيو راسين !

فما رأى الأستاذ السباعى فيمن يطلب إليه أن يكتب مقالا عنوانه : تزوج يامسيو راسين !

٩ فبراير سنة ١٩٣١

جواب الاستاذ السباعى

الى الأستاذ النابغة الدكتور زكى مبارك

قرأت بمزيد الشكر والاعجاب كلمتك التى دبجتْها عنى يراعتك الرشيقة فطرحت عن كاهلى عبأ من الهم ما كان لشىء خلافها أن يريحنى من فادحه ، وأطفأت عن كبدى شُواظاً من الكمد ما كان لغيرها أن يجيرنى من قادحه ، ولا عجب ياسيدى فكثيراً ما كنت أشعر أثناء قراءتى بدائع مُلَحك ونفائسك بائتلاف بين طبعك وطبعى ، وامتزاج بين روحى وروحك ، ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحادثنا وتسامرنا ، ولكن قضى الله ألا يحصل التعارف بيننا الا ونحن على طرفى الكرة الأرضية وبيننا المهامه البِيد والآكام ، والتنائف الفِيح والآجام وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وألاّ يصلك صوتى أو يصلنى صوتك الا بعد أن يجوب شطرى قارتين ، ويقطع دفتى عالمين ، ويمر بالجم العديد من أجناس الناس وصنوف البشر وشتى المدنيات واللغات والثقافات ، فحيا الله رسالتك تلك الزكية المباركة التى

تخطَّتْ إلىَّ الهول مشياً على النوى
وأخطارِه لا يبعد الله ممشاها

سيدى ! لقد مضى علىّ شهور وأيام ، بل دهور وأعوام وأنا أبكى مصاب الإنسانيـة فى مصابى ، وأندب مابها من كوارث المحن ومابى ، وأضج لوعة وأنينا ، وأنتحب حرقة وحنينا ، وتارة أُرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ، حتى يخيل إلى أن أعين النجوم ترنو إلىَّ شفقة وعطفا ، وتدمع علىّ بقطرات النور أسفاً ولهفاً ، وأن الريح تُعوِل معى أسى ووجداناً ، والموج يصطفق حسرة لى وتحناناً ، كل ذلك ولا أسمع من بنى آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتاً يلبى الدعاء ، ولا أجد معونة آس ، ولا إسعافة مُواس ، كلا ، ولا متعجب لى ولا متألم ، ولا متبرم ولا متسخط ولا مستنكر ، لا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط ولا « قبض » كأنى أهتف بكلماتى بين رسوم بالية وأطلال ، أو أعكف على أصنام وأوثان ، وكأنى أضرب فى حديد بارد ، وأصيح فى واد ، وأنفخ فى رماد ، وكأنى مع هذا الجيل الأصم الوسنان كما قال القائل :

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للـذمِ
كأنا إذ سألناهُ وقفنا سائلى رسم

وكذلك تعودت فى هذا الشعب الحى « الحساس » أن أتقرب وأقابل بالصد والإعراض ، وأتزلف وأُلقى بالجفوة

والانقباض ، وأستدنى وأستعطف وأصادَم بالنفرة والابتعاد ، وأسهر فى صناعة القلم وأسهد وأُكافأ ممن أسهر على مصلحتهم بالوسن والرقاد ، وأزلف للناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد وأُجازَى بالكفر والإلحاد ، حتى ألفت من القوم هذه المخزيات المخجلات ، ووطنت نفسى على اليأس من كل خير ، وتوقع كل شر .

تعودت مس الضر حتى ألفتهُ   وأسلمنى طول البلاء إلى الصبرِ

وأصبحتْ حرفة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف الزمن من السرور واللذة كاسفة حزينة ، جافة جدبة ، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوة . وأصبح القلم فى يدى أشد بؤساً ومسكنة من المزمار فى يد الشحاذ المتسول ، ترى نغمه أقرب إلى أنّة الثكلى منه إلى رنّة المسرور ، وأشبه بصوت النعى منه بصوت البشير ، وكذلك صرير القلم فى يدى أشبه شىء بصرير أعواد النعش ، ولا عجب فانما قلمى نعش لنفائسه يحملها من المهد الى اللحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وعلى هذه الحال من اليأس والقنوط ومن الجمود والركود كنت ياسيدى حين هبطتْ علىَّ كلمتك من أفق المدنية وسماء النور — نور العلم والعرفان ، والأمل والأمانى — فاطفأت

لوعتى ، وشفتْ غلتى ، وحركتْ همتى ، وأنهضتْ عزمتى

لقد جلَّى كتابك كل همٍّ جوٍ وأصاب شاكلة الرمىّ
وكان ألذّ فى قلبى وأندى على كبدى من الزهر الجنىّ
وضُمِّن صدره مالم تُضمَّن صدور الغانيات من الُحلىّ

ولقد كنت قبل ورود رسالتك تائها حيران فى بحار الأدب والأمواج من حولى جامدة ، والأمواه آسنة راكدة ، وسفينة الأدب واقفة معطلة ناشبة بين صخور الفقر والإفلاس ، والنحس واليأس ، فلم يك صوتك إلا نفحة من نفحات الإيمان ، وروحا من الله وريحان ، فأبدلتنا من الموت حياة ومن القنوط رجاء ، وأعلمتنا أن لله معشرا أصفياء ، وقوماً أتقياء . ولو لم يكن غيرك يقرأ كلماتى لكان حسبى بك مشجعاً ومقدراً ، ومؤيداً وناصراً

لقد داعبتنا طويلا فى كلمتك يا سيدى ، وتالله ما رأيت أرق منك مداعبا ، ولا ألطف مفاكها ومطايباً

ولقد فتحت علينا باب موضوع الغانيات وهـذا باب لايسد ، والخروج منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، وماذا أقول فى الغانيات إلا قول بعضهم :

فان تسألاني بالغوانى فاننى أرى فى الغوانى غير ماتريان
انى ياسيدى لاأعرف سَحَرة ولا مشعوذين أشد مهارة

وحذقا باختتالنا واحتبالنا واختبالنا لَدَى كل فرصة سانحة ، وبسبب وبدون سبب ، ولمجرد اللهو بنا والعبث بعواطفنا — بأقدس عواطفنا وأسماها — ولمجرد الضحك علينا من النساء ، وتراهن يلعبن بنا ألاعيبهن بمنتهى البساطة ، وبمنتهى الجرأة والوقاحة ، وبمنتهى الحذق والبراعة ، وهذا ياسيدى طبعهن ودأبهن يأتينه من مطلع الشمس إلى غروبها ، ومن غروبها إلى مطلعها . وأعجب العجب انهن فى ذلك جميعه سواسية لا فرق ولا خلاف بين الصالحات والفاسدات ، والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفرات ، والرقيقات والقاسيات .

هذه نفثة من يراعتى المحطمة ، متاع إلى حين ، وأرجو أن أوفق إلى أمثالها ، ولا تحرمنا تحفك وملحك ، أبقاك الله للأدب ذخراً ، والسلام .

ثورة على الوجود

الى السيد حسن القاياتى

صديقى العزيز

إنك لتعلم أنى فى حياتى الفلسفية والأدبية منصرف بعض الانصراف عن جو الشعر والخيال . ولكننى أحمل بفطرتى قلب الشاعر ، وأحيا حياة شعرية فى كل ما يمسّ العواطف والمشاعر والأحاسيس ، وتغلب الفطرة أحيانا فتُلقى على أبحاثى العلمية نفحة من نفحات الوجدان . وأنا مع هذا لا أنظم الشعر إلا إذا جاشت النفس ، وفاض القلب ، بحيث لا أستطيع الفرار من شيطان القوافى والأوزان . فان رأيت لى بيتا ، أو مقطوعة ، أو قصيدة ، فلا تحسبنى كنت مختاراً فى صياغة ذلك الكلام الموزون ، وإنما هى أزمة وجدانية أو عقلية أنطقتنى به فى حدود من القهر يعرفها من يعيش فى العالَم بقلب الشاعر وعقل الفيلسوف . . . وهذه قصيدة فى الثورة على الوجود ، رأيت أن أهديها إليك ، تحيةً من باريس ، ولك أن تعارضها بقصيدة ، أو رسالة ، تمحو أذاها من نفوس القراء . والسلام .

***

يا جيرةَ السّين يحيا فى مرابعِكم
فتىً إلى النيل يشكو غُربة الدارِ
جَنَتْ عليه لياليه وأسلَمهُ
إلى الحوادث صَحْبٌ غير أبرارِ
أحاله الدهر فى لَأْواء غربته
روحاً مُعنًّى وجسماً نِضْو أسفارِ
يسعى إلى المجدِ ترميهِ مخاطرهُ
بنافعٍ من شظاياها وضرّارِ
عزاؤهُ أن عُقبى كل عاديةٍ
يشق بها الحرُّ إكليلٌ من الغارِ

يا خافقَ البرق ترتاعُ القلوب لهُ
كوقْدَة الغيظ فى أحشاء جبّارِ
تعالَ أُهديك من روحى بعاصفةٍ
تُردى الأنام ومن قلبى بإعصارِ
الناسُ ما الناسُ لاتدرى سرائرهم
وما يُجنّون من كيدٍ ومن نارِ
لو يُفصح الغيب يوماً عن مصائرهم
لأقصرَ اللؤمَ قومٌ أىّ إقصار

حار النبيون فى تطهير فطرتهمْ

فما عسى نفع أمثالى وأشعارى

رباهُ آمنت لكنى على خطرٍ

يغتالنى الشك فى جهرى وإسراري

سوَّيتَ فى الناس أخلاطاً مبعثرةً

تَشوكُ عشاق صُنع المبدع البارى

أرى وجوهاً بصدق الود واعدةً

ولا أرى ظِل قلبٍ غيرِ ختَّار

كم من عشير أُواسيهِ وأنصرهُ

يرعى حمايَ بقلبٍ جاحدٍ ضارِ

غفرانك الله هذى نفثةٌ غلبتْ

ألقى بها الشعر لم تُسْبق بإِصرار

باريس فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨

الأدباء وأساتذة الاداب

وصلتنى دعوة لحضور أربعاوات الأليانس فرانسيز. وهذه الأربعاوات لها برنامج خاص . فالأربعاء الذى يختاره مدير الأليانس لمحاضرة عمومية يراعى فيه أن يكون المحاضر من رجال الأدب . ورجال الأدب هؤلاء غير أساتذة الآداب فى المعاهد والكليات ، فان كلمة : Homme de lettres غير كلمة

Professeur de littérature

والفرق بين الوصفين مرجعه أن رجال الأدب كسبوا معارفهم الأدبية والفنية والعلمية عن طريق الدراسات الشخصية . أما أساتذة الآداب فهم قوم وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الألقاب التى تمنحها الجامعات لمن يظهرون التفوق فى العلوم والآداب عن طريق الدراسات الجامعية الدقيقة .

وكذلك يفرق الجمهور الفرنسى بين رجال الأدب وأساتذة الآداب ، وهو فرق رسمى ، ولكن له دلالته وله معناه : فان رجال الأدب لا يصلون إلى المكاسب المادية إلا عن طريق الصحافة والتأليف وإلقاء المحاضرات .

أما أساتذة الآداب فلهم مناصبهم وكراسيهم فى وزارة المعارف وفى المعاهد والكليات . ومن الصعب أن نحكم بأفضلية أولئك أو هؤلاء ، فإن من الحق أن الدراسات الجامعية مُثْقَلَة بأعباء الجهود والمشاق ، ولا يصل الرجل إلى لقب من ألقاب الجامعة إلا بعد عناء مُعجِز وشقاء موصول . ومن الحق كذلك أن الأديب الذى حرمته الظروف من الدرجات والألقاب لا يستطيع السيطرة على الجمهور المثقف إلا بعد دراسات شخصية طويلة لا يصبر عليها إلا الأقلون

وهناك فرق ظاهر بين رجال الأدب وأساتذة الآداب من حيث الإنتاج : فرجال الأدب حين يشتغلون بالترجمة أو التأليف يوجهون جهودهم إلى المسائل التى تمس أذواق الجماهير ومشاعرهم وعواطفهم ، بنوع خاص ، فهم لذلك يهتمون بالقصص والروايات . وما إلى ذلك مما يستطيب الجمهور الإقبال عليه فى أوقات الفراغ . أما أساتذة الآداب فيحرصون على التأليف فى الموضوعات الصعبة المعقدة التى لا تجد من يُقبل عليها غير الطلبة والمدرسين ، ومن شاكلهم من عشاق البحث العميق

ولهاتين الوجهتين مزايا وعيوب . فرجال الأدب يؤثرون فى الجماهير تأثيراً بليغاً ، لأنهم يخاطبون الناس باللغة التى يفهمون ويسايرونهم فى درس مشاكلهم الروحية والعقلية بطريقة

خلابة قد تصل بهم إلى الإسفاف وإلى ضياع الكرامة فى بعض الأحيان . وأساتذة الآداب يؤثرون فى جماهير قليلة العدد ، هى جماهير الطلاب . ولكنهم يبالغون فى التحفظ والتصوّن إلى درجة مملة . ومنهم من يصل به الأمر إلى أن يصاب فى عقله بالزمانه والضيق . ومن هنا صح مانجده فى بعض الأوساط الفرنسية من التحامل على رجال الجامعة ورميهم بالحمق وضيق العقل : والفرنسيون يصفون الرجل الضيق الذهن بأن عقله جامعى ، ويسمون رجال الجامعة « فيران المكاتب » !

ومن النادر أن تجد من رجال الجامعة من يستطيع التأثير المباشر فى الجماهير ، فقد كان إرنست رينان أكبر أساتذة الأدب فى عصره ، ثم تقدم للانتخابات فلم يكن له من عواطف الناخبين نصيب : ذلك بأن الرجل تعود مخاطبة الجماهير المثقفة ، وتعود الاعتماد على ذكاء من يستمعون اليه ، فلما واجه سواد الشعب ألتبس عليه الأمر وغاب عنه وجه الصواب

أما رجال الأدب فهم أقدر الناس على كسب المعارك الشعبية : لأن لديهم من الكياسة ومرونة الذهن والخُلُق ما يقربهم من أنفس الجماهير ، وحسب القارىء أن يعرف أن الذين يخوضون معارك الانتخاب فى فرنسا يجب على الاقل ان يكونوا ألِفوا إدمان الشراب ، ولم ذلك ؟ لانهم لا يلتقون بناخبهم الا

فى القهوات ، وهى ملتقى الاهالى فى الاقاليم . فمن واجب المرشَّح أن يذهب الى القهوة وأن يسأل كل قادم عليه : ماذا تطلب ؟ وإذ ذاك يشربان معا . وهذه هى الوسيلة لكسب الاصوات !

ولا يليق بالمرشح أن يكتفى بقهوة أبى الفضل لأن الذى لا يشرب قهوة أبى نُوَاس يبخل عليه الفرنسيون بلقب « مسيو » !

فماذا يصنع أساتذة الأدب فى هذه الحال وهم قوم تلفتْ أمعاؤهم من كثرة الجلوس ، ولم تُبق فيهم مراجعةُ المعاجم ، ونقد النصوص الأدبية والفنية والعلمية ، بقيةً من نضارة الجسم ، وصفاء الذهن ، ورقة الحس ، يستطيعون بها فهم ما اختلف وتنافر من أذواق الناس وميولهم ومذاهبهم فى الحياة ؟ !

وهناك فروق بين حياة هذين الصنفين من المتأدبين ، فروق قلما يتنبه اليها الجمهور الذى ينتظر كل شىء ، ولا يطالب نفسه بشىء

فأساتذة الآداب قد يُحسَدون على ما يظفرون به من مناصب الدولة : فهذا موظف فنى فى وزارة المعارف العمومية . وذاك مدرس فى مدرسة من كبريات المدارس الثانوية . وذلك استاذ فى كلية الآداب . وهى مناصب قد تحمى أصحابها من التفكير فى هموم المعاش . ولكن هل يفكر أحد فى حقيقة البلاء

الذى يعانيه اساتذة الآداب ؟ أين المنصف الذى يقدر المصاعب التى يقاسيها الباحث حين يسجن نفسه طائعا أو كارها فى مكتبه لا يفارقه فى صباح او فى مساء ؟ من الذى يفهم الآن كيف كان يقول الفَرّاء : « أموت وفى نفسى شىء من حتى ؟ » من الذى يعرف أن الباحث قد يقضى اعواما طويلة فى تحقيق كلمة أو تصحيح غلطة ، وهو يرى ذلك كل شىء فى حين أن الجمهور قد يراه نوعا من الوسواس ؟ أين النافذون الى بواطن الامور الذين يعرفون أن أساتذة الآداب قد يحتاجون الى لحظة من لحظات المرح والطيش ليقوا أنفسهم عواقب الحبس بين المكاتب والجدران ، ثم لا يستطيعون : لأن الرأى العام قد يرميهم بالتبذل والإسفاف ؟

وكم من مرة يقول الناس : ماذا يصنع الاستاذ فلان ؟ لقد سكت منذ زمان !

وذلك الاستاذ لا يستطيع الجواب لانه لا يضمن الاحترام ان أجاب : لقد شغلتنى « حتى » فى هذه السنوات !

ماذا يصنع أساتذة الآداب فى عصر الأَحجام والمكاييل والأوزان ! ان القارىء لا يشترى الكتاب فى هذه الأيام قبل أن يعد الصفحات وأساتذة الأدب مساكين قلما يحسنون الإسهاب : لأن عملهم عمل تهذيب وتجريد ، ومهنتهم تقضى

عليهم بالنفرة من محاسن التزويق والتهويل. فياويح رجال المعانى فى دولة الألفاظ !

انها لتضحية خطيرة أن يقبل الرجل أن يكون من أساتذة الآداب فى هذا الجيل، تضحية تصغر بجانبها عظائم التضحيات. لأن الأستاذية مهنة قلما تُجازَى بحفظ الجميل ، ولا يخفف من همومها فى أنفس أصحابها إلا فكرة واحدة : هى أن الأستاذ يقف حيث يقفه الواجب : فهو جندى فى الجيش لا يليق به غير الامتثال ، وعليه أن يصبر كلما بدت لعينيه بروق الشهرة وبعد الصِّيت ، لأن الأستاذية الحقة لا تكتمل قوتها إلا فى ظلال الخمول .

ان الأستاذ المخلص لواجبه قد يُنْسَى كل النسيان ، وقد تُجرح نفسه جرحا بليغاً حين يجد من يسأله : من أنت ؟ فان المسكين لا يستطيع أن يجيب : (أنا الذى شرحت الرسالة العذراء) أو (أنا صاحب نظرية الصور الشعرية) فان هذه فى نظر السَّواد توافه لا يحسب لها حساب !

وبعدهذا كله يبقى الله عز شأنه الذى لايضيع أجر المحسنين فهو حسب الأساتذة ونعم الوكيل !

***

ورجال الأدب ، أو الأدباء ، كيف حالهم ؟

لقد أشرت الى انهم أبعد أثراً فى الجمهور من أساتذة الآداب ولكن تعال ننظر ما حظ هؤلاء المحسودين

ان كثيراً منهم يعملون فى الصحافة ، و بيد كثير منهم إسقاط وزارات وإقامة وزارات ، وفيهم من يؤلف أو يترجم روايات جذابة تنفذ الى أعماق النفوس ، فهل نستطيع مع هذا أن نعدهم سعداء ؟

ان الأديب لا ينبغ إلا إذا ارتطم فى الغواية والبؤس ، وتلك سنة الطبيعة منذ خُلق الأدب الى اليوم ، ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح إلا إن صهرتْهم الهموم والأحزان .

أضف إلى ذلك انهم لا يؤثرون فى قرائهم إلا إن تأثروا هم بما فى الحياة من لين و بأساء . ولا يقع شئ من هذا الا إن عاشروا الناس وشاركوهم فى جدهم وهزلهم ، وحلمهم وجهلهم ، وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين. وهذا كله : أتحسبه بلا ثمن ؟ هيهات ! فمن ثمنه العِرض والعافية والمال !

ان الكاتب الذى تقرأ له فيشعرك الحكمة وفصل الخطاب ليس فى حقيقة الأمر الا رجلا بائسا ضلّ طريق الرشاد ، وهو فى أكثر الأحوال موزَّع القلب بين الحب والكأس ، فان سمعت

عن ضلالات الكتاب والشعراء ، أو حدثك النقاد عن بؤس ميسيه أو بيرون أو بودلير فاعلم انك أيها القارىء كنت بعض السبب فى شقاء هؤلاء ، فقد ارتبطتْ حياتهم بحياتك ، وكُتِب عليهم أن يكون نجاحهم أو إخفاقهم متصلا باعجابك بهم ، أو انصرافك عنهم ، وانك أيها القارىء قد لا تعرف نفسك : فان لك شهوات ونزغات خفية يغيب أكثرها عنك، ويفهم أولئك البؤساء حاجتك الى من يطلعك عليها فى حديث شائق خلاب .

والأدب فى صميمه لا يخرج عن ذلك : فهو حديث مسلسل عن الأهواء والشهوات والنوازع والميول : من حب وبغض ، وبسط وقبض ، وأثرة وإيثار ، وحقد وصفاء ، وإقبال وإعراض

والكاتب لا يصل الى مرضاتك حتى يضيع نفسه ، لأنه لا يمد يده الى مكتبه فيخرج الرسائل محبّرة موشّاة بلا تعب ولا عناء ، وإنما يتنقل من حى إلى حى ، ومن ملعب إلى ملعب ، ومن ناد إلى ناد ، ويرى الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، وما يزال كذلك حتى تتفتّح أسرار قلبه ، وسرائر نفسه ، ثم يعود فينقل روحه ، ويسكبها على بياض القرطاس

أتفهم ذلك ؟

نعم ؟

إنك لا تدركه تمام الإدراك ! وأنت نفسك مطمئن الى أن

رجال الأدب لا خُلُق لهم ولا دين . ومن أجل هذا تتحدث عنهم بما تعرف وما لا تعرف ، وتضيف اليهم كل ما يمر ببالك من المنكرات !

ومن حسن الحظ أن الدين والخلق من الشئون النسبية : فقد يكون لهؤلاء الذين تجُرِّحهم ضمائر أطهر من الماء ، وأصفى من سماء مصر ، وقد يكونون فى عربدتهم أقرب الى الله من بعض المتجملين المتوقرين الذين يلقون الناس وهم بيض الوجوه سُود القلوب !

ان ألفريد دى ميسيه الذى بكى لبؤسه وشقائه ألوف الألوف من القراء ، هذا الرجل كان يتشهى البؤس ، وكان يحسد رفاقه على ما (ينعمون) به من الضجر والاكتئاب ، وما زال يتباكى حتى بكى وأبكى . أفتدرى لم كان يتلهف على هذا الحظ المشئوم؟ لأن الجمهور كان ينتظر أدباء أدمتْ قلوبهم الاشجان وأصمتْهم الخطوب

فماذا أعددت أيها القارىء لرحمة أولئك المساكين ؟ لا شىء ! اللهم إلا أن تبسط فيهم لسانك الحديد ، كأنهم لم يشقوا فى سبيلك ولم يفتحوا لك ميادين العواطف والاحاسيس ، وكأنك لم تتخذ شعرهم ونثرهم ذخيرة للحظات اللذة وأيام الشقاء : فقد كانوا ولا يزالون أو تاراً لوثبات الفرح ونبرات الأنين

فأى الصنفين أشقى : رجال الأدب أم أساتذة الآداب

لقد عرضت عليك حظوظ هاتين الطائفتين فى نزاهة وإخلاص ، فاحكم بما تشاء

*
* *

أما بعد فهذه خواطر مرت بالنفس حين تقدم المسيو هوج لابير ليلقى محاضرته عن ذكريات الحى اللاتينى ، وهو من رجال الأدب الذين سمحت لهم الشهرة بأن يُدعوا لإلقاء محاضرات بأجر معلوم ، مائتى فرنك أو تزيد ، وقد لمحت هيئته لأول وهلة فأدركت أنه حريص على تملّق أهواء الجمهور ، وفى الرجل ذلاقة وطلاقة تليقان بخشبة المسرح لا كرسى المنبر . وفى وجهه وقوامه وشمائله بقايا من الشباب تدل على أنه خليق بأن تكون له ذكريات عن الحى اللاتينى : فإنه حى لا يفهمه الا من رُزِق نصيبا من من نضارة الصبا ، وصفاء الروح . ومع هذا لم يتحدث عن الحى اللاتينى بما كنت أنتظر من رجل قضى شبابه فى حى السوربون وان كان هذا لا يمنع أن الجمهور صفق له أكثر من عشرين مرة. فماذا قال ذلك المحاضر وما هو إحساس من يعيشون بذلك الحى الذى يسمى حى الشباب ؟ وكيف يفهمه الغريب حين يفاجأ بما فيه من غرائب وأعاجيب ؟

أول فبراير سنة ١٩٣١

ذكريات حي الشباب

حي الشباب في باريس هو الحي اللاتيني ، وهو حي الشباب بأجمل وأشرف وأبلغ ما تنطق به هذه الكلمة ، وليس في الدنيا التي رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنها بآذاننا أو قرأنا أخبارها في أساطير الأولين ، ليس في الدنيا كلها بقعة تتفتح فيها أزاهير الشباب وتندَى أوراقه ، وتتمايل أغصانه ، ويتأرّج عبيره ، كما يرى رُوَّاد الحي اللاتيني في باريس

ولا يعرف المرء صنعة الله ، جلت قدرته ، الا في ذلك الوادي من أودية الوجود ، وان لحظة واحدة في بول ميش (تصغير بولفار سان ميشيل) لتقنع الجاحد بأن الله أجل وأعلى من أن تتطاول الى نقد صنعته أوهام المكابرين ، تعالى الله عما يصفون !

وما ظنُّك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجرى عليها من أسراب المِلاح ؟ ما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق ما يملك العالَم من نضارة الشباب ، وروعة الجمال ؟

الحي اللاتيني هو حي الشباب ، وليس في قدرة أفصح

الكتاب وأبلغ الشعراء أن يثنى على ذلك الحى بما هو أهله، وقصارى المفتون به أن يقول: حى الشباب، حى الشباب!

لقد ذكرت للقارئ فى كلمة سالفة أن المسيو هوج لابير ألقى محاضرة عن ذكريات ذلك الحى، والآن أفصّل الكلام بعض التفصيل: لقد وقف المسيو هوج وابتدأ محاضرته بصراخ عنيف:

الشباب! الشباب! الشباب!

ثم أخذ يهذى بكلمات شجية كادت تجرى لها دموع السامعين، وقد تأملت المسيو هوج لابير فإذا هو رجل قد امتد به الزمان، ولكن فيه بقايا من رشاقة وصباحة تدل على أنه قضى فى الحى اللاتينى ليالى قصيرة من ليالى الشباب المطلول

لقد ذكرتنى لوعة المسيو هوج على شبابه بلوعة منصور النميرى إذ قال:

ما تنقضى حسرةٌ منى ولا جزَعُ
إذا ذكرت شبابا ليس يرتجعُ
بانَ الشباب وفاَتْنى بفرقتهِ
خطوب دهر وأيامٌ لها خِدَعُ

ما كنت أوفى شبابى كُنه غرتهِ

حتى انقضى فاذا الدنيا له تبعُ

وقول الآخر :

أتأمل رَجعة الدنيا سِفاهاً

وقد صار الشباب إلى ذَهابِ

فليت الباكيات بكل أرض

جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشباب !

تكلم المحاضر عن الحى اللاتينى فى أدواره التاريخية وذكر عدة نوادر وقعت من طلبة الطب وطلبة الحقوق ، وأظرف ما جاء على لسانه حوادث الطلبة الذى كانوا « يأكلون » إيجار المساكن ، فقد وقع غير مرة أن امتنع بعض الطلبة عنادا ومكابرة عن دفع أجرة المسكن ، وكان ذلك يجرى بين دُعابة المالكين وابتسامهم : « لأن المفلس يغلب الحاكم » كما يقول المصريون !

ومن نوادر ذلك الحى أن أحد الطلبة دخل دكان بعض الحلاقين ومعه عشرة من الرفاق ، وكان الجو مطيراً وبيد كل منهم مطرية مثقلة بالماء ، فما كادوا يستقرون بمطرياتهم حتى تحول الدكان إلى بحيرة ، أو كاد ! وهنا قال الحلاق : مَن الأول ؟

فأجابه ذلك الطالب فى هدوء : أنا الذى جئت لأصلح من شعرى ، وهؤلاء جميعاً فى معيتى !

وهذه نكتة لايدرك قيمتها إلا من عرف جو باريس ، وأهل باريس ، فهم قوم لايحتملون مطلقا أن يروا إنساناً لا يغمرهم بالمال، فكيف إذا رأوه لا يغمرهم بغير الماء !

وقد وقع لبعض الأساتذة فى كلية الطب أن أُولع الطلبة بمهاجمته وهو يلقى محاضراته ، ولكن كيف؟ كانوا يرمونه بقطع من النقود تساوى فى قيمتها أرباع الملاليم ، وكان الفريق الراضى عن ذلك الأستاذ يرميه بباقات الأزهار : فكانت تتجمّع أمام الأستاذ وعن يمينه وعن شماله عشرات الباقات ومئات الملاليم ، وهو يتلقَّى ذلك كله بين الحوقلة والاسترجاع ، فاذا انتهى من محاضرته جمع الأزهار والنقود ووضعها جميعاً فى محفظته ، ثم خرج يتوسم الوجوه ليوزع النقود على الفقراء ، وليهب الأزهار للغِيد الحسان !

ومما يؤثر عن شجاعة الطلبة ونُبلهم فى ذلك الحى أن إدارة الجامعة غضبت مرة على بعض الأساتذة وقررت فصله ، وكان الطلبة معجبين بمواهبه ، فكانوا يذهبون فى صبيحة كل يوم إلى منزله ، ويكرهونه على الذهاب إلى الجامعة لإلقاء محاضرته ، وكان ذلك يقع بدون أن تجرؤ إدارة الجامعة على التدخل خوفا

من ثورة الطلاب ، وفى نهاية العام ذهب الطلبة متجمهرين إلى مجلس النواب لحملوه على أن يقرر إعادة الأستاذ إلى منصبه ، وردّ ما ضاع من مرتبه فى العام الذى فصل فيه : وكانت هزيمة مُنكَرة لمدير الجامعة عرف فيها كيف ينتصر الشباب الحىّ على الكهولة الباغية التى تمشى إلى الفناء !

وقد استطرد المسيو لابير فذكر الشعراء والكتّاب الذين كانوا يستمدون وحيهم من الحى اللاتينى ، وأنشد الجمهور قطعاً من شعر ميسيه وفرلين وبودلير ، وقد صفق الحاضرون أكثر من عشرين مرة للذكريات الطريفة التى رواها لهم خطيب حى الشباب

*
* *

وأريد الآن أن أذكر بعض ماشاهدته بنفسى فى الحى اللاتينى ، وأذكر أولا أنى كنت أكتب فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ مقالات فى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية بإمضاء « الفتى الأزهرى » وكان مما اقترحته حينذاك أن تُنشأ حديقة أمام الأزهر ، وحديقة فى فِنائه ، ليكون شبيها بالسوربون محفوفا بالحدائق الغناء ، والرياض الفيحاء ، فلما جئت إلى باريس سنة ١٩٢٧ كان أول مافكرت فيه الذهاب لاستنشاق

الهواء فى بساتين السوربون ، فماذا وجدت ؟ لم أجد فى فِناء السوربون ولا حولها شجرة واحدة ، ودَهِشت إذ رأيت فناء السوربون يشبه صحن الأزهر تماما : فلا نجم ولا شجر ولا نبات ولا ماء !!

ياعجبا ! ما الفرق إذن بين جامعة الأزهر وجامعة باريس ؟ أما كان يستطيع الفرنسيون الكسالى أن يغرسوا فى فِناء السوربون شجرة أو شجرتين ليصحَّ ظنى فيهم ، ولتصدق المقالات التى كتبتها فى جريدة الأفكار وأثبتها فى كتاب البدائع ؟ !

ولكن مهلا ! فهناك على مقربة من السوربون وعلى بُعد دقيقتين اثنتين حديقة لكسمبور : وهى حديقة أولى بها أن تسمى (جنة الحى اللاتينى) لأنها تشبه من بعض الوجوه الجنة التى وُعد بها المتقون ، ففيها السِّدر المخضود ، والطَّلح المنضود ، والظل الممدود ، والماء المسكوب ، وفيها الحور العين ، والولدان المخلَّدُون ، وإن كانوا لايطوفون بأكواب وأباريق وكأس من معين

هى تشبه بعض الشبه الجنة التى وصفت فى القرآن ، والفرق بين الجنتين أن الجنة القرآنية لا يسمع فيها المؤمنون لغوا ولا تأثيما ، إلا قِيلاً سلاما سلاما . أما الجنة اللاتينية فبستان أنيق

طالما رنَّت فيه القُبَل الأثيمة ، وتمت فيه مواعيد اللهو والمجون. وقد تكون تلك الجنة اللاتينية أشهر مَهد من مهود الغواية الفِطرية التى يقع فيها الشباب بوحى الطبيعة ، قبل أن تصطبغ نفوسهم بلؤم الفُجَّار وخبث الماجنين

وحديقة لِكسمبور لها عهدان متمايزان : عهد الربيع والصيف ، وعهد الخريف والشتاء ، وأقسى أيامها هو العهد الاخير ، ففى الخريف تتساقط أوراق الأشجار رويدا رويدا فى حالة تثير الأَسى والشَّجَن . فاذا جاء الشتاء عادت الأشجار مجللة بالسواد كأنها فى حِداد . وفى هذا العهد لا تزار لكسمبور الا لِماما. وقد تطيب زيارتها فى أيام الجليد حيث تبدو أرضها ناصعة بيضاء كثنايا العروس

أما عهد الربيع والصيف فهو عهد الحب والشباب فى لكسمبور ، فما شئت من حُسْن منثور ، وغزَل رقيق ، ودُعابة يتبادلها المتحابون المتعاشقون ، وعطف تتجاذبه القلوب التى هيأتها الطبيعة لكسر أغلال الوجد المكبوت

وأغرب ما فى الامر أن حديقة لكسمبور ليست للشباب وحدهم : فهناك كهول يتخذونها مواعيد للغرام . وقد حدث مرة أن شهدت فيها مدرسا مصريا ما كنت أحسب أَن الله خلقه لِوَجْد أو صبابة أو تشبيب: حيث لا يفتح الله عليه بكلمة

إلا فى لوم العشاق والغَزِلين . رأيته وإلى جانبه عجوز فانية شمطاء يئس من خداعها الشيطان،وهما يتناجيان بأرق من نجوى الطير ، فتذكرت قول الشاعر

لـكل ساقطة فى الحىّ لاقطةٌ

وكل بائرةٍ يوماً لها سوقُ

ولا تحسب أن هذه الحديقة خُلقت للحب وحده ! كلا فهى أيضا أطيب مكان لمذاكرة الدروس ، وهى تذكّر من هذه الناحية بحدائق قصرالنيل، ولكن هل يراجع الطلبة فيها دروسهم؟ قد يكون ذلك ! ولـكنى أذكر أنى ماشاهدت فيها الطلبة إلا متجمعين أسرابا أسرابا يتبادلون شهىّ الحديث ، وفى ظنى أن كلا منهم كان يقول : بقى على الامتحان سبعة أيام . خير ! لا يزال أمامنا وقت ! وغداً سنأخذ فى المذاكرة بجد لا هزل معه ! فاذا جاء الغد تجمّعوا من جديد، وأخذ كل منهم مقعدا بمليمين وعادوا يتنادرون بفاتنات الاحاديث، وشائقات الاقاصيص

وأعجب ما يلفت النظر فى شباب الحى اللاتينى أنهم لا يلتفون بعضهم حول بعض الا قُبيل الامتحان . وهم بذلك يتعاونون على قتل الوقت ، وتزجية أيام الانتظار ، فاذا جاء الامتحان ذهبوا بقلوب من حديد ، وألقوا على القراطيس ما يحسنون وما لا يحسنون ، وتركوا وزارة المعارف تفعل ما تشاء ! فمن نجح

منهم ذهب فباع كتبه كلها بالثمن الذى يُعرض عليه ، ثم مضى يبعثر ما اقتضاه منها فى مراقص مونبارناس . ومن كُتِب عليه الخذلان انطلق إلى أهله يصف الممتحنين بالعنف والجبروت والرغبة فى التعجيز : وهى وسيلة لا بأس بها لستر الكسوف!

أشرت إلى أن حديقة لكسمبور معهد من معاهد الحب، ولعلها لأجل ذلك تغلق أبوابها دائما عند الغروب، حتى لا يتمتع أحد بخلواتها فى أَمسية الصيف والربيع . ولكن هل معنى هذا أنها تحمل شارة الرفث والفسوق ؟ لا ، فكل ما يجرى فيها يتقبله الناس على العين والرأس ، وأستطيع أن أؤكد أن أعف المتحرجين يشهد ما يقع فيها بنفس مغمورة بالجاذبية والعطف والحنان. ولست أعرف لهذا تفسيرا ولا تعليلا ، وأكبر الظن أن إشراق الأزهار فى الحياض ، وإشراق العقود فى الأجياد ، وعبير الشباب الذى يتأرّج بين الأشجار والتماثيل ، كل أولئك يلقى على الروح شُعاعا من الرفق بما يشرد فيها من جوامح العيون ، وخوافق القلوب

وما يدرينا ؟ لعلنا نحن الشرقيين الذين نقيد ذلك ونلتمس له التأويل، أما الفرنسيون فلا يرون فى حديقة لكسمبور شيئا مما نراه ، فهم يرسلون إليها أطفالهم في طمأنينة تامة ، بحيث يشهد المتفرج حول الفسقية عشرات الاطفال من ذكور وإناث .

ويبد كل طفل سفينته المحبوبة يلقى بها فى الماء وينتظر عبورها فى فرح وشوق لا يفهمهما غير الصبية الناشئين .

وفوق ذلك هناك ملاعب التنِّس ، وهى ملاعب يسعى إليها البنون والبنات فى أيام العطلة وساعات الفراغ . فهل تظن أن أحدا يتحرج من إرسال بنيه وبناته إلى ذلك الوادى الجميل ؟

أتريد الحق؟ إن أهل باريس لا يرون فى الحب ما نراه : هو عندهم شريعة من شرائع الحياة . وقد يقع أن يتعانق فتى وفتاة فوق أحد المقاعد ، وبجانبهما صبية مشغولة بكتاب تقرأه أو شِعار تَحُوكه ، أو أمل مَرموق تُقلِّبه فى صدرها المفتون ، ثم تظل فى فى عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين رنين القُبَل وهدير العِناق !

إن أهل باريس لايعرفون الفضول . ولهذا كانت تلك المدينة ولا تزال أحفل معالم الصبابة بأسباب الأمان

هذه السطور تعطى صورة مبهمة جدا عن جنة الحى اللاتينى وعذرى فى ذلك مقبول : فتلك بقعة لا تسمو إلى تحديدها الاقلام . والكاتب يخدع نفسه حين يتوهم أنه قادر على وصف ما تشهد عينه ، ويُجن صدره من ألوان المحسوسات والمعقولات . وحسب

القارىء أن يدرك أن تلك الحديقة هى ملعب الشباب فى الحى اللاتينى . وفى سحرها وجمالها تعليل بسيط لما سنعود إلى سرده من ذكريات ذلك الحى الجذاب

باريس فى ١٥ فبراير ١٩٣١

كيف النجاة

وقد فُطر القلب على الحب

ربّاهُ صُغْتَ فؤادى　　من الأسى والحنينِ
ولم تشأ لضُلوعى　　غيرَ الجوى والشُّجُونِ
فكيف تصفو حياتى　　من الهوى والفُتُونِ ؟
أم كيف تُرْجَى نجاتى　　من ساجيات الجفونِ

باريس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٧

غريب في باريس

يا جَنَّةَ الخلد كيف يَشقى · في ظلك النازحُ الغريبُ
الناس مِن لهوهم نشاوَى · ودمعهُ دافقٌ صبِيبُ
يقتات أشجانهُ وحيداً · فلا صديقٌ ولا قريبُ
أقصى أمانيه حين يُمسى · أن يهجع الخفقْ والوَجيبُ

***

مَغانيَ النِّيل كيف أقصتْ · رَيبَ أزهارِك الخطوب
وكيف ألقينهُ بأرض · أصح أحلامها كَذوب
أديمُ أجوائها سوادٌ · فلا شُروقٌ ولا غُروبُ
وحُبّ غاداتها مَوَاتٌ · فلا سكونٌ ولا هبُوبُ
ومن تَبِعْ جسمها بشيء · فقلبها مُقفرٌ جديبُ

***

أحبَّتي ، والفراقُ ويلٌ · تُرَمى بأرزائهِ القلوبُ
جزاكم الحبّ ، هل نسيتم · ما كان من وِردنا يطيبُ

أيامَ نُسقَى الشَّمُولَ صِرفاً ووجهها عابسٌ قطوبُ
نصارع الكأس لانبالى ما يكتم الدهر والغُيُوبُ
والزهرُ من حولنا شهيدٌ والنجم من فوقنا رقيب
غِذاء أسماعنا غِناء يكاد من لُطفه يذوب
وزاد أبصارنا جمالٌ تُباح فى حبه الذنوب
إذا دعانا الصِّبا هببنا وكلنا سامعٌ مجيب

***

لاتسألوا اليوم كيف حالى فالعيشُ من بعدكم عَصيبُ
مجنون ليلاكم استبدّتْ بمهد أحلامه الكروبُ
لا أكؤس الحب دائراتٌ ولا عُيون المها تجيب
يسَدّد السهم ليس يدرى أيخطئ السهم أم يصيب
يطارد المجدَ فى زمان إقباله غادرٌ لَعوب
الشهم من ناسهِ شريدٌ والحر من أهله غريبُ

باريس ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩

ملاهى طلبة الطب

يمتاز الحى اللاتينى من بين أحياء باريس بتلك الحيوية الجذابة التى تنبعث من ساكنيه وأكثرهم شباب ، ولكن سكان ذلك الحى الذين يشون فيه من روح الابتهاج والانشراح ينقسمون إلى طبقات ، ولكل طبقة خصائص ومميزات ، فهناك طلبة الآداب ، وطلبة العلوم ، وطلبة الطب ، وطلبة الحقوق

ونستطيع أن نحكم بأن الفريق السعيد من بين هؤلاء جميعاً هم طلبة الطب ، لأن طلبة العلوم والآداب والحقوق يعرفون ماينتظرهم فى دنياهم من الجهد والعناء ، أليس مصير طلبة الآداب والعلوم إلى التدريس فى المدارس الثانوية ؟ ويكفى أن تقدر أن أن هذا مصير الطالب لتعرف أنه خُلق للتضحية : فان التدريس محنة من محن الحياة لا يصبر على لأوائها غير المحتسبين الذين وطّنوا أنفسهم على المجاهدة والمجالدة فى سبيل أممهم ، وأصحاب هذه المهنة جديرون بأن يكتهلوا قبل الأوان ، لأن إحراق الدم والأعصاب فى سبيل التعليم بلية لايتحملها غير من اطمأن إلى حمل راية الجهاد ، وليس فى مقدور واحد من طلبة العلوم

والآداب أن يطمع فى غير المدارس الثانوية ، لأن المدارس العالية تتطلب من المدرسين مؤهلات أهمها إجازة الدكتوراه ، والدكتوراه لايظفر بها طالب فى فرنسا إلا إذا وصل به علمه وعقله إلى أن يضع قدمه بين صفوف الباحثين . وللقارئ أن يتأمل كيف يتأتَّى لطالب أن يُعِدَّ رسالة للدكتوراه وهو قد يتعثّر فى موضوع إنشاء !!

وهذا المستقبل المظلم الذى يتطلب ما يتطلب من المشاقّ خليقٌ بأن يحبس طلبة العلوم والآداب فى أقفاص من التوقر والاحتشام . من أجل هذا تنحصر ملاهى هؤلاء الطلبة فى لعب الشطرنج والبليارد ومعاكسة البنات فى مدرّجات السوربون ، ومناوشة الأساتذة إذا اقتضى الحال !

وقد يتفضل مدير الجامعة ، رفقا بطلبة العلوم والآداب ، فيقيم حفلة راقصة أو حفلتين فى أبهاء السوربون ، وهى حفلات طريفة يتراقص فيها الطالبات والطلاب ، لولا أنها مصحوبة ببعض التكاليف ، وبهذا يُحرَم منها كل طالب لايملك ثوب السهرة ، أو لايجد ٢٥ فرنكا للاشتراك

وهذه الحفلات تمر غالباً فى سلام ، وإن كان الناس يتوقعون غالباً أن يطلق فيها الرصاص ، بسبب العداوات الخطرة التى يحترق فيها الطلاب وهم يتسابقون فى كسب قلوب الطالبات

فاللهم (فَوِّت) حفلة هذا الشتاء بخير ، لأنى سأكون بين السامرين !

تلك لمحة عن المساكين طلبة الآداب والعلوم. أما طلبة الحقوق فلست من أمرهم على يقين ، لأنى لم أدخل كلية الحقوق فى باريس إلا زائراً ، ويظهر مما رأيت أن طلبة الحقوق أقرب إلى الأندية والمراقص من طلبة العلوم والآداب . ولكنهم على كل حال يُعِدُّون أنفسهم لِمهن المحاماة ومناصب القضاء ، وتلك أودية من وجهات الرزق كثُر فيها الزحام وقلّ فيها الثراء ، ولهذا يمشون مُثْقَلين بما ينتظرون من مصاعب الحياة .

كان الله لنا ولهم ، إنه نعم المعين !

***

بقى طلبة الطب : أهلاً وسهلاً بأسعد الناس فى حى الشباب !

أنا لا أعرف أيضا طلبة الطب . ولكن حظهم من مُتَع الحياة فى باريس وصل إلى جميع الآذان ، وشهدته أكثر العيون ، وكلمة « طالب طب » تساوى فى باريس كلمة (خليع) فقد جرت التقاليد بأن يظفر طلبة الطب بنوع من الحرية ، لا نجد له شبيها إلا فى كتب الأساطير ، ولعل السر فى ظفر طلبة الطب بتلك الحرية المرنة أنهم يصبغون ملاهيهم بالصبغة

العلمية ، وحظ أهل الطب قديم فى هذا الباب ، فقد أباحت لهم الشرائع رؤية مالا تحل رؤيته من الحمى الممنوع . وسبحان مقسم الحظوظ !

ولكن ماهى تلك الصبغة العلمية

هذا سؤال له جواب طريف ، فليعلم القارئ إذن أن كلمة « علم » فى العصر الحاضر تقابل كلمة « دين » فى العصر القديم ، فقد كان القدماء يقولون : « لاحياء فى الدين » إذا بدا لهم أن يخوضوا فى حديث يجرح الحياء . وكذلك يقول المحدَثون : « لا حياء فى العلم » إذا بدا لهم أن يقوموا بتجربة فيها ما يجرح الحياء

وأظرف مافى تجارب كلية الطب فى باريس أنها تقع ، كما يقتضى العلم ، بحضور الأساتذة والطلبة والطالبات ، ولتلك التجارب معانٍ خاصة يفهمها الألباء ، ولا حرج على من يدرس العلم فى أصوله وتفاصيله على المنهج الحديث .

وفى هذه النقطة يختلف حظ رجال العلوم ورجال الآداب فليس لأديب مهما جلَّ خطَره ، وسلِمَتْ نيته ، أن يشرح على طريقته مايحب أن يشرح من المشاكل الجنسية ، لأنه لوفعل لاتهمه الناس بالرغبة فى إذاعة أسباب الفسق والمجون ، ولكن العالم يدخل تلك المضايق فى طمأنينة وأمان بلا رقيب ولا

حسيب ، وهو فوق ذلك مشكور السعى ، محفوظ المقام ، فله أن يدرس ما شاء من المسائل الجنسية ، وله أن يفسِّر دراساته بالرسوم والتصاوير ، وليس لكائن من كان أن يتهمه بسوء النية: لأنه يتكلم باسم العِلم ، ولا حياء فى العِلم كما لا حياء فى الدين

وهذه الخطة قد عرفها الأدباء الأقدمون ، فقد بدا مرة لأبى العلاء المعرى أن يذيع بين معاصريه آراء الزنادقة والمرتابين ، فعمد إلى تلك الحيلة الملفوفة : وهى شرح آراء الزنادقة مصحوبة بلعنهم وتسفيههم ، وبذلك تمّ له ما أراد من عرض آراء الملحدين فى رسالة الغفران

ومن أدباء العصر الحاضر من يسلك هذه الطريقة فيقول مثلا : هذا كاتب يعجبنى أسلوبه ، ولكنى أكره مذهبه ، ثم يمضى فينتقل إلى قارئه خلاصة آراء ذلك الكاتب الذى ذكر أن مذهبه بغيض ممقوت (١)

***

أترانا بذلك نحرِّم على أهل الطب أن يقوموا بما يوجبه الدرس من التجارب العلمية ؟ هيهات أن يكون ذلك ما نرى

---

(١) اشارة إلى كلمة كتبها الاستاذ لطفى جمعة عن أندريه جيد

إليه . ولكننا ننقل فى تحفظ ما سمعنا من قيامهم ببعض التجارب الجنسية فى الحفلات الموسمية ، وهذه مسألة لا نحب الإفاضة فيها ، لأنها خطرة التفاصيل ، ولأن علمنا بها لم يتعدّ السماع ، وما أكثر ما نسمع فى حى الشباب !

فلنكتف إذن بسرد ما شهدناه بأعيننا وشهده معنا ألوف الألوف :

فى نهاية العام الدراسى يقوم طلبة كلية الطب فى باريس بمهرجان مشهود ، حيث يشترك الطلبة والطالبات فى مواكب سيارة تجوس شوارع المدينة ، ويكفى فى خطر هذه المواكب أن يكون الطالبات عاريات الأجساد ، اللهم إلا سِترا رقيقاً جداً يكفّ عادية المكان المرموق !

وقد رأيت فى أحد هذه المواكب فتى عرياناً وهو يحمل لوحة كتب عليها : (الباريسى الحقيقى يجب أن يأخذ السيلان ولو مرة ، فمن الواجب أن يكون رئيس الجمهورية أخذه ألف مرة !!)

ورأيت فتاة عريانة فى أشنع حالة ومعها عَلَم كُتب عليه (جيش الخلاص) وجيش الخلاص هـذا جمعية كبيرة تعمل لسلامة الأعراض ، وظهارة الأخلاق !

وللقارئ أن يتصور بقية التفاصيل ، فهنا يكون تداعى

المعانى وتنادى أشتات الخيال ، فإنى لا أريد باسم الأدب أن أنقل ما يقع باسم العلم فى باريس . فان العالم يباح له مالا يباح للأديب ، وحرية التعبير من جملة الأرزاق !

وبعدُ فهل هذا شر كله ؟ أم خير كله ؟ الجواب عند رجال الدين والأخلاق . أما أنا فأسجل فى تحفظ بعض ما تراه العيون .

باريس فى ١٧ فبراير سنة ١٩٣١

وزير مراكش

فى باريس الآن وزير مراكش المقرىء وهو رجل كهل ، تقول الجرائد الفرنسية : إنه يحب فرنسا حبا شديداً ، وإنه مستعد لتقديم أولاده ضحية فى الدفاع عن فرنسا إذا قتضى الحال ، وقد دعى بالأمس إلى زيارة السوق الكبير فذهب إليه فى الساعة السابعة صباحا ، والسوق قائم على قدم وساق ، وقد أطعموه هنيئا مريئا طعاما خاصا أُعدّ لفطوره ، فارتاح إليه . وطلب الوصف ليعمل مثله في المغرب إذا جاء العيد ، وقد أبدى فيما يقال مهارة عظيمة فى تعرف الأسماك والنص على القديم منها والجديد

ولنا أن نقول إن الوزير الذى يقدم أولاده عن طيب خاطر للدفاع عن فرنسا لوقدمهم للدفاع عن بلاده لكان أجدى وأشرف ، ولكن صدق شوقى حين يقول : « الذليل بغير قيد مقيدٌ ، كالكلب لولم يُسَدْ لبحث عن سيد ! »

٩ يوليو سنة ١٩٣٠

غانيات الحى اللاتينى

بعض الحقائق البشعة فى مدينة النور

لقد قصَرتُ أوقات فراغى فى الأسابيع الماضية على قراءة الكتب المؤلفة عن الحى اللاتينى ، ولم يزدنى ذلك الا كَلَفاً بدراسة ذلك الحى فى حاضره وماضيه ، وكان أجمل ما عرفته ما تلقيته شفاها عن الأدباء الذين شهدوا ذلك الحى منذ ثلاثين عاماً . وقد اتفق جميع من حادثتهم على أن الحى اللاتينى فقد جماله منذ أزمان ، فقد كان فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر هو المعهد الوحيد لمخاطر الحب والشباب . ثم أخذ يفقد سحره رُوَيْدا رويدا بسبب الأحياء الجديدة التى اجتذبت اليها أهواء الملاح ، وكان حىّ مونمارتر أول طعنة وُجِّهت الى صدر الأُنس فى حى الشباب . وانتهت المأساة بظهور حى مونبارناس . وبهذا أصبحت لا ترى فى الحى اللاتينى وجهاً صبوحاً ولا طلعةً بهية ، إلا فى ساعات خاصة من الصباح والمساء ، فاذا انتهى وقت الدرس مضت أزهار الشباب الى ملاهى مونمارتر ومونبارناس ، وبقى الحى اللاتينى هامداً لا روح به ولا حراك

هذا حق ! فلنا أن ننشد إذاً قول المتنبى :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرمِ

ولكن هل فرغ الحى اللاتينى من جميع أسباب الحياة ؟

لا قدّر الله ولا سمح !

فلا تزال هناك عصابات من النساء ، وأسراب من الفتيات ، يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللائى يبحثن عن معالم الشباب والجمال ، ولهؤلاء النسوة نفوس ظِماء الى الحسن الغض الذى يتأرج عبيره فى كلية الطب وكلية الحقوق . وفى كلية الآداب بالسوربون دروس خاصة ليست فى نفوس بعض النساء الا مواعد لقاء . . وهناك كذلك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن عن الرفيق ، ولا يجدن السبيل اليه الا بالانتساب الى السوربون !

فان مشيت فى بول ميش صباحا ورأيت الفتيات يتهادين وفى أيديهن الكتب والقراطيس فلا تحسب دائما أنهن يطلبن العلم مخلصات ، ولكن تذكَّر أن فيهن بنات شقيات قضت أزمات الحياة الأوربية على ما فيهنّ من كرامة وحَصَانة ، فهنّ يسعين الى الوِرد الممنوع بمشاركة الشبان فى تلقى الدروس !

والقارىء المصرى أو الشرقى لا يكاد يدرك مغزى ذلك ، لأن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال المرأة فى الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش فى أقفاص . هى سيدة لأنها لا تزال تُطْلَب وتُعْشق ، ويقال فيها الشعر

البليغ . أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها وولت أيامها ، لأن الغرب رُزِئَ ببلايا كثيرة اجتماعية واقتصادية كان من أثرها أنْ زهد الرجال فى النساء ، وأصبح الجنس القوى والجنس اللطيف فى صراع ، والصراع فى هذه المرة لا يمثل رجلا يتولّه وامرأة تتمنّع ، ولكنه يمثل رجلا وامرأة يقتتلان حول فَضَلات الأرزاق

وقد يخطىء من يظن أن هذا التحول فى سير الحياة أخمد حرارة المرأة ، فان الطبيعة الانسانية أعمق جذوراً من ذلك ، ولكنه بالفعل أخمد عواطف الرجل أو كاد : فقد أصبح الشبان ينظرون الى المرأة وكأنها فى أعينهم مخلوق سخيف ، والفتاة صارت لا تحظى بمودّة الفتى إلا إن شاركته فى ألعابه ، ورافقته في أسفاره ، وأغنته عن ارتياد مواضع الإسفاف . ومهما يكن من شىء فان أهل هذا الجيل عادوا أضن من أن يسفكوا قطرة من الدمع في سبيل المرأة. ونظرة الى ثمار الأدب الحديث فى أوروبا تكفى للاقتناع بأن وظيفة الحب فى القصص والروايات صارت وظيفة صناعية أو فنية ، يوردها الكاتب مراعاة للقواعد والأصول ، أو ما كان اصطلح عليه الأقدمون من قواعد وأصول

وهناك دليل أوضح : وهو الشعر ، فمن ذا الذى يزعم أن الشعر فى هذا العصر يقارب الشعر فى عصر ميسيه ولامرتين ؟ لقد ضعف الشعر حتى لا يرجى له نهوض ، والسبب

فى ضعفه هو انصراف العبقريين عن المرأة ، وذلك أخطر مقتل فى أدب هذا الجيل

هذه الحقائق تبين للقارئ السر فى خمود الحى اللاتينى ، فقد كانت الفتيات من قبلُ زينة هذا الحى ، يوم كان الشبان يتغنون بالحب العذرى ، ويوم كانت الفتاة لا تسقط إلا إن ذهب الهوى بعقلها المكبول .

فماذا نرى اليوم ؟ ماذا نرى بعد انقراض الحب النبيل ؟

نرى عدة قهوات كأنها مواخير ، فان الشاب حيثما توجه فى ملاهى ذلك الحى كان جديراً باقتناص انسانة تزيد فى دفء غرفته إن أعوزه الدفء فى ليالى الشتاء !

وقد يحدث أن تعرض الفتاة نفسها فى غير حياء ، كما كان الفتى يهاجمها قديما فى غير حياء

ولكن أين من يقبل ؟ فان فتيات الحى اللاتينى طاغيات . ولا تكاد الفتاة تحادث من يقبل عليها حتى تصارحه بأنها مَدِينة ، وانها لم تدفع نفقات غرفتها منذ شهور ، وأنه ليس لديها إلا فستان واحد ، وأنها لم تأكل منذ يومين !

والويل كل الويل لمن يسلس القياد لهؤلاء البائسات ، فانهن ألزم من الظل ، وأثقل من تظرف الثقلاء !

وللقارىء أن يسأل : هل نساء الحى اللاتينى كلهن فرنسيات ؟

ونجيب بأن الفرنسيات قلائل جدا فى ذلك الميدان . ولم تُظلم أمة من الوجهة الأخلاقية كما ظُلمت فرنسا بين الأمم الأوروبية . فالناس جميعا يكادون يتفقون على أن المرأة الفرنسية ماجنة خليعة ، وذلك خطأ مبين. والواقع أن الفتيات الأوروبيات يستفدن من الحرية الشخصية فى باريس ، حيث لا يتقدم أحد مطلقا لإزعاج العشاق : ففى باريس ألوف مؤلفة من الرومانيات ، والنمسويات ، والألمانيات ، والايطاليات ، والاسبانيات ، إلى آخر ما تعرف من الشعوب الاوربية والامريكية ، وكل تلك الروافد تنصبُّ فى باريس : فهى ملتقى طلاب الغواية من جميع الأجناس

أتحسبنى بذلك أعدو الحق ؟ هيهات ! فأنا رجل أعشق النبرات الفرنسية ، وللغة الفرنسية الخالصة سِحرٌ قهار يفعل فى نفسى مالا يفعل الشراب . وقد تمضى أسابيع ولا أسمع من فتاة واحدة نَبرةً تشعرنى أننى أحادث فتاة فرنسية ، وكذلك اقتنعت أو كدت أقتنع بأن الجمال الفرنسى أعز وأمنع من أن يتذل فى الحى اللاتينى . والمصادفات الطيبة التى ظفرت بها فى باريس زادتنى حزنا وخوفا على مصير المرأة الفرنسية ، فانه لا تزال فيها بقايا من

الطُّهر والنُّبل ، ولـكن الجيل الحاضر يكاد يعصف بما كان لفرنسا من شريف التقاليد ، وتكاد الأزمات الطارئة فى عالم الاقتصاد والاجتماع تبدل الشمائل والنحائز والخلال

فماذا بقى اذاً من مواقع العيون والقلوب فى باريس ؟

لم تبق إلا الشهوات الحسية السافلة التى تقدم بلا حساب فى الفنادق والحانات حيث يباع الهوى بلا ميزان — كما يقول صديقنا الأديب توفيق وهبة — ولـكن كيف والعِرض أيسر ما يُبذل فى تلك البقاع ؟

أليس فى ذلك مايؤيد قرار لجنة البعثات فى مصر بمنع الطلبة من تزوج الأجنبيات ؟

أليس فى ذلك ما يؤيد خوف الآباء على أبنائهم من مفاسد باريس ومناكر باريس ؟

لقد أصبحت أومن بأن الحرب من أشرف نزعات الانسانية فهى التى تعلِّم الشعوب قيمة الواجب ، وهى التى تغرس فى الشباب حب الرجولة . ولئن دام السلم نصف قرن ليصبحنّ الناس من جامح الحيوان

وبعد فان لم يرق للقارىء هذا الكلام فليعذر الكاتب : فانه رجل أمضَّته الخلائق فى باريس

باريس ٢٥ فبرير سنة ١٩٣١

صلاة الجمعة فى مسجد باريس

ماشهدتُ باريس إلا خطر بالبال ما يجب على المؤمن من الرجوع إلى ربه لحظة أو لحظتين فى هذه المدينة العجيبة التى طغت على كل ما تصوره الأقدمون من نعيم الجِنان ، وكان يرضينى فى تهدئة الروح الظامئ إلى سَلسبيل السلام والسكون أن أذهب إلى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربيـة الدقيقة التى تزدان بها الجدران والسقوف ، وبين خرير المياه فى تلك الأحواض البديعة التى تذكِّر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام ، ثم آوى إلى قهوة الجامع فأتناول كأساً من الشاى محفوفاً بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المغنون الذين يسمعونك فى باريس بعض ماتسمع على ضِفاف النيل

ولكن أين هـذا كله من ذلك الخاطر الغريب الذى يعتادنى منذ ثلاثة أعوام : فقد فكرت غير مرة فى أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام فى نصح من يعيشون فى باريس ، وما هى قائمة المنكرات التى يحاربها الخطيب فى مسجد باريس ، وكنت أقدّر أننى سأجد أجمل فرصة أفهم بها تأثير

الزمان والمكان فى تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات الواعظين .

وهنا لا أكتم القارئ أنى انصرفت عن صلاة الجمعة فى مساجد القاهرة منذ أعوام . ويرجع السبب فى ذلك إلى حادثة صغيرة زهدتنى فى أصحاب الخطب المنبرية : ذلك أنى كنت أحرر جريدة الأفكار فى سنة ١٩٢١ فزارنى بعض خطباء المساجد وفى يده مقالة يلح فى نشرها ولكنى وجدتها مملوءة بالطعن فى الحكومة ، لماذا ؟ لأنها لا تمنح خطباء المساجد من المرتبات ما يعينهم على المظهر اللائق بهم . وفى اليوم التالى ذهبت أصلى الجمعة فى أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب !

وليس من التحامل فى شىء أن أذكر أن جمهور المثقفين فى مصر لا يجد ما يشجعه على الحرص على فريضة الجمعة ، وقد يكون فى هذه الإشارة ما يحمل فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى على وضع منهاج جديد تحيا به الخطب المنبرية ويدخل فيها من الجِدة والروح والحياة ما يجعلها وِرداً سائغاً تهرع اليه النفوس المتعطشة الى الحكمة والموعظة الحسنة ، فقد دبّ الشباب فى كل شىء إلا خطباء المساجد عند المسلمين

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفى نيتى أن أقف موقف

المشاهد الذى يقيد ما يرى من الظواهر والفروق، ولكنى لم أكد أتخطى عتبة المسجد حتى شعرت بأن « روح النقد » انصرف عنى ، وشعرت بأن « روح الإيمان » أخذ يحتل مشاعرى وحواسّى ، وابتدأت فصليت ركعتين لله ، وكنت حُرمت هذا منذ أزمان ، ثم جلست أتأمل فيما يحتوى المسجد فاذا المنبر مهدى من « فؤاد الأول ملك مصر » وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شُغِلت بالآداب والفنون ، ونظرت إلى المصلين فاذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت عليهم سيما الخشوع ، ومن ذا الذى يهرب من فتنة باريس إلى المسجد بدون أن يجد فى قلبه روح التقوى وحرارة اليقين ؟ ولأمرٍ مّا عددت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون . وانتظرت سورة الكهف . ولكنى وجدتها لا تقرأ قبل الصلاة ، فتذكرت أن قراءتها على هذا النحو بدعة ، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو فى باريس أمّ البدع والضلالات !

وبعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب ، ثم صعد المنبر ، وأضيئت جوانب المسجد ، ثم كانت تقدمة صغيرة قام بها أحد المؤذنين وافتتح الإمام فى أثرها الخطبة ، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون مَلزمة مفردة من كتاب . فتذكرت الخطب المنبرية التى تطبع فى مصر

ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها فى كل عام على اختلاف الجمع والشهور ، وتوقعت أن تكون هذه أيضاً مقتطفة من بعض الدواوين المصرية . ولكن هذا الخطيب طالعنا بخطبة فصيحة ، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد الببلاوى فى مسجد الحسين . لقد ترك هذا الخطيب كل شىء من حياة باريس ، كأن النصح فيها لا يغنى ولا ينفع ، وأخذ يحدثنا عن شهر ربيع الأول وما وقع فيـه من الحوادث الجِسام فى عهد الرسول ، فسألت نفسى : أتكون هذه المرة الأولى التى يتحدث فيها الخطيب عن ربيع الأول مع أننا فى الجمعة الأخيرة منه ، أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون ؟ !

ورأيت لأول مرة فى حياتى خطيباً ينشد الشعر فى خطبة الجمعة كلما بدت مناسبة ، فقد أنشد هذا البيت :

وإِذا افتقرتَ إِلى الذخائر لم تجد

ذُخرا يكون كصالح الأعمالِ

واذا صح أن هذا البيت من شعر الأخطل — وكان نصرانيا لا يفارق الشراب — فانه لدليل على أن للشعراء لحظات تصفو فيها نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبقى أثرها بين مختلف الفِرق والملل وعلى اطراد الأجيال

وأنشد فى مكان آخر الأبيات التى يقول فى بدايتها الحريرى :

يا خاطب الدنيا الدنية انها　　شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها　　أبكت غداً تباً لها من دار

وفى مكان ثالث أنشد أبياتاً فى مناقب أبى بكر رضى الله عنه غابت عن الذاكرة . وكنت لا أعرف لأى سبب يترك خطباء المساجد الاستشهاد بالشعر ، ولكن بعض رجال الدين له رأى فى الشعر قد يكون السبب فى العدول عن الاستشهاد به: إذ لا يراه من الأمور ذوات البال !

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملأ خطبته بالنفحات الوجدانية ، فهو يقول مثلا « وأين ربيع الروح من ربيع العين » هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع ، وكنت أحب أن تكون « وأين ربيع العين من ربيع الروح » على أن السجع يقع خفيفا جداً فى خطبة ذلك الرجل ، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من التكلّف ومن اللَّبس ، وكان له فى تصوير الظروف التى اقتضت الهجرة ذوق جميل

وبعد انتهاء الخطبة نزل الامام فصلى بنا صلاة خفيفة جداً رجونا أن يكون فى بساطتها ما يؤكد لها القبول ، فان الرياء والتصنع لا يغنيان فتيلا عند علام الغيوب . ثم قرأ المصلون جميعا دعاء شائقا لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولا أحفظ منه حرفا واحداً، وإن كنت هينمت منه بضع كلمات لأستر جهلى بفقراته

الحسان ، وأنا والله معذور فانى لم أسمع مثله حين كنت أواظب على الصلاة قبل أن أعرف (بونجور مدموازيل) و (بونسوار مدام) !

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت الى ذلك الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب باخلاص

— أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم

— أنا الفقير الى الله زكى مبارك

— أهلا وسهلا ! ياسيد قدُّور تعال سلم على السيد مبارك

فالتفتُّ فاذا السيد قدور بن غبريط يصافحنى ، فتأملت فى وجهه طويلا ، وكنت سمعت انه سعى فى إنشاء هذا المسجد ليخدم فرنسا ! ولكنى تيقنت الآن انه خدم دينه وبلاده حين استطاع أن يبنى مكانا للصلاة فى باريس وفى جوار حديقة النباتات ، وصدق الامام الغزالى حين قال

« طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

بين فصول الكتاب

وآيات الوجود

صديقي ...

تسألني كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة، وتطلب بيان ذلك التعقيد ؟ اسمع اذن هذه القصة ثم استنبط منها ما تشاء :

في مساء ١٤ يوليه الماضي، بعد أن تناولت العشاء، مضيت الى شاطىء السين أنتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين. ثم بدا لي فجأة اني شهدت هذا الاحتفال في الأعوام الماضية، وانه لن يكون فيه جديد، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة أو صحيفتين لأتقدم قليلا في العمل الذي جئت له، ثم انحدرت إلى المنزل الذي أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التي تحشر الناس في صعيد واحد ليرى بعضهم بعضا وليجددوا ما بلى من آمالهم وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق من نزوات القلوب ونزعات النفوس، وليروا أخيراً الأسهم النارية تعمل في الجو المطلق بعض ما تعمل العيون النواعس في أفئدة الشعراء

عدت إلى المنزل، وأقبلت على مكتبي، ثم أدنيت الدواة والقلم

والقرطاس ، ولكنى لم أ كد أضع أول جملة حتى سمعت دوىّ الأسهم النارية يخترق الفضاء ، وسمعت تهليل المهللين وصياح الصائحين ، والضحكات جميعاً من قوية تنبئُ عن رجولة ، ورقيقة متقطعة تكشف عن أنوثة ، ودارت بى الغرفة فلم أدر ماذا أ كتب ، وعزّ علىّ أن تنهزم إرادتى وأن أخرج ثانية للاشتراك فى الاحتفال ، وأخذت أُرهف العزيمة لأ كتب شيئاً يعوض تلك الخسارة الفادحة التى مُنيت بها حين تركت أهل باريس يمرحون ويلعبون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس نفسى طائعاً فى غرفة مغلقة الأبواب بين ما أعجم واستبهم من مناظر الكتب والدفاتر والمحابر والأقلام والمذكرات

ولكنى لم أ كتب شيئا !

ثم خلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير ذاهلا حائر اللب ترمينى قذائف التفكير من هنا وهناك . وتجمّعت فى رأسى أسباب الثورة الفكرية التى تهاجمنى وأهاجمها من حين إلى حين ، وبدأت أمطر نفسى وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المحرجة التى تقف أمامها النفس الإنسانيـة حيرَى مولّهة لا تدرى كيف تجيب :

أنا تركت العالم يموج على شواطىء السين، ولكن لماذا ؟ . .

لأقرأ كتابا يتحدث عن العالم ؟ ... هذا حمق وسفه . كيف أترك الحقيقة ثم أبحث عنها فى ألفاف الخيال ! ألا أكتب بحثا يشرح بعض حقائق العالم ؟ كيف ! وأنا أهرب من العالم لألجأ إلى القلم والكتاب والمصباح !

وانطلقتُ أفكر في أمثالى من الذين يتسامون إلى شرح حقائق الحياة ونواميس الوجود وهم أسرى فى منازلهم يخشون إذا همّوا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال . فكم من عالم مفكر — وتلك دعوى قديمة — يجلس فى عقر بيته ليضع الشرائع للناس ، وهو لايعلم شيئا عن غرائز الناس . فى حين أن التشريع ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية ، وانما هو تنظيم وتهذيب للغرائز والميول والأهواء . وكم من فيلسوف ـ وتلك أيضا دعوى قديمة ـ لايعرف من الدنيا غير الكتب ولا يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين ، وهو مع ذلك يرى نفسه أهلا لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب !

ثم ماذا ؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التى درج عليها الناس منذ أجيال ، والتى تقضى بأن الجمهور لايحترم الرجل الذى يشاركه فى أسباب دنياه ، وانما يتصور العظمة محبوسة فى أقفاص المكاتب والمعاهد والجامعات . وقديما شك الناس فى نبوة

الأنبياء : لأنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق كما حدثنا القرآن

أتجرحك يا صديقى هذه الملاحظات ؟

معذرة اليك ، فأنا رجل ثائر عنيف ، وسأظل فى ثورتى الى أن أنتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد . وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستحطم عما قريب ، وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات ، وستهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ ، وخلق أسباب التبجيل ، وفرض الاحترام بالأساليب الممجوجة التى تخلى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب فى شرف الحرية والإخاء والمساواة ، ويوم فضَّل الحقيقة المرة على الباطل المعسول

متى أشهد مصرعك يا عهد النفاق !

ثم كان مساء الأحد الماضى حيث يجرى سباق السباحة فى السين ، وخرجت باريس برجالها ونسائها وشبابها وكهولها تحيِّى عظمة البساطة والخفة والسذاجة والرشاقة فى أجسام السابحين وخرجت أنا أيضا هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات فى الصِّوان وأغلقته اغلاقا محكما ووضعت المفتاح تحت البساط لئلا يهجم علىَّ كتاب فلسفة مثلا فيحول بينى وبين الخروج !

يالله ! هذا شباب باريس يطوّق السين كما يطوق العقد

جيد الحسناء . وهذا زحام مطبق لم يترك لمثلى موضع قدم ، والناس ما بين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار ، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين ، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان لتتم له أسباب الإبداع ، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الانسانية وجها لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدعياء الفلسفة الذين ينزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول والسين ؟

السين ! قد تحول يا صديقى إلى أمواج من النور البنفسجى الجذاب ، حتى حسبته قلبا يخفق بالمنى ، أو مخدعا يتناجى فيه عاشقان ، وحسب السين ليلة من هذه الليالى فى كل عام ليتيه على أنهار العالم جمعاء ، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديما يوم كانت تزف اليه فى كل عام فتاة هيفاء ، والحسن فى كل عصر خير ما يهدى وخير ما ينال

وأنا ؟ . . . أتريد الصدق ؟ لم تكن معى مرآة أرى فى بياضها مشاهد السابحين ، ولم أنشط الى تسلّق الأشجار لأرى مالا يراه الواقفون ، ولم أجد مكانا على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق ، وانما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسى ، وعدت مع ذلك إلى المنزل قبل أن ينتهى الاحتفال . أتدرى لماذا ؟ لأقرأ كتاب سبنسر فى علم الاجتماع !

فان شئت أن تعرف كيف كانت أعمالى كثيرة ومعقدة فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد الوجود ؟

باريس فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

شفاعة النساء

المرأة مخلوق لطيف يعرف قيمته من يعيش في مدينة مثل باريس حيث لا يُفتح باب من أبواب الرزق والمجد إلا بيد المرأة فهى مفتاح كل شيء ومغلاق كل شيء : تعطى الحظ من تشاء وتنزعه ممن تشاء أغنانا الله من فضله عن شفاعتها فى باريس وغير باريس ؟

ويظهر أن شفاعة النساء كانت معروفة فى الزمن القديم ، يدلنا على ذلك هذا البيت

ونُبِّئْتُ ليلى أرسلت بشفاعة   إلىَّ فهلاَّ نفسُ ليلى شفيعها

وأصرح منه فى الدلالة قول الآخر

ليس الشفيع الذى يلقاك مؤتزراً   مثل الشفيع الذى يلقاك عريانا

والعن من هذا وذاك قول صديقنا الحومانى أحد شعراء سورية

قضى عصرنا أن يكون الشفيع   لنيل المناصب نهدٌ وقدّ

فمن شاءها فليزُرِ أهلَهُ   رئيسَ الحكومة يوم الأحد

وهذا كلام لا يحتاج إلى شرح ولا تعليق . ويرحم الله من استطاعوا الفرار من زينة الدنيا إلى وعورة القفار والفلوات

محمود بيرم

فى طريقى إلى المنزل الذى أقيم فيه حديقة صغيرة يؤمها الناس من جميع الطبقات إلى وَهْن من الليل . وهى حديقة تهوى إليها نفسى فأخترقها فى الصباح وعند المساء ، ويعجبنى فيها تمثال فولتير ، ذلك الرجل المعجز الذى علم الكتّاب كيف يسخرون وكيف يرتابون ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة التى لاندرى كيف استطاع الصخر وهو أصم أن يحفظ منها صورة ناطقة ، ويعجبنى فيها أيضا أولئك النسوة النبيلات يخرجن إليها فى الضحى وفى الأصيل ومعهن أطفالهن يمرحون ويلعبون ، فأتذكر والأسى يلذع قلبى أولئك الصبية الأعزاء يحيطون بى فى حديقة المنزل ليمنعونى من الخروج و .... من الرحيل !

فى يوم الثلاثاء الماضى وأنا أخترق تلك الحديقة فى الساعة الثامنة قبل الغروب لمحت طائفة من الجرائد المصرية فى يد انسان لا أعرفه ، وعلى وجهه مسحة من سماحة الشرق ، وكتلة من أثرة الغرب ، فقلت :

— سلام عليكم (بخفة ونشاط)

—عليكم السلام (بتثاقل وبرودة)

—لا ترُعَ أيها الرجل ، فأنا أريد أن ألقى نظرة على هذه الجرائد لا أكثر ولا أقل ، وأنا والله فاعل ذلك رضيت أم غضبت !

—اقرأ ، ولكن أسرع فانى ذاهب الى العشاء ، فقد شغلنى قبلك هذا الفتى بجانبك اذ رجانى أن أسمح له بنظرة سريعة ينظر بها أخبار مصر والشرق ، كما يقول ، أما أنت فبارك الله لك فى هذه الجرأة ، ألست تريد أن تقرأ هذه الجرائد رضيت بذلك أم غضبت ؟ ولا أدرى والله ماذا أصنع اذا حاولت منعك وفيك هذه الجرأة وهذا الهجوم ، وقد تكون قوي البطش ، سليط اللسان !

ثم سكت ، وأخذت أقرأ تارة وأدرس وجهه تارة أخرى :

هذا شاب قصير ، نحيل ، متضعضع ، مهدود ، لم تبق أيامه من جسمه باقية ، وهو لذلك ضيق الصدر لم يستطع أن يتكلف البشاشة لرجل بدأه بالتحية ، وانه ليحمل رزمة من الجرائد المصرية . وهذا الحمل الثقيل يدل على انه مغرم بتتبع الحياة فى مصر بألوانها السياسية والأدبية . فياليت شعرى من هو ؟

—أنت هنا منذ زمان أيها الأخ ؟

—منذ عشر سنين !

—عشر سنين ؟ وماذا تصنع ؟

—عامل فى أحد المصانع

—وما الذى ابتلاك بهذه الجرائد وأنت عامل ؟

—هذه بلوى قديمة !

—منذ متى ؟

—منذ كنت أحرر المسلة . فأنا محمود بيرم التونسى

أهلا وسهلا !

وحضرتك ؟

زكى مبارك

أنت الدكتور ؟ الله يسامحك ! كيف نسيت أن ترسل الىّ نسخة من كتاب الأخلاق عند الغزالى . لا . . . بل كيف استبحت لنفسك أن تهاجم ذلك الفيلسوف . . . الى آخر ما قال

أيها القارىء !

أتذكر صيف سنة ١٩١٩ ؟ ان كنت لم تشهد ذلك العهد وذلك العام الميمون فاسأل من شهدوه ومن اكتووا بناره يخبروك أن محمود بيرم التونسى كان شاغلا لجميع الأندية المصرية بمجلته الصغيرة اللذاعة (المسلة) وهو — مع احترامى لمن يشتغلون بالرسائل الفكاهية فى مصر ؟ — رجل ممتاز له طابع خاص . ولقد رأيته فى حالة محزنة ، فقد سقط عليه فى ذلك اليوم

برميل بيره فى المصنع الذى يعمل فيه . ولكن الله لطف فلم يُصب إلا بجرح خفيف ، أتم الله شفاءه وعافاه

بعد أن تعارفنا تطلَّقت أسارير وجهه ، وأخذ يسألنى عن مصر وعن صحف مصر وعن الصحفيين الذين يطلبون منه أن يراسلهم مجاناً وهو فى أشد الحاجة الى المال ، وعن الذين يستطيعون أن يسهلوا له سبيل العودة الى مصر ولكنهم لا يفعلون ! !

ثم تناولنا معاً طعام العشاء . وطفنا طويلا على شواطئ السين ، وأسمعنى مواويله وأزجاله القديمة التى كانت تضحك ناساً وتبكى آخرين ، فى سنة ١٩١٩ ، وأسمعنى كذلك طائفة من المقامات الهزلية التى تضحك الثكلى . خصوصاً مقامة « الفقى » الذى خرج يصطاد امرأة ، والذى « شال العزال » الى المحطة ! ؟

وانتهى المطاف الى احدى الحدائق العمومية التى تظل مفتوحة الى نصف الليل ، وكان بيرم افندى قد تعب ، فطلب أن نجلس قليلا على أحد المقاعد ، ولكنا وجدناها جميعاً مشغولة ، فاضطرنا تعبه الى أن نجلس على مقعد فيه عاشقان يتناجيان ، والأدب فى باريس لا يسمح بازعاج العشاق ، وظل الفتى يقبّل الفتاة وهى بين يديه كأنها الغصن المطلول ، وكأننا لسنا هنا وكأنهم ليسوا هناك ؟

— لا تحسب يا دكتور أن هذا فسق ، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج

— اطمئن ! فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التى تطوى عليها جوانح الغدَرَة الفَجَرة ممن يدّعون الفضيلة، والله بما يعملون عليم !

ثم همنا بالعودة الى منازلنا بعد سهرة جميلة نفينا بها أشجان الاغتراب

— اسمع يا محمود افندى ، أنا سأكتب عنك مقالة

— أنت تمزح . ألم يبق لديك الا أن تكتب عن بيرم بعد أن نسيه الناس؟

باريس فى ٢٩ يوليه ١٩٢٩

لطفك !

يافوقَ مايسمو لجَاج الهوى ويطمح الوجدُ ويبغى الهُيام

الطُفْ بعشاقك وارفق بهم فقد طغى الحسن وجار الغرام

باريس فى ٨ سبتمبر ١٩٢٧

هذه باريس وهذا باريس

باريس فى ١٤ يوليه سنة ١٩٢٩

صديقى . . .

لقد ألف الناس فى مصر والشرق أن يلحظوا فى باريس صيغة التأنيث ، فهم يقولون (باريس الجميلة الفتانة) ولكن الفرنسيين يعطون لعاصمتهم القوية صيغة التذكير ، وإنهم ليقولون (باريس القوى القهار) فما هو السبب فى ميل الشرقيين إلى تأنيث هذه المدينة ؟ السبب واضح ، لأن الشرقيين يتوهمون هذه المدينة مدينة اللهو والدعارة والفسوق: فهم لذلك يعطونها اسما ليناً مؤنثاً يتناسب مع ما يحسبونه ينهار فيها من أركان الأخلاق ، أما الفرنسيون فيعرفون فضل عاصمتهم ويعلمون أنها قوية جبارة غالبت الأعداء ونازلت الخطوب زمناً غير قليل ، ثم ظفرت من ذلك كله بمجد باق خالد تغلب عليه سيما البشر والابتسام: إذ لم يعد فى حاجة إلى التبرم والعبوس .

أتذكر أنك سألتنى غير مرة أن أحدثك عن باريس ؟ إذن فاعلم أن صمتى عن جوابك لم يكن جهلا لقدرك ، ولا تهاونا

فى حقك ، ولكنى ظننتك تنتظر منى جوابا يساير الفكرة التى ينتظرها الشرقيون ممن يصف باريس ، لذلك استبحت لنفسى الإغضاء عنك ، وأنت أنت فى ودك الصادق وعهدك المتين .

واليوم ، أتدرى لِمَ فكرت فى جوابك ؟ لسببين : الأول لرد التحية الجميلة التى حيتنى بها جريدة الصباح والتى وعدت فى ختامها القراء بأنى سأوافيهم بشىء عن الحياة فى باريس ، والثانى لأن هذا اليوم — يوم ١٤ يوليه — أخرجنى عن وقارى ، فتركت عملى وخرجت أهيم كالثائر المجنون أتلمس أسباب الحياة فى هذه المدينة الصاخبة التى أغوت من أغوت ، وأضلّت من أضلّت ، وهدَت من هدت من العالمين ، فلم أجد أمامى إلا ذكرى النصر والحرب والسيف والمدفع والبأس والصبر والكفاح ، وما شئت يا صديقى من الأسماء والمسميات التى خلقها الله لتمجيد البطولة والرجولة والقوة والبأس الشديد .

ولقد تعودت فى الأعوام الماضية أن أشهد الحفلة القومية التى يعرض فيها الجيش صباحاً فى ساحة النجم عند قبر الجندى المجهول ، فبكرت من يومى هذا أسابق الناس إلى ذلك الميدان لعلى أجد مكانا صالحا أقضى فيه ساعات الاستعراض ، ولكنى علمت مع الأسف ان مجلس الوزراء قرر إلغاء هذه الحفلة فى هذا العام فراراً من وقدة الحر الذى هاجم باريس منذ يومين اثنين ،

وكنا فى بداية هذا الصيف نشكو شدة البرد . وكذلك حُرم الباريسيون من ذلك المنظر الرائع منظر الجنود مدججة بالسلاح تذ كِّر من عساه يغفل وينسى بأن الوطن لا يُحرس بغير القوة ، وان الأمة التى عُرفت فى العالم كله بأنها صاحبة الفضل فى نشر المبادئ الانسانيـة هى أيضاً لا تعيش بغير القوة ، وانهـا فى وجودها وعظمتها مدينة لقوة البأس وصدق النضال

أفهمت الآن أن باريس شىء غير الذى تعلم وغير الذى يتوهم الناس ؟

لقد ألقيت فى الشتاء الماضى محاضرة فى نادى الموظفين عن تأثير المرأة فى المجتمع الفرنسى ، فلما نُشرت خلاصتها فى بعض الصحف لقينى أحد الذين طالت إقامتهم فى باريس وأفهمنى بلطف أننى لم أعرف باريس . ولا أزال حتى الآن أجد من يلومنى على حسن الظن أسديه الى باريس . ألا فلتعلم يا صديقى أن الذى أحدثك به عن هذه المدينة هو الحق كل الحق ، والذين يعرفوننى يعلمون علم اليقين اننى تغلغلت فى أعماق الحياة الفرنسية وانه لم يصل أحد الى مثل ما وصلت اليـه من الألفة الصافية والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقتهم وعاشرتهم من الفرنسيين فى باريس وغير باريس . فالمرأة الفرنسية الصميمة الأصيلة يغلب عليها النبل والطهر والعفاف ، وإن نبرة واحدة

من صوتها الرنان لتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وانها لتذل من تُذل ، وتُعزّ من تعز ، وهى فى مكانها كالطود الراسخ لا تُغلب ولا تُنال . ولو كانت المرأة الفرنسية هينة الى الحد الذى يتوهمه الأفّاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات فى باريس لما أنجبت فرنسا شاعراً ولا كاتباً ، ولظل أهلها فقراء العواطف موتى الإحساس . والذين تراهم يتحدثون عن باريس ذلك الحديث الوقح المجرم المأفون هم قوم لا يزيدون فى أخلاقهم ولا معارفهم عن شواذ الفلاحين فى مصر حين يجيئون القاهرة عمداً ليطفئوا حرارتهم الحيوانيـة فى بعض البؤر الموبوءة ثم يعودون الى أهليهم فيعطونهم من القاهرة صورة تجرح الطبع والذوق وتبغض الرجل المهذب فى مظاهر المدنية وآثار النهوض

فى باريس اليوم نحو خمسة ملايين من السكان ، أفيعيش هؤلاء الناس جميعاً بفضل الرذيلة ؟ هذا محال . فلم يبق الا أن نقف عند حدود العقل والمنطق فنتصور ان مثل هذه المدينة — وفيها نحو مليون من الأجانب — لا تخلو من أماكن تسود فيها الرذيلة ويغلب الشيطان . ولـكن هل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والـكليات والمتاحف والمعامل والملاجئ والمستشفيات ؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يذكر ان الرجل قد يعيش فى باريس

بضع سنين ثم لا تقع عينه على منزل يُبنى أو منزل يهدم ، حتى لأتصور أنا أن الله خلق هذه المدينة مرة واحدة يوم خلق الأرض والسماء ؟ ! وهل فكّر أحد من الذين رأوا باريس أن يلاحظ ان سكة حديد المترو التى تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والقصور والحدائق ، ومن فوقها أيضاً نهر السين بفروعه التى تزخر بالموج والسفين ، أقول هل لاحظ أحد من هؤلاء ان هذه الخطوط الحديدية فاقت وهى حقيقة كل ما كان يتصوره الناس عن أعمال الجن وهى خيال ؟ وهل اتجه فكر أحد من الذين يُجرِّحون باريس الى ان روّاد المكاتب وحدها ممن يسايرون الحركة العلمية فى أرجاء العالم يزيدون أضعافاً مضاعفة على رواد الملاهى والملاعب والمشارب ، فى حين ان نعيم الحواس له عند أهل باريس قيمته ، وان اللهو عندهم قد يُقترف وله سحره وله معناه ، وله فضله فى تلوين الحياة الانسانية بلون البشر والفتون: اذ كانوا قوماً جِدُّهم جِد وهزلهم جِد ؟

صديقى !

هذا باريس ! ولا أقول : هذه باريس !

فان كانت عندك ذخيرة من المال فتعال أعلمك كيف يضع الرجل درهمه فى سبيل المجد والشرف ، وكيف يستطيع أن يستقى ماء الحياة من منبع الحياة ، فهنا معاهد العلوم والفنون

والآداب . وان كنت تريد أن تضيع مالك فى الفولى بيرجير والمولان روج فانى أوصيك بتقويم عزمك وتهذيب نفسك لتبقى لك نعمة المال والشباب والعرض المصون

أيها الناس !

لكم باريس ، ولى باريس ، والسلام

الطلبة عندنا وعندهم

الطلبة فى جامعة باريس يشبهون إخوانهم فى الجامعة المصريه في كثير من الوجوه، وهم جميعا شياطين : فحيثما جلست فسهام ونشاب تخف لها الأحلام وتطيش العقول ، وأكثر ما تصوب القذائف إلى الفتيات اللاتى يتلقينها فى جذل وابتسام

وأظرف ما أذكر من حوادث الطلبة في الجامعة المصرية كان فى قصر الزعفران سنة ١٩٢٦ حيث نثر الطلبة مسحوق الفلفل بين المقاعد ، وكان الدكتور طه حسين يحاضر فى انتحال الشعر الجاهلى وكنت بجانبه ، فلم تصبنا ولله الحمد شظية من شظايا الفلفل ، غير أن صديقنا الأستاذ الهياوى كان قد حضر ليعرف إلى أي حد كان انتحال الشعر الجاهلى ! فجلس بين الطلبة وهو أقصر منهم ، ويظهر أن خياشيمه كانت ضعيفة فأخذ يعطس وحده باستمرار ساعة كاملة ، وأنا أشهد صابرا ما يقاسيه المسكين من خطر العاطوس المجهول . . ! فإن تذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه عطس مرة فى الجامعة المصرية فليعرف الآن أن ذلك لم يكن مصدره البرد ، وإنما كان مصدره الفلفل المسحوق . وليس بسر ما أذعته أوعطسته على أكثر من مائتين ! — أليس كذلك ؟

ويل الشجى من الخلى

الأستاذ (د) مدير معهد . . . فى باريس رجل فصيح المنطق، رائع الهندام . أحسن مايكون إذا خطب أو حاضر، وهو لا يُلقى محاضراته إلا واقفاً . وله فى امتلاك قلوب من يستمعون إليه قدرة عجيبة لايمترى فيها مكابر ولا حَقُود

عرفته منذ أربعة أعوام ، وأُعجبت به ، ثم صادقته ، فلقيت فيه أكرم صاحب وأوفى صديق

وطالما سألت نفسى : ما الذى وصل بينى وبين هذا الرجل؟ أهو علمه ؟ ما أظن ، فقد كثر العلم والعلماء . أهو كلامه ؟ وكيف وكل الناس يتكلمون فى باريس ، وأهل هذه المدينة يجيدون الكلام بنوع خاص

وقد انتهيت إلى أن الذى وصل بينى وبين هذا الرجل هو إخلاصه لمهنته ، مهنة التدريس ، فقد كان يبلغ به الجِد فى محاضراته إلى أن يتوقف فجأة ويسند رأسه بيده فى مثل المغشىّ عليه ، ويظل كذلك نحو ثلاث دقائق إلى أن يعاوده صوابه ، ثم يَأخذ فى الكلام من جديد ، بعد أن يسأل ما الذى كان يقول !

وأنا قد اختبرت مهنة التدريس وعرفت حلوها ومرها، ورأيت ما يقاسى المدرسون ، وتبينت كيف تكتوى قلوب المخلصين فى هـذه المهنة العنيفة التى لم يصبر على عنائها غير الأنبياء ، فمن الحق أن أعطف على الأستاذ (د) وأن تقرب نفسى من نفسه ، وأن تتوثق بيننا أواصر المودة والاخلاص

لـكن صديقى هذا لم يكن ظريفاً إلا فى محاضراته ، فاذا خرج من حجرة الدراسة فهو انسان ضيق الصدر ، جدب الكلام ، لايجذبك إليه ، ولا يقربك منه ، وإنما هو مخلوق متوحش لا يعرف ما الأُلفة وما الإيناس .

كنت ألقاه فى مكتبه فينقبض صدرى لانقباضه ، وأستوحش لوحشته . وكنت أُقَدِّرُ أنه مريض الأمعاء . فقد شكا ذلك مرة ، لذلك كنت آسى عليه ، وأُواسيه ، وأراجعه فى بعض شئونه علّه يميل إلى أنس الحديث

وأقدم الذكريات بينى وبينه أننا تناولنا الغداء معا فى أحد المطاعم ، ثم دعانى إلى منزله ، ولـكنه اشترط علىَّ أن أحتمل بعثرة أمتعة المنزل إذا دخلته : لأنه يعيش وحده ، إذ كانت زوجته فى الريف ، فابتسمت وقلت : إننى دائما أعتذر بمثل عذرك : فان أمتعة المنزل عندى مبعثرة باستمرار ، بسبب الكتب والمطبوعات، وأنا أرجح أن منزلك مبعثر كذلك بسبب

الكتب والمطبوعات ، ثم دخلنا فاذا الكتب مبعثرة فوق البُسُط والأرائك والمناضد ، فتذكرت منزلى ، وحمدت الله على تشابه حظوظ الأدباء والمدرسين

وأذكر أنى كنت أُماشيه مرة ، فلما وصلنا إلى ميدان الأوبسرفتوار وقف بغتة وقال : هذه سيارتى ! ويظهر أن ابنى جاء لتوصيل إحدى صويحباته ! فلنقف لحظة حتى يعود لنرى ماذا يصنع الخبيث !

فقلت : ياسيدى ! إن الطبيعة تعمل عملها ونحن غافلون فامض بنا وخلّ ابنك يفعل ما يشاء الشباب !

فقال : ولكن الطبيعة ليست فى حاجة إلى سيارتى لتعمل عملها ، وقد كانت الطبيعة تفعل ماتفعل قبل أن تخلق السيارات وأنا منتظر حتى يعود ذلك الغوىّ المبين !

فقلت : أرجوك ، ليس من الذوق أن تجرح ابنك فى ساعة حب ، فلنمض بسلام

وأغرب ما مرّ بى متصلا به أن ألقى علىَّ أَحد الطلبة هذا السؤال : أنت كثير الاتصال بالمسيو (د) فهل صحيح انه يضرب زوجته ؟ فدهشت وقلت : حتى الطلبة فى باريس يتقوّلون على أساتذتهم ويخلقون لهم أقاصيص ! إنه لمدهش أن أسمع أن أستاذا فرنسيا يُتَّهم بضرب زوجته ، وكنت أعرف أن

الفرنسيين عبيد نسائهم ، وانه إذا ساءت أخلاق أحد الزوجين فلا مفرّ من أن تكون الزوجة هى الجانية !

وكان زملاء المسيو (د) قلما يرضون عنه ، ويرون فيه رجلا مَزْهُوًّا قليل الرعاية لحقوق الزملاء ، وكنت أعتذر عنه

وقد لاحظت أن المسيو (د) لايذكر المرأة فى محاضراته إلا بشر ، ولا يرى إلا أنها مخلوق سخيف ، فكنت أفترض أن صلته بزوجته لاتخلو من اضطراب

***

لقيت هذا الصديق منذ أشهر فدعوته إلى تناول الغداء فى مطعم الجامع ، فأخذ يعتذر ، فقلت ألا تزال زوجتك غائبة ؟ فقال : لا ، ولكنها سبب ارتباكى . فقلت : كيف ؟ فأجاب : حالتها الوجدانية

فأخذت أسائل نفسى : ما معنى كلمة (وجدانية) فى هذا الحديث ؟ أتكون كلمة (سَنْتيمَنْتَال) مرادفة لكلمة (مَلاد) ؟ أيحتمل أن تكون هذه من دقائق اللغة الفرنسية التى لا يزال يفوتنى منها شئ بعد دراسة عشرين عاما ؟

ثم جاءت أيام قدمنى فيها إلى زوجته ، فإذا هى امرأة فى حكم المريضة ، وليس لها ما تشكو منه غير ضعف الأعصاب

وتواترت بيننا الدعوات والزيارات ، وتبادلنا علائم المودة بغير حساب . وكنت كلما ذهبت لزيارتهم بعد العصر احتجزونى بالقوة لتناول العشاء .

وكان المسيو (د) يتبسط معى فى الحديث ، فيسامرنى فى كل شئ ، وكان يُدهشنى أن أرى معايب الفرنسيين مشابهة لمعايب المصريين فى كثير من الوجوه ، فقد كان يذكر أن الحكومة الفرنسية لا تهتم باستشارة أهل الخبرة ، وان علماء فرنسا لا تنتفع بهم حكومتهم إلا إذا ماتوا ، أو طعنوا فى السن وأصبحوا فى حكم الفانين

وكانت زوجته تشاركنا فى السمر ، فرأيت الفرق بين عقليهما بعيداً ، ورأيتها مع ضعفها تسيطر عليه ، وهو يداجيها ويماريها ويتلمَّس لرضاها ألوانا من متكلف الأسباب

***

ثم جاءت أَسابيع شُغِلْتُ فيها عن هذين الصديقين ، وانتظرت أن يسألا عنى ، ولكن هيهات ! فإنى لم أتلق منهما رسالة ولا دعوة تليفونية . فقلت : لا بأس ، هكذا يكون الفرنسيون ، وكذلك يكون وفاء الأصدقاء !

وجاء عيد رأس السنة ، فقلت فى نفسى : أليس من البر أن أذهب فأترك بطاقة الزيارة فى منزل المسيو (د) بالرغم من

إعراضه وتغاضيه ؟ وترددت قليلا ، ثم أقدمت ، وبعد لحظات كنت هناك

طرقت الباب ففتحته المدام (د) وهى ملوثة اليدين مشوشة الأثواب. فتراجعت وقلت : عفواً ياسيدتى ، إنى أعفيك من استقبالى ، فان البوادر تدل على أنك فى شغل ، وإليك بطاقتى إلى زوجك العزيز

فقالت : انتظر ، انتظر . وأسرعت فغسلت يديها ، وأصلحت من هندامها ، وعادت فصافحتنى وجذبتنى إلى غرفة الاستقبال

— ما الذى حجبك عنا طول هذه المدة ؟

— إن مولاتى تعرف انى مشغول ، وقد زادت أعمالى تعقداً فى الأسابيع الأخيرة .

— ولكن أما كنت تستطيع أن تكتب إلينا كلمة ، أو تحادثنا فى التليفون ؟

— كان هذا واجبا عليكم يامدام. فأنتم اثنان وأنا وحيد ، وأنتم فى وطنكم وأنا غريب

وبعد هذه المحاورة القصيرة سكتت تلك السيدة لحظة ثم قالت : أصحيح أنك انقطعت عنا بسبب أعمالك ؟ ألم يشر إليك المسيو (د) بأن لاتجىء ؟

فقلت : كيف يشير إلىَّ بأن لا أجىء ، وكنت ولا أزال من أكرم الأصدقاء ؟

فقالت : هل ذهبت اليه فى معهد . . بعد أن زرتنا آخر مرة ؟قلت : لا .

وما هى إلا لمحة حتى اغبرّ وجه المسكينة وقالت :

—هل تعرف أن المسيو (د) يفكر فى الطلاق ؟

—أبداً ياسيدتى ، لا أعرف ، وهذا نبأمزعج ، كتب الله لكما الوفاق !

وهنا اندفعت السيدة تبكى بأحر من بكاء الأطفال ، وانقبض صدرى لهول المنظر ، وأخذت ألهيها عن بكائها بسؤالها عن الأسباب

—الأسباب؟ أتريد أن تعرف الأسباب ؟

إن الأسباب كلها ترجع إلى نقطة واحدة هى أن صديقك (د) له صَبَوَات وقد شارف الخمسين ! هناك نساء ملعونات أفسدن ما بينى وبينه وحملنه علي التفكير فى الفراق . كانت تتردد علينا أرملة على شىء من الوسامة ، وكانت تدلله وتناغيه فى حضورى . فليت شعرى ماذا كانت تصنع فى مغيبي ! وأنا امرأة يتهمنى من يعرفنى بأنى لا أعرف العصر الحاضر ، ولا أفهم تقاليد الجيل الجديد

فانتهزت هذه الفرصة وتدخلت فى الحديث على أشغل المسكينة عن دمعها المسكوب وقلت :

ولكن ياسيدتى ماهو العصر الحاضر؟ وماهو الجيل الجديد؟ الناس هم الناس ، وفضل المرأة هو هو لم يتغير . ولا يُطلب من الزوجة إلا أن تكون أمينة وفية ، وأنت فيما أعتقد مثال الأمانة والوفاء

فقالت : لا . ليس هذا هو المهم ! المرأة العصرية فى فرنسا هى التى تعرف كيف تسوس زوجها ، والزوج لايُسَاس فى هذا الجيل إلا إن ترك له الحبل على الغارب ، وخلَّته امرأته حراً يذهب أنَّى شاء ، ويصاحب من شاء . وهذا شىء يثير جنونى ، ولا أكاد أحتمل التفكير فيه . وكان من العدل أن يمنحنى صديقك (د) ما يمنح نفسه من حقوق الغيرة ، فانه لم يسمح لى أن أرقص مع رجل واحد أكثر من مرة ، فمن حقى أن لا أسمح له بمراقصة امرأة واحدة أكثر من مرة ! وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد كان يشجعنى على الإقامة فى الريف ويقول : إن صحتك فى حاجة الى الهواء الطلق ! وكنت أعرف أنه هو الذى يفكر فى الهواء الطلق فى باريس ، والهواء لايكون طَلْقاً فى باريس إلا لمن يعيش بعيداً عن زوجته ، ليتنفس كيف شاء ، وينطلق حيث يريد ! ألم يحدثك عن شىء من ذلك ؟ قل ،

أرجوك ، لا تكتم شيئاً ، فقد ارتفعت بينكما الكلفة ، وانى لواثقة أنك تعرف مالا أعرف من سره الدفين !

فأقسمت لها — فى صدق — أننى لم أر منه شيئاً غير التألم لمرض زوجته

فقالت : وهل تعرف لماذا كنت مريضة ؟ قلت : لا ، قالت : إن صديقك (د) لم يألف الجلوس فى القهوات ، ولم يتعود التفرُّج فى البساتين ، ومع ذلك كانت أوقات فراغة تُقضى خارج منزله ، فأين كان يقضيها الخائن أليس كان يقضيها فى صبَوَاته ونزَواته مع أمثال تلك الأرملة الملعونة التى أفسدته على أهله وفتحت لنا باب الشقاء ؟

***

أشرت فى صدر هذا المقال إلى أن المسيو (د) له ابن ، وأن ذلك الابن كان ينتفع بسيارة أبيه فى نزوات شبابه ، وكنت عرفت بعد ذلك أنه مقيم فى بلجيكا وأنه موظف فى شركة هافاس . وقد رأيت أن أثير فى نفس الزوجة عاطفة الأمومة فقلت :

أليس لكما أولاد ؟ فانى أعرِف أن الأولاد يصلون بين قلوب الزوجين برباط وثيق .

فقالت : لنا ابن واحد ، ولكنه فارقنا منذ زمان

فقلت : كيف ، ولأى سبب ؟

فقالت : لم يستطع ولدنا أن يكون تلميذا نجيبا ، وأنت تعرف أن صديقك (د) من طبقة البورجواز : فمن الصعب عليه أن يرى ابنه ينفر من اللاتينى واليونانى ، ويُحْرَم من مستقبل الأُستاذية . وأسرته كلها أساتذة مثقفون . وكم تألمت من قسوة الأب على ابنه ، فان ولدنا لم يكن لديه أى استعداد للأُستاذية ، وكانت طبيعته منصرفة إلى الزراعة وحياة الريف وفى جميع المرات التى كنا نذهب فيها إلى الأقاليم كان ولدنا يأنس بالمواشى والدواب ، وآلات الحرث والسقى ، ويطيب له المقام بين الفلاحين . وكنت أحب أن أشجع فيه هذا الميل ، ولكن والده كان يتأفف و يتألم من انصرافه إلى الفلاحة ، ويهمُّ بزجْرِه وإيذائه ، حتى ضاق صدره وأصبحت حياته بيننا أشبه شىء بحياة المسجون . ومنذ أعوام ذهب لتأدية الخدمة العسكرية فلما عاد وجدناه قد أَلِفَ المطالعة والتهام مافى الكتب من الشئون العلمية والأدبية ، ورأى أن يعمل فى بعض المكاتب الكبيرة ، حيث تنفع هذه الموهبة ، فإنّ هناك ناسا يذهبون إلى المكاتب بدون أن يعرفوا ماذا يقرءون ، فيكون وجود مثل هذا الشاب مصدر ثرْوة للمكاتب التى تحتاج إلى من يُعَرِّف رُوّادها

ماهى أهم الكتب ومن هم أشهر المؤلفين

ولكن ذلك لم يغن عند صديقك (د) فأخذ يؤذى ولده ويضيق عليه ويحرمه من ارتياد الملاهى ، بحيث كان المسكين لا يعرف كيف يقضى سهرته . فكان يذهب إلى عمته يحادثها لحظات ثم يعود قبل الساعة العاشرة ، وأنت تعرف أثر هذا الضيق فى حياة الشبان . وكذلك خلاّنا وهرب ليعمل فى مدينة غير هذه المدينة ، وبلاد غير هذه البلاد !

* * *

ثم عادت السيدة إلى بكائها وعويلها فقلت لها : صبراً ! فقالت : هذه نصائح يحسنها الخليّون ! وكل خلىٍّ فصيحٌ يُحْسن القول ويجيد وصف العزاء ! لقد صممتُ على أن نعيش معا أو نموت معاً ، فله أن يساكننى فى البيت أو يجاورنى فى القبر أما أن أصير أرملة ويظفر هو بعروس تُذْهب همومه فذلك من المستحيل . ألستَ تقرأ الجرائد ؟ ألست ترى المآسى الدموية بين الأزواج ؟ إذن انتظر فستفصّل الجرائد فجيعتنا بعد قليل

قلت : أليس لكم أصدقاء يتوسطون فى فضّ الخصومة ؟

فأجابت : لا أمل فى ذلك ، فقد أصرّ صاحبنا على الفرقة ، ويكفى أن ترى كيف تخير أيام العيد لينشر خبر القطيعة بين

جميع المعارف والأصدقاء . على أننى قد فكرتُ فيما فكرتَ فيه ، وربما ذهبت إذا اقتضى الحال إلى بعض الأسرات التى نعرفها والتى تخاطبه بالكاف— «المخاطبة بالكاف اصطلاح عربى قديم يقابل (التيتواما) عند الفرنسيين »

فقلت : من عسى أن يكون هؤلاء الأصدقاء ؟ فقالت : إنهم زملاؤه . فقلت : احذرى يامدام أن تعتمدى عليهم ، فان الزملاء قلما يحب أحدهم لأخيه أن يكون له بيت معمور !

ثم خليتها وانصرفت وأنا أُردد الحديث الشريف : أبغض الحلال إلى الله الطلاق . ثم مرَّ بالخاطر بعد هنيهة ماروى عنه عليه الصلاة والسلام : الغيرة مفتاح الطلاق

وبعد قليل ترددتْ فى الفكر عبارة قالها بعض الأصدقاء الفرنسيين : (لاسبيل إلى السلام بين الزوجين إلا إذا تمتَّع كلاهما بحريته . فان كان لا بد أن يسيطر أحدهما على صاحبه فمن الخطر أن تكون السيطرة للمرأة)

وهذا هو الذى كان فى منزل الاستاذ (د) فانه لم يستطع أن يظفر بحريته ، ولم يستطع أن يبسط سلطانه على زوجته ؛ فانتهى به الأمر إلى الهرب ثم إلى الطلاق

فيا حضرات القراء : احمدوا الله على سذاجة المرأة الشرقية ، ولا تحسدوا أمثالكم فى الغرب فانهم أشقياء تعسون

٥ يناير سنة ١٩٣١

حديقة النباتات

فى باريس

حديقة النباتات فى باريس ليست للنبات وحده كما يُفهم من اسمها الفرنسى ، إنما هى حديقة النبات والحيوان . ولعل قَصْرَ اسمها على النبات راجع إلى أنها فى الأصل أقيمت لذلك ، ووُضع قسم الحيوان فيها بعد حين .

وهى من حيث الشكل جميلة الهندام . وهذا التعبير أدق ماتوصف به تلك الحديقة المهندَمة الرشيقة التى تبدو لزائرها وكأنها عروس فى ليلة الزفاف

فى تلك الحديقة أشجار مرَّتْ عليها أجيال ، وشهدتْ من تقلبات الحوادث وصروف الزمان مالم يشهده من أمثالها إلا القليل ، ومن الوجهة الفنية تُعدّ من أغنى الحدائق فى العالم : ففيها نباتات من جميع البقاع ، حتى ليخجل مثلى حين يجد فيها نباتات مصرية لم يسمع عنها ولم يرها فى بلاده ، وفيها نباتات كانت فى مصر منذ قرون ولا توجد بها الآن . ولا أكتم القارئ أنى رأيت بها نباتا لا يرحمه الفلاحون المصريون . وهو

ما نسميه « الزمّير » وهو ينبت فى مصر فى حقول القمح ويهاجمه الفلاح ، وهو عند الفرنسيين يقدم طعاما للخيل . وتعد حديقة النباتات هذه أكبر مرجع للمشتغلين بالزراعة وتنظيم الحدائق والحقول . والرجل المتطلع يقضى فيها أياما وأسابيع لايمل ولا يسأم ولا ينتهى درسه لما فيها من أنواع النباتات والأشجار والأزهار . وأمام كل حوض بيانات وافية تنفع الحريص على تعقّب مافي هذه الحديقة مما يجب درسه وفهم ماله من الخواص

أما قسم الحيوان فهو ضئيل بالنسبة إلى قسم النباتات ، ويمكن الحكم بأنه صغير جداً بالنسبة لحديقة الحيوان فى مصر ، ولا ينتظر غير ذلك : لأن الجو فى فرنسا لا يسمح بمثل ما يسمح به الجو فى مصر من الرفق بالحيوانات الأفريقيه والأسيوية . ولأجل هذا تعتبر حديقة مصر من كبريات حدائق الحيوان فى العالم .

لكن لقسم الحيوان فى حديقة النباتات فى باريس حظ ليس لأخيه الأكبر فى حديقة مصر . ذلك بأن أهل باريس يخصون حديقتهم بساعات جميلة جداً من أيام الآحاد . والساعات الجميلة تبتدئ من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة حيث يدخل الجمهور مجانا ليشاهد الحيوانات التى أَلِفتْ تقبُّل الهدايا من الزائرين ، وصارت تنتظرهم انتظار الصديق للصديق . وليس من المبالغة فى شىء أن نقول ان ساعة فى حديقة النباتات فى يوم

الأحد تعدل جيلا يقضيه الرجل منعما فى مدينة من مدن الشرق ، فالناس هنا يعرفون كيف يصيّرون حياتهم جميلة محبوبة ، لا أثر فيها للسأم والملل . فاذا رأيت ثَمّ رأيت الفتى وأخته ، أو الزوج وزوجته ، يغدون إلى الحديقة فى وجوه فرحة مستبشرة ، ومع كل فريق زاد خاص جاء به لمداعبة الحيوانات ، وقد تعودت الحيوانات هذا البر فهى تقف على أظافرها وتمد أعناقها فى رفق ودعابة لتأخذ مايقدمه إليها الرجال والنساء والأطفال .

***

للأطفال حظ عظيم جدا من المُتع البريئة أيام الآحاد فى حديقة النبات ، فهناك تقدم الجمال والحمير والبغال لركوب الأطفال ؛ والجمل مركب لطيف يُناخ فيصعد إليه الأطفال فى مَرح شديد ، ثم يقوم بهم فيتضاحكون ، ثم يمضى بهم فى أرجاء الحديقة نحو خمس دقائق ، وفى عنقه الجلاجل تمتع الراكبين والمتفرجين بصلصلتها الشائقة بين الأزهار والأشجار . وقد يناخ الجمل فيركب الأطفال ويمتنع من النهوض ، فلا يزال الجمال يلاطفه تارة ويخاشنه أخرى ، والجمل يتأبى ويتبلّد ، فإذا كلمه بالعربية نهض فى غير بطء ولا استرخاء ، وإذ ذاك يتضاحك

الناس جميعاً إذ يذكرون أن لغة طَرَفة بن العبد أحب إليه من لغة أناتول فرانس !

والعجيب الشائق أن يُرى جحش صغير جداً يقود عربة يركبها الأطفال ، وتلك أكبر مُتعة للصبية الصغار الذين لا تقع أعينهم على هذا الحيوان الأَلُوف الصبور إلا فى يوم الأحد فى حديقة النباتات ، والحمار حيوان مظلوم ، كما يقول بوفون ، يتهمه الناس بالبلادة والقبح ، مع أنه فى رأيه غاية فى اللباقة والجمال . وبهذه المناسبة أذكر أن أشهر الحمير فى العالم حمير مصر وهى غير الحمير المعروفة التى لا تُدْرك ماترى ولا تفهم ما تقول من أدعياء العلم والبيان ، إنما هى الحمير التى تمشى على أربع لا على اثنتين ، وتأكل الفول والشعير ، وكان من حظها أن اقتنت منها عريب المغنية المشهورة معشوقة ابن المدبر حماراً مصريا ظريفا كانت تطأ به راكبة أندية الوزراء والشعراء . ويظهر أنه لهذا السبب كان شوقى يركب حمارا فى الايام الخالية ، كما حدثنا فى مقدمة الشوقيات ، وكان الشيخ عبد المطلب يُرَى فى الاصائل والعشيات على ظهر حمار فى حى المغربلين . . إنه حقا لحيوان مظلوم كما يقول بوفون !

***

فى غير أيام الآحاد تكون حديقة النباتات هادئة فلا ترى فيها الألوف المؤلفة من الفتيان والفتيات والأطفال . ولكنها تظل مع ذلك مأهولة يؤمها الحريصون على العلم ، والمغرمون بالصيد بين الخمائل والأزهار ! فهنا رجل يدرس نبتة أو زهرة ، وهناك فتاة على موعد من حبيب ، وهنالك فتى ضاقت به الأرض فهو يبحث لروحه عن رفيقة مؤنسة تذهب بما فى دنياه من أسباب الكمد والغيظ . وفي هذه الناحية شاب مكدود بيده كتاب يدرسه بعناية وجهد ، وفى ذلك الجانب شاعر مغترب يدمدم ويقول :

ياجيرة السين يحيا فى مرابعكم
فتًى إلى النيل يشكو غُربة الدارِ
جَنَتْ عليه لياليه وأسلمهُ
إلى الحوادث صحبٌ غير أبرارِ

ثم تمر الساعات فى تلك الحديقة والطبيعة تفعل ما تشاء فى تكوين عواطف الانسان والحيوان والنبات ، والجماد أيضاً ، فقد يكون لهذا الوجود أسرار خفية من التآلف والاتساق لم يصل إليها الباحثون .

كل ما فى حديقة النباتات فى باريس ساحر فتان ، وفى كل

ركن من أركانها ، وحول كل حوض من أحواضها ، وفوق هضبتها العالية ، نَعِمَتْ قلوب ، وشَقِيَتْ قلوب . والحب جنة وسعير ، ونعيم وعذاب

***

لكن ما هذا القادم الجديد ؟ هذا مسجد باريس بُنى منذ أعوام قلائل أمام حديقة النباتات !

فان أُتيح لك أيها القارىء أن تظفر بصيد فى تلك الحديقة التى طال عهدها بالفِخاخ والأَشراك ، فترقَّبْ وحاذر ، فقد يقرع سمعك فى تلك اللحظة صوت غريب يصيح بالعربية الفصيحة فوق مِأذنة عالية :

الله أكبر ! الله أكبر !

اذكر هذا وتهيَّبْ عواقبه ، وتأدب مع غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب

باريس فى ١٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الأدب والحيـــاة

الى الأستاذ محمـــد السباعى

صديقى

اسمح لى أولاً أن أصارحك بأنك ظلمت نفسك وظلمت قراءك فى الكلمة التى وجّهتها إلىّ منذ أيام. ظلمت نفسك حين ظننت أنك كابن الرومى حين يقول:

مالى أرانى كأنى قد زرعت حصًى

فى عام جَدب وظهر الأرض صفوانُ

فى حين أنك لم تزرع إلا كريم البذور فى أرض خصبة مغمورة بروافد النيل. فإن كانت هناك لحظات ضَجَر تخيّل إليك أنك منسىٌّ مجهول فلا تنس أن تستعيذ بالله من شر اليأس والوسواس، وإن كنت ترى ناسا أنصفهـم دونك الزمان، فارفق بِنفسك فسيطغى النسيان على خلق كثير ويبقى اسمك فى الخالدين. وظلمت قراءك حين حسبتهم غافلين عن فضلك، وكان ينبغى أن تذكر أنك قضيت أكثر من عشرين عاما وأنت فى أقدس مكان من أنفس القراء. والواقع

أن القراء في مصر جديرون بالإعجاب : فان إحساسهم قوى جداً بروائع الفنون والآداب . ولك أن تنظر إلى رقى الصحف المصرية التى كادت تفوق الصحف الأوربية ، إذا استثنينا الصحف الانجليزية ، فإن هـذا الرقى تعاون فى إيجاده القراء والكتاب، وكان فضل القراء أكبر لأنهم أعانوا أرباب الصحف على الاتقان والتجميل . فلا تبتئس أيها الصديق الفاضل وامض فى طريقك غير هياب ، وثق أن القراء فوق مايظن المتشاءمون

* * *

وأعود فأحدثك أنى أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبيِّن لك أن القارىء والكاتب قد يتوافقان وقد يتنافران . فلا تنتظر أن يوافقك القراء جميعاً ، أو يخالفوك جميعاً ، لأنك وإياهم تستمدون حماستكم من الحياة . وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش ، وعرفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يُشْغل برواية حوادث الناس. فهل تظن أن الناس جميعاً يجب أن يستطيبوا ما تكتب فى حين لم يقدَّر لهم جميعاً أن يعيشوا كما عشت ، وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحواس !

على أنه لو كان يُنتظر من كل كاتب أن يرضى جميع القراء

لتقصفت مئات الأقلام . والعقل يفرض علينا أن نطمئن إلى أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الأهواء والميول والأذواق . فإن أزعجك أن ينصرف عنك قارىء لأنه يواجه الحياة بذوق غير ذوقك ، فثق أن هناك من يُقبل عليك وينتظر : لأنك تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك . ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقرى يجب أن يكون فى شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون . فعلى البلبل أن يغرد حيث يطيب له التغريد ، وليس عليه أن يَفتن صُمَّ الآذان ، أو غُلْف القلوب

وإنى لأقدم إليك مثالا من فهم بعض القراء للشعر البليغ وأذكر لك أن للبحترى قصيدة رائية بعث بها إلى ابن المدبر يستوهبه تحفة من تحف الجمال فى عيد المهرجان . وتلك الرائية تعدّ من نوادر قصائد البحترى ، ويطيب لى دائما أن أطوف بها كلما واجهت شعره الرنان . وقد استعرت ديوان البحترى فى هذه الأيام من أحد الأصدقاء المقيمين فى باريس . وهذا الصديق يرتفع عن القارىء العادى لأنه فى حكم المتأدبين ، ومن عادته أن يضع على هوامش الصفحات حكمه على ما يقرأ ، وهو يكتفى بكلمة (جيد) أو كلمة (سخيف)

وإليك القطعة المختارة من تلك القصيدة ، وسأخبرك عن حكمه عليها بعد ذلك :

وقد زعموا أنْ ليس يغتصب الفتى
على عزمه إلا الهديةُ والسحرُ
فان كنتَ يوماً لامحالةَ مُهدياً
ففى المهرجان الوقت إذ فاتنا الفطرُ
فان تُهد ميخائيل ترسل بتحفةٍ
تقضَّى لها العُتْبَى ويُغتفر الوِزْرُ
غَريرٌ تراءآه العيون كأنما
أضاء لها فى عُقب داجيةٍ فجرُ
ولو يَبتدى فى بضعَ عشرةَ ليلةً
من الشهر ماشكَّ امرؤٌ أنه البدرُ
إذا انصرفَتْ يوماً بعِطفيه لَفتةٌ
أو اعترضتْ من لحظهِ نظرةٌ شَزْرُ
رأيتَ هوَى قلبٍ بطيئاً نُزوعُه
وحاجة نفس ليس عن مثلها صبرُ
ومثلُك أعطى مثلَه لم يضق بهِ
ذراعاً ولم يَحْرَجْ به أو له صدرُ

على أنه قد مرَّ عمرٌ لِطيبه
ومن أعظم الآفات فى مثله العمرُ

غداً تفسد الأيام منه ولم يكن
بأول صافى الحسن غيَّرَه الدهر

ويُمنى بخطَّىْ لحيةٍ مُدلهمَّةٍ
لخدَّيهِ منها الوَيل إن ساقها قَدْرُ

تجاوزْ لنا عنه فإنك واجدٌ
به ثمنا يُغليه فى مدحك الشعر

ولا تطلب العِلاَّت فيه وترتقى
إلى حِيَل فيها لمعتذرٍ عذرُ

فقد يتغابى المرء فى عُظم مالهِ
ومن تحت بُرْدَيْه المغيرة أو عمرُو

فما رأيك فى هذا الشعر ؟ ألا ترى أنه لو تُرجم إلى اللغة الفرنسية لاستطاع أن يزاحم شعر بودلير وفرلين ؟ ومع هذا لم يعفه صاحبنا من الحكم عليه بأنه (سخيف)

وهذا السقم فى الأذواق مرجعه إلى فقر الحيوية فى أنفس بعض الناس ، وقد حدث مرة أن ثارت بينى وبين أحد المتأدبين مناقشة حول المبالغات والتهويلات التى يصادفها

القارىء فى المؤلفات العربية ، وكان رأيه أن حقائق الأدب العربى كلها خيالات ، وأن الشعراء والكتاب كانوا يصفون ما يتوهمون لا ما يشعرون . وقد ضرب المثل بالتعابير الآتية فى وصف الرسائل الإخوانية :

كتاب كتب لى أماناً من الدهر ، وهنانى أيام العمر . . . كتاب لو قرئ على الحجارة لانفجرت ، أو على الكواكب لانتثرت . . . كتاب كدت أبليه طيًّا ونشرًا ، وقبلته ألفاً ويد حامله عشراً . . . كتاب هو من الحسن روضة حَزن ، بل جنة عدن ، وفى شرح النفس ، وبسط الأنس ، برد الأكباد والقلوب ، وقميص يوسف فى أجفان يعقوب . . . . كتاب تمتعت منه بالنعيم الأبيض والعيش الأخضر ، ووكلت طرفى من سطوره بوشى مهلل ، وتاج مكلل . وأودعت سمعى من محاسنه ما أنسانى سماع الأغانى ، من مطربات الغوانى . . . كتاب كتب لى أمانا من الزمان ، وتوقيع وقع منى موقع الماء من العطشان

وقد سألت ذلك الصاحب عما يأخذه على هذه التعابير : أهو الديباجة والصياغة الفنية ؟ أم هو ما تنطوى عليه من مستور الأغراض ؟ وكان جوابه أنه لا يعقل أن تصل الرسائل إلى هذا الحد من سحر النفوس ، وأن الكتاب كالشعراء كلهم كاذبون !

ولم أجد ساعتئذ ما أقنع به صاحبى غير رسالة فرنسية كانت وصلت فى الصباح فعرضتها عليه ، فما كاد يتم قراءتها حتى اصفرّ لونه وقال : أهكذا تعيش فى باريس ؟ !

ولا أكتمك يا صديقى أن تلك الرسالة كانت تعد — لو صدقت فى الوعد — بليلة سباعية ، لولا أنها كانت من إحدى اللواتى عناهنّ من قال :

ألا إنما ليلى عصا خَيزرانةٍ
إذا غمزوها بالأكفِّ تلينُ
تمتَّعْ بها ما ساعفتْك ولا يكن
عليك شجاً فى الصدر حين تبينُ
وإن هى أعطتك اللِّيان فإنها
لآخرَ من خُلانها سَتلين
وإن حلفتْ لا ينقض النأى عهدها
فليس لمخضوب البنان يَمينُ

فلا تنس حين تبكى مصاب الإنسانية فى مصابك أن تذكر أن أخاك يقاسى أضعاف ما تقاسى أنت والإنسانية جمعاء !

*
* *

بقى ياصديقى أن أعترف لك فى صراحة وإخلاص أننى أصبحت أحقد أشد الحقد على كائنين من كائنات الحياة : وهما الأدب والمرأة

أحقد على الأدب لأنه لايستقيم له حال إلا إذا حمل صاحبه على المخاطرة فى ظَلماء الوجود ، ولن تجد فى العالم كله أديباً ذا مكانة إلا وله فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت . والقراء الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله لايؤمنون بوجود الأديب إلا إن رأوا أحشاءه تحترق بين السطور . وقد ترى أحياناً ناساً يهاجمون الأديب ويتهمونه بالخروج على التقاليد . وهؤلاء الناس لايفعلون ذلك حرصاً على الأخلاق ، وانما يقعون فى أعراض الأدباء حسداً منهم على ما رُزق النابغون من مواجهة أسرار الحياة ... ولكن ما قيمة ذلك ، وما الذى فيه من العزاء ؟ إن الأديب سيظل — ولو انتصر — كالشمعة تضىء للناس وهى تحترق

وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم أشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك ... وهى مع هذا اللؤم شر لابد منه ، لأن الحياة قضت بذلك ، وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا أو كارها إلى سلطان تلك الحية النضناض !

وقد فكرت كثيراً فى شر الأدب على أهله ، ولكننى لم أستطع الخلاص : لأنه كُتب علىّ أن أحيا من مِهنة الصحافة ومهنة التدريس . فهل ترانى أفلح إذا اقتصرت على أن أُحادث قرائى وتلامذتى فى فضل الصمت وشرح دلائل الخيرات ؟ !

وكذلك فكرت فى شر المرأة ، ولكننى كذلك لم أستطع الخلاص : لأن المرأة شُبِّهت صدقا بالشمس ، فهى تلقانا فى كل مكان ، وليس عن سحرها مَحِيد

أضف إلى ذلك يا سيد سباعى أن هنا إنسانة فى الحى — الحى اللاتينى لا الحى الحسينى — انسانة من بنات حواء ، حواء المذكورة فى التوراة والقرآن ، حواء التى نقلت أبانا آدم إلى صفوف المناكيد وأخرجته من عالم الأزهار والثمار إلى عالَم الشطة والفلفل والفول !

فبالله لاتنس أخاك حين تبكى مصاب الإنسانية ، لأن أخاك أيضا إنسان ، وهو فوق ذلك عاشق وأديب !

جواب الأستاذ السباعى

الى الدكتور زكى مبارك

ما وجدُ صادٍ بالحبال مُوثَق   بماء مزن بارد مُصفقّ
بالريح لم يكدر ولم يُرَنَّقِ   جادت به أخلاف دَجْن مُطبِق
بصخرة إن تر شمسا تُبرقِ   مادَ عليها كالزجاج الأزرقِ
صريحُ غيثٍ خالص لم يُمذقِ   إلا كوجدى بك لكن أتقى
يا فاتحا لكل باب مُغلقِ   وصَيرفيا ناقداً للمنطقِ
إن قال هذا بهْرَجٌ لم يَنفقِ   إنَّا على البعاد والتفرق
لنلتقى بالذكر إن لم نلتق

وردت علىّ رسالتك القيمة التى حاولتَ فى خلالها أن تسكن من ثائرة غضبى على المجتمع المصرى ، وتحبب إلىّ الحياة وتزينها فى نظرى

وفى الحق ياصاحبىَ انى على كل تسخُّطى وتبرُّمى وصرخاتى لا أعرف عن نفسى إن كنت فى الواقع شقيا أو سعيداً ، أو محظوظاً أو منكوداً ، وما يدرينى لعلى حين يُخيَّل إلىّ أنى أشد الناس محنة وبلاء أكون فى الحقيقة أشدهم لذة وصفاء ، ولا جَرَم

فأولى الناس بأن يكون المنعم المغتبط الفائز بالقسط الأوفر من لذات الحياة هو من كان فى طاقته ومقدوره كلما شاء أن يترفع عن سفال ماديات الحياة إلى ملكوت روحانياتها، وينتقل من عالم الحقيقة المرّة القاسية السمجة الجافية إلى عالم الخيال المملوء بمعسول الأحلام والأمانى، وكان فى كفه مفتاح مملكة السحر وما بها من فراديس الحور وملاعب الجنة... كل ذلك منطو تحت لواء الفن ومن ميراث أهله وأربابه، وهذا مصداق كلمتك التى رميت بها فى عرض رسالتك إذ قلت لى « ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقرى يجب أن يكون فى شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون، فعلى البلبل أن يغرّد وليس عليه أن يفتن صُمَّ الآذان أو غُلْفَ القلوب ».

ألا حيّا الله الفن والخيال والشعر! إنه يترك الفقر أغنى من الغنى ويدع الوحشة أشد إيناساً من الأنس، وإن هنالك من نوابغ الفنون وأئمة الآداب من إذا اشتد به البلاء لم يزده إلا غبطة وسروراً، ومن يدوم عليه الفقر حتى يودى بحياته فلا يشعر به ولا يحسه، فهو فى حلم سرمدى ذهبى فردوسى، وهو وإن توسّد التراب وداسه الناس بأقدامهم ليحس على شفتيه قبلات الحور العين معطرة نفّاحة، ويعيش فى الفكر والخيال فى حدائق وجنات مسحورة وقصور وصروح مدهشات،

وكنوز مفعمات بنفائس التحف والطرف من ماس الهند وعقيانه ، ولؤلؤ الخليج ومرجانه

وكأيٍّ من شاعر تراه أعين الناس فى أسمال وأطمار ، خاوى الوفاض ، بادى الأنفاض ، وهو من عالم الخيال فى بحبوحة يحسده عليها ملوك الأرض لو يفقهونها ولكنهم لا يفقهون . . .

كذلك يسير الفنان العبقرى بين الناس ، ظاهره شحاذ وباطنه « مليونير » مثله كالولىّ الواصل تنظر عيناه إلى الباطن فترى العجائب والغرائب ، ويطوف فى مسالك الحياة كالطائف فى حلم ، لا يشاهد مانشاهد ، ولكنه يرى ماقد حُرِّمت علينا رؤيته ، وبعد ذلك فبأى حق نعد أنفسنا أعظم منه شأنا وأحسن حالا ، وبأى حق يسوغ لأنفسنا أن نتعطف عليه بالرثاء والرحمة ألسنا نحن الأحق برحمته ورثائه . . ماذا صنعنا وماذا صنع هو ؟ لقد أخذنا الحياة بآفاتها وعلاتها . . . بأقذارها وأقذائها ، وعرف هو كيف يحوّل سخف الحياة وسماجتها لذة وطربا ، وفتنة عجبا ، ويرد أُجاجها نميرا ، وسمها إكسيرا ، وترابها عنبرا ، وحصباءها جوهرا ، وتنافرها انسجاما ، وضوضاءها أنغاما

من أجل ذلك قال (أناتول فرانس) لما مات الكاتب الروائى (فيليير دى ليل آدم) ما معناه :

— لقد مات وترك الدنيا غير آسف عليها ، مع أنه لم ينعم

قط بأدنى شيء مما يسميه الناس لذاتها وطيباتها . لقد أنشب فيه الفقر مخالبه وشد عليه قبضته فلم يك فى طاقة مخلوق أن يستنقذه من إساره . لقد قضى ثلاثين عاما يغشى حانات الليل ثم يختفى مع أول أشعة الفجر ، لقد طبعه الفقر بطابعه ، ووسمه بميسمه وصبَّه فى قالبه ، فأصبح كبعض أولئك المتشردين الذين ينامون على المقاعد العمومية بقوارع الطرق ، وكان أصفر اللون لا بريق بعينيه ، مقوس الظهر ، وعلى الرغم من كل ذلك أرانا اليوم فى حيرة من أمره لاندرى أ نكتبه فى سِجل" الأشقياء أم فى سجل" السعداء ، وجدير هو بالحسد منا أم بالرحمة والرثاء . لكأنى بطيف خياله يهبط علينا من عالم الأرواح فيقف على احدى تلك الموائد الملوثة بآثار التبغ والنبيذ فيصب عليها من أعاجيب أحلامه ذهبا وجُمانا ، وبنفسجا وأُرجوانا ، ثم يميل رأسه ناحية ويخاطبنا بصوت تهتز فى نبراته أوتار الوحى والنبوة قائلا « معشر الخلان والأخدان اغبطونى ولا ترحمونى ، فإن من البغى والعدوان أن تأسفوا على المالكين كنوز الجمال والفتنة ، ولقد كنت من أولئك ، لقد ملكت الجمال ولم أك أبصر شيئاً سواه ، أليس عجيبا أن دنيا كم هذه التى ترونها وتعيشون فيها لم تكن موجودة فى شعورى ولا فى نظرى ، وأنى لم أتنزل قط ولم أتسفل إلى محاولة مشاهدتها ؟ إنما لى عالَم باطنى أعيش فيه وأتقلب ، وتظل روحى بين أرجائه الفِيح تلهو

وتمرح فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، وقصور من الياقوت والزبرجد . . . اقرأوا كتابى المسمى « اكسير » هنالك ترون اثنين من أجمل خلق الله رجلا وامرأة مابرحا يبحثان عن كنز من الذهب حتى وجداه ، ولسوء حظهما وجداه ، فإنهما ما كادا يحوزانه حتى أسلما نفسيهما للموت الزؤام ، إذ علما أنه لا كنز هنالك يستحق أن يعيش له الإنسان فى هذه الدنيا إلا الكنز الروحانى المقدس : كنز الخيال والحكمة والجمال ، واعلموا يارعاكم الله أن الكوخ الحقير الذى كنت أعزف فيه على أوتار مِزهري المحطم كان فى الحقيقة أجل وأفخم من قصر اللوفر (بباريس) ألم يقل لنا الفيلسوف الأعظم (آرثر شوبنهور) مامعناه : « أى قصر مشيد سواء كان الحمراء أو الإيوان يدانى فى رونق الجمال وأبهة الجلال ذلك الجحر المظلم الذى كتب فيه الروائى الأكبر (سرفنتين) كتابه الخالد « دون كيشوت » » ؟

لقد كان « شوبنهور » نفسه يقتنى تمثالا من الذهب للإله « بوذا » ليذكِّره دائما بأن الثروة الحقيقية هى احتقار الثروة . لقد نلت بقوة خيالى مالم ينله أعظم ملوك الأرض فى الحقيقة ، لقد تبوأت الأرائك وقُدت الكتائب وخلقت لنفسى سيرة كأعجب القصص والأساطير ، وقد بلغ من فرط امتزاج احلامى باليقظة واندماجها فى الحقيقة انه يستحيل فصل إحداها من

الأخرى ، سلام عليكم ، لقد عشت أنخم العالمين شأناً وأعظمهم أبهة وسلطانا »

عليك رضوان الله أيها الخيال الطائف! لقد آثرت الروح على الجسد وانصرفت غن المادة الى الخيال ، فاخترت الأسنى على الأدنى ،واصطفيت الطيب على الخبيث ، فليقل الأغنياء والأقوياء ما شاءوا ، انه لا نعيم أكبر مما يلقاه الذين يضحّون فى سبيل حب عظيم ، ولقد أحببت الفن والفكر فوق كل ما عـداهما ، وكان جزاؤك ألذ الأضاليل والأوهام، وأبهج الخدع والأحلام ، والحب العظيم والعشق الخالص قلما يكون مجدبا عقيما إنما يكون مصحوبا بأشهى الثمرات . لقـد زين الخيال فراغ روحك السامية وفضاء نفسك المنفردة العظيمة بأبدع متحف من الصور والأشباح

***

هنا يقف بى القلم .وفى مجال آخر أخاطبك فى شأن الباريزية التى زعمت أنك مولع بها الآن . لا أخلى الله لك مهجةً من لوعة ، ولا مقلةً من دمعة . والسلام

حياة العمال فى باريس

يفد الناس على باريس من جميع أقطار العالم فيعجبون لما فيها من القصور الشواهق ، والميادين الفِيح ، والبروج الشوامخ . ويزيد عجبهم كلما توغلوا فى أرجائها فرأوا التماثيل العديدة التى تزخر بها الحدائق والمتاحف والميادين ، ويقفون حيارى ذاهلين أمام السكك الحديدية التى تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والشوارع ونهر السين . ويكادُ يظن زوار باريس أنها هكذا خُلقت ، وأن الباريسيين قوم أنعم الله عليهم بهذه المدينة العجيبة التى لم يُخلق مثلُها فى البلاد ، وكأنه لم يَشْق فى بنائها ساعدٌ ولم يعرق جبين

والواقع أن من الباريسيين أنفسهم من لم يفكر لحظة واحدة فى ماضى باريس وحاضر باريس : فالأجانب معذورون إذا فاتهم أن يتأملوا ما تكلفت هذه المدينة الخالدة من المصاعب والمشاقّ حتى صارت مضرب المثل فى العظمة والجمال

باريس هذه التى فتَنت من فتنت ، وأضلّت من أضلّت ، وهدَتْ من هدت ، مدينةٌ لشعب عظيم هو شعب العمال ، وكلمة عامل التى تبدو متواضعة صغيرة هى السر كل السر فى مجد باريس . واذا كان فى مصر والشرق من لا يقدر قيمة العامل فمرجع ذلك

أن المصريين والشرقيين مضت عليهم أحقاب وهم يعيشون فى ظلال ما ترك الآباء والأجداد . أما الباريسيون فهم يعلمون حق العلم أنهم بنوا مدينتهم بأيديهم ، وأن باريس قبل قرنين اثنين لم تكن إلا مدينة صغيرة قذرة تزعج النفوس وتقذى العيون ، ولولا نابليون الثالث ووزيره البارون هوسمان لما استطاعت باريس أن تستطيل على لندن وبرلين

العمال فى باريس شعب قائم بذاته ، له وطنه وتقاليده ولغته وزِيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة . والذين يعيشون فى باريس عيشة سطحية خالية من التأمل والدرس والتفكير العميق يحسبون أن الباريسيين هم أصحاب المطاعم والقهوات ، وطلبة المدارس والمعاهد والكليات ، ويظنون أن اللغة التى يقرءون بها الكتب والجرائد والمجلات ، ويسمعون بها الخطب والمحاضرات ، ويتفاهمون بها فى صالات الرقص ومسارح التمثيل ، هى اللغة الفرنسية للشعب كله من جميع الطبقات . وذلك خطأ مبين

إذا مشيت فى باريس ولمحت رجلا مجعّد الوجه قذر الثياب وفى يده (بيبه) يتذوق أنفاسها ، وعليه أمارات القلق والذهول ، وقد أسند ظهره إلى الحائط ينتظر عودة زميله من الحانة حتى يستأنفا جهدهما الشاق الموصول ، فاعلم أن هذا إنسان يشاركك فى بعض معانى الحياة ، ويخالفك فى أشياء كثيرة جداً أقلها أن

فضله عليك أعظم من فضلك عليه ، وأنه أعرف بواجبه ، وأحرص على درهمه ، وأملك لحرفته ، وأسلك فى سُبُل الحياة من كثير من أدعياء اللباقة والكياسة والتدبير

واذا ركبت المترو يوم الأحد وجاورك شاب أنيق اللباس ، حسن الهندام ، مصقول الوجه والعارضين ، يتموّج شعره فوق رأسه كأنه الجدائل الذهبية ، وفى يده سيجارة يداعب أنفاسها من حين الى حين ، وإلى جانبه فتاة هيفاء ، كحيلة الطرف ، أسيلة الخد مشرقة الجبين ، تميل عليه لحظة بعد لحظة فتكاد تحرقه بقبلاتها الملتهبة ، والناس من حولهما ينظرون راضين معجبين ، اذا رأيت ذلك الشاب الناعم المترف الجميل ، فحذارِ أن تجزم بأنه تلميذ فى مدرسة ثانوية أو طالب فى مدرسة عالية ، فقد يكون فى أكثر الأحيان عاملا صغيراً جداً خلَّى ثياب العمل فى ركن من أركان غرفته ، ثم أخذ زينته ليوم الأحد ، وخرج يتلمس أسباب الأنس والحظ فى مدينة الجمال

العمال هم الذين خلقوا باريس . ولكنى أعيذك أيها القارىء أن تظن أن معنى ذلك أنهم نهضوا بمبانيها العظيمة ، وشقوا طرقها الواسعة ، لا غير ، لا تحسب ذلك فأنا أريد أنهم خلقوا باريس فى كل معانيها ، فهى مدينةٌ لهم فى كل شىء : فالحرية السياسية التى يتمتع بها الشعب الفرنسى كله يرجع الفضل فيها

إلى عمال باريس ، فهم الذين أشعلوا جميع الثورات بلا استثناء ، ولا نعرف فى فرنسا ثورة صغيرة أو كبيرة لم يكن العمال هم الذين شبّوا ضرامها وقدموا لها من أنفسهم وأموالهم وعزائمهم ما تتطلب من الوقود . وكانت باريس فى جميع أدوار تاريخها السياسى مصدر النهضات القومية والدستورية ، وكان عمال باريس عماد الحركات الثورية جميعها ، وكان تأثيرهم يمتد فتهيج لهياجهم ليون ومرسيليا وبوردو ، من بين المدن والحواضر الفرنسية

قلت إن العامل الفرنسى له وطنه وتقاليده ولغته وزِيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة ، وأنا أقدر أن من القراء فى مصر من يدهش لذلك ، والحقيقة أن العمال الباريسيين لهم أحياء بل مدن خاصة بهم فى ضواحى باريس ، ويندر من بينهم من يسكن المدينة بسبب الغلاء الفاحش الذى يهدد أكثرية السكان ، ولهم تقاليدهم ، ولهم لغة تكاد تكون مستقلة عن اللغة الفصيحة ، والبون شاسع جدا بين لهجات العمال ولهجات الطلبة مثلا ، إلى حد أنهم قد لا يستطيعون التفاهم فى بعض الأحيان . ونحن نظن فى مصر أن اللغة العامية بعيدة من اللغة الفصيحة ، فليفهم من يريد أن يفهم أن لغة الجماهير العاملة فى فرنسا أبعد من لغة الطبقات المستنيرة بعداً هائلا لا يمكن أن يقارن بما بين اللغة الدارجة واللغة الفصيحة فى مصر من الفروق . وفى مدن العمال الباريسيين أوساط غريبة

يدهش المصريين أن يعرفوا أخبارها ، فنحن فى مصر لا نسمح لمن يحضر الروايات التمثيلية بأن يتدخل مع الممثلين ، بل يغيظنا من يكرر « آه » أو « الله » ونعد ذلك من ضروب الفضول والانحطاط ، ولكنى حضرت فى (بل فيل) إحدى مدن العمال رواية رأيت فيها المتفرجين يشاركون الممثلين فى الغناء كلما مرّ بالمسرح ما يحمل الممثل على الغناء ، ورأيت المتفرجين يستعيدون الممثلين بعض القطع الوجدانية ، ويزيدون أحيانا فيقولون للمثل أصبت أو أخطأت ، حسبما يقتضى الذوق عند أولئك المتمدنين المتوحشين !

ومن جانب الحياة قد يرضى العامل الباريسى بما لا يرضى به العامل الصعيدى فى مصر : فقد أخبرنى أحد الأساتذة الكبار أن لديه بيانات وافية عن حياة العمال ، من بعضها أنه قد يسكن الغرفة الواحدة اثنا عشر شخصا ، وهم مع ذلك فى صحة جيدة ، كما قال ، ومنهم من يكتفى بأكلة واحدة لليله ونهاره ، ومنهم من لا يعرف أين تكون الحمامات ، ومنهم من لا يخلع الثوب حتى يبلى ، وهم جميعا مع هذا البؤس يذهبون إلى أعمالهم فى الساعة السادسة صباحا ويعودون فى الثامنة مساء

ولعل السر فى أن العامل الباريسى لا تفنيه الأيام بسرعة مع هذه البأساء أنه من بين عمال العالم كثير الدعابة والمجون : إنه يسخر

من كل شى ، ويستهين بكل شىء . وكأس واحدة كافية لأن تذهب بأشجانه وأحزانه وتسلمه إلى الجذل والمرح والجنون . ولا يكاد العمال الباريسيون يلتقون فى مطعم أو حانة حتى يتبادلوا الطُّرف والنكت فى هزل ساخر جذاب لا يبقى ولا يذر من أسباب اليأس والقنوط . ولو فقد العمال الباريسيون جنونهم لحظة واحدة لأفناهم التعقل والتأمل وقضى عليهم الإدراك. وما أحسب الجنون كان نعمة إلا فى مثل هذه الأحوال ، وعند أمثال هؤلاء الناس

ورجال فرنسا اليوم يعرفون حال العامل الباريسي وبؤسه وشقاءه . ومن أجل هـذا أكثروا من المكاتب والمتنزهات فى أحياء العمال ، وقد لوحظ أن العمال يقرءون بشره عظيم . ومنهم من يستعير من مكتبـة الحى الذى يقيم به كتابين فى كل يوم . ولوحظ أيضاً أن العمال يقبلون بنوع خاص على المؤلفات العظيمة المحترمة ، وقد يكون حالهم أفضل من حال بعض الطلبة المصريين الذين لا يستعيرون من المكاتب العامة غير روايات الهزل والمجون

وعمال باريس يمتازون بالصبر والجلد والارتياب من الناس : فقد يصعب أن يصل الباحث الى شيء من مكنونات أنفسهم ، ويقل فيهم من يعطى اسمه ولقبه حتى فى بعض الشؤون الرسمية . وسرُّ ذلك أنهم يحقدون على الأغنياء وأرباب الأموال. وليس فيهم من يحب عمـله إلا العامل الذى تبيح له طبيعة العمل أن يذكى

مواهبه ويعطى شيئاً من نفسه كالنجارة والحدادة وصنع الساعات.
أما العامل الذى يقوم بنقل الأحمال والأثقال ، وشق الطرق ، ورصف الميادين ، فهو فى الأغلب رجل مبتئس متبرّم بالحياة ، يحمله الضجر على بغض ما تمسه يده ، وتراه عينه ، من مختلف الأشياء .

باريس فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠

المخاطرة

إن داء المصريين والشرقيين أنهم لا ينتقلون إلا إذا كانت خطواتهم مضمونة النفع ، مأمونة العواقب . مع أن المجد من نصيب المخاطرين

وفى رأيي أن الرجل الذى يخاطر فيخفق خير من الرجل الذى يخاطر فينجح : لأن الاخفاق أدعى إلى تقويم الرجال وإرهاف العزائم من النجاح . . . والمال والكسب من الحظوظ الثانوية فى ميادين النضال

على أن الرجل المخاطر إن أخفق اليوم فسينجح غداً . والعاقبة للصابرين

مرسيليا

مرسيليا مدينة عظيمة من كبريات المدن التى شهدت فجر المدنية على البحر الابيض المتوسط ، ولا يعرف جلالها وعظمتها وكبرياءها غير القادم اليها من البحر ؛ أما الذى يصل اليها عن طريق البر فلا يكاد يرى من جمالها إلا القليل

يبحر المسافر من الاسكندرية فيقضى فى البحر أربعة أيام أو خمسة أيام ، تبعاً لاختلاف السفن البخارية فى المقدرة على العبور ، وفى تلك الأيام يكون المسافر قد عرف كل شىء من بأساء الحياة ولينها ، فهى أيام معدودة ولكنها فى طولها أعوام : ففيها بؤس ونعيم ، وسعادة وشقاء . ولعل أغرب مافيها — بعد قسوة الرياح والأعاصير وما ينتاب المسافرين من مرض البحر المزعج الثقيل الذى أعيا الاطباء — لعل أغرب مافيها حوادث الحب والوجد والاشتياق . وكم لُمت شوقى على أن قال :

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

لمته على هذا البيت : لانه جعل حوادث الحب أشبه بالمناظر السينمائية : تتجمع وتتفرق فى سرعة البرق ، مع أن الحب كسائر الأمراض له أدوار مختلفة يعالجها المصاب رويداً رويدا الى أن يعز

الشفاء ، فلما عرفت البحر واصطدمت بأيامه ولياليه فهمت لأول مرة سنة ١٩٢٧ أن الحب قد يستكمل طفولته وحداثته وشبابه فى أربعة أيام ، وأن اللحظة الواحدة قد تقدر بأعوام ، وأن يوما فى البحر كألف سنة على البر عند من شهدوا الحياتين وعرفوا ما بينهما من شتى الفروق

البحر مهما طابت أيامه وصفت لياليه سجن موحش يرهق المسافرين بما فيه من مظاهر التكلف والتوقر فى بيئة مرغمة على مراعاة طائفة كبيرة من مختلف التقاليد ، والبواخر سجون متحركة تطفو على وجه الماء ، والمسافر يعد اللحظات ويسأل نفسه بعد كل غداة وكل عشى : متى أصل ؟ متى أصل ؟ فسفره هو الليل ، ووصوله هو الصباح ، وقلقه أشد من قلق حندج المرى حين قال :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايلهُ

والليل قد مزقت عنه السرابيلُ

والقطع المتناثرة من الجزائر التى تصادفه فى الطريق لا تذهب وحشته إلا قليلا ، ثم تغيب وكأنها لمعات البرق فى الليلة الظلماء ، ولا يكاد يقترب المسافر من مرسيليا حتى يبعث روحه وتغازله الحياة من جديد ، وفرح المسافر بمرسيليا يشبه فرح كريستوف كولومب حين وقعت عينه بعد اليأس على شواطىء أمريكا فصاح صيحة الجنون : أرض ! أرض !

إى والله ! هذه مرسيليا ! وهذا شاتوديف ! وهذه نوتردام دى لا جارد !

ويتجمع المسافرون ، وقد خرجوا من أبراجهم وأقفاصهم ، فلا يزالون ينهبون بأعينهم وأنفسهم أعلام مرسيليا نحو ساعتين كاملتين وهم فى هرج ومرج يستعدون لمصافحة الشاطئ الأمين . وفى تلك اللحظة المرحة يتلفت الرفيق إلى رفيقه ، ويتلفت الفتى إلى الفتاة التى بددت من نفسه ظلمات الوحشة فى سجن البحر ، فيتبادلون التحيات ويقيدون العناوين ويتساءلون متى يكون التلاقى إذا فرقهم الميناء . كل هذا يجرى تجاه مرسيليا التى لا يعلم إلا الله كم استقبلت من ضيف ، وكم هدت من حائر ، وكم آوت من شريد . ولو نطق الجماد لصاحت تلك الصخور : ادخلوها بسلام آمنين !

* * *

لا يعرف أحد متى أنشئت مرسيليا فهى مدينة قديمة جدا غابت أيامها الأولى فى ظلمات التاريخ . وإنما يعرف المؤرخون أن الفينيقيين كانوا قد احتلوها منذ نحو خمسة وعشرين قرنا . والفينيقيون قوم أسيويون كانوا انجليز زمانهم ، جابوا القفار ، وخاضوا البحار وأنشأوا ما أنشأوا من المدن فى الشرق والغرب ، وكان لهم فى العالم القديم سلطان عظيم . ثم احتلها اليونان بعد ذلك وسادوا فيها

نحو ستة قرون ، وكانت اللغة اليونانية لغة المرسيليين مدة طويلة وكانت عادات اليونان وتقاليدهم وثقافتهم هى السائدة هناك

وقد اهتم الباحثون طويلا بمعرفة ما بقى من آثار الفينيقيين واليونان فى تلك المدينة ، ولكنهم لم يعثروا على شىء يستحق الذكر . ذلك بأن الفينيقيين كانوا يهتمون أولاً وقبل كل شىء بالتجارة : فلهذا لم يعرف لهم فى تلك المدينة آثار باقية كالآثار التى تتركها الأمم فيما احتلت من البلاد . أما اليونان فأمرهم أعجب لأنهم لم يتركوا فى مرسيليا أثراً واحداً من الآثار العجيبة التى عُرفت بهم وعرفوا بها منذ أجيال . غير أن الآثار المادية ليست شيئاً بجانب ما تركوا فيها من الآثار الأدبية . وإليك بعض البيان :

لاتزال مرسيليا إلى اليوم محتلة احتلالا اجتماعيا بطوائف كثيرة من الجالية اليونانية ، فالحلاقون مثلا فى مرسيليا كلهم من اليونان ، والصيادون كذلك يونان ، وأكثر البحارة من اليونان ، ولهجة المارسيليين الذين يحترفون المهن البحرية كالصيد والنقل وعمل السفن تحتوى على كلمات كثيرة ترجع فى أصولها مباشرة الى اللغة اليونانية . والأدِلاَّء الذين يهدون المسافرين كلهم يونان ، واللاهون الذين يعينون على بعض حوادث الليل أكثرهم يونان ، وأصحاب الحانات والقهوات الصغيرة والعظيمة يرجعون الى أصول يونانية . وعلى الجملة أهل مرسيليا فى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية

مصبوغون بصبغة يونانية فى الغالب . ويرجح الباحثون أن ميل المرسيليين إلى اللهو واللعب والاستهتار والإباحة يرجع فى الاصل إلى أنهم ورثوا عن اليونان عبادة اللذات وتقديس الشهوات وتفدية الجمال

وقدورث المرسيليون عن اليونان حب المبالغة والمغالاة بنوع خاص . وما كتبه الفرنسيون عن مرسيليا مملوء بالنكت المستطرفة عن مبالغة المرسيليين . وإلى القارىء هذا الشاهد الطريف :

وقف مرسيلى على الشاطىء يتصيد الأسماك ، ولكن صنارته كانت تجلب اليه أسماكا صغيره جداً كأطراف الأصابع ، وكان بجانبه مرسيلى آخر يشهد ما يصيد ، فقال له : ان هذه الأسماك ضئيلة وصيدها لايشعر الصائد بأية لذة

— الصائد: كيف تقول إنها ضئيلة ، وأنت لو اصطدت مثلها لحسبت نفسك من أسعد الناس

— المتفرج : أنا ؟ أنا أصطاد هذه الحقائر ؟ هيهات ! ماذا تظن ؟

— الصائد :أنت تصطاد أكبر من هذه ؟ ماذا تصطاد إذن؟

— المتفرج : أنا أصطاد أسماكا كبيرة جدا ، أنا أصطاد الحوت

— الصائد: الحوت ! الحوت ! وأى شيء هذا الحوت عندى؟ انى أتخذ الحوت أحيانا « طعما ». هل فهمت ؟

مرسيليا أعظم مدينة فرنسية بعد باريس ومع هذا يكاد الفرنسيون يعدونها أجنبية عنهم ، ويتنادرون فيما بينهم بذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : أنت فرنسى أم مرسيلى ! واذا أراد بعضهم أن يحقر أحد مواطنيه قال: ماذا تنتظر من رجل نشأ فى مرسيليا! لأن مرسيليا عندهم مجموعة أوشاب من سائر الأجناس

واهتمام المرسيليين بالفنون قليل جداً مع ان المدن الفرنسية من أغنى المدن فى هذا الباب ، وليس فيها فيما سمعت حانوت واحد لبيع العاديّات ، فهى مدينة اليوم الحاضر والساعة الراهنة ، ولا يهمها الماضى فى شىء

وأهل مرسيليا كسالى قانعون ، والفرنسيون يعللون ذلك بقربها من الشرق ، لأن الشرق عندهم مهد البطالة والفراغ !

والفرنسيون يحسدون أهل مرسيليا على شىء واحد هو طعام (البوبابيس)وقد أكلت منه مرة، والحمد لله ! وهو طعام خاص يصنع من مختلف الأسماك، وله شهرة عظيمة جدا تجلب اليه أصحاب الأذواق ، والمرسيليون يضنون أشد الضن بالبوح بأسرار هذا الطعام ، ولا يساويه فى الشهرة إلا طعام « الكاسوليه» الذى انفرد به أهل تولوز

حدثنا مرة أحد الأساتذة الفرنسيين عن طعام البوبابيس فقال : « إن الإدام الذى يسرى فيه يشبه خيوط نور القمر ! »

— وما أشهى هذا التشبيه البديع ! — وان الانسان اذا أكل البوياييس وخرج وقع أسير الحب لأول امرأة تصادفه فى الطريق ! »

وهذا صحيح من بعض الوجوه ، فاننى أذكر اننى وجدت طعام البوياييس فى نهاية اللطف ، وليس من المستغرب أن يشبَّه إدامه بخيوط نور القمر . ولكنى مع ذلك أذكر أنى أكلته ثم تركت مرسيليا خلىَّ القلب ، إلا من ذكراه !

باريس فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الشيخ عبد الباقى سرور

فى هذه المدينة وفى مثل هذه الأيام من العام الماضى ، تلقيت رسالة من صديقى الأستاذ الشيخ عبد العزيز صقر شاهين ينعى إلىّ فيها رجل العلم والفضل والنبل الشيخ عبد الباقى سرور نعيم . فألقيت الرسالة على مكتبى ، ثم عدت إليها فقرأتها مثنى وثُلاث ورُباع ، وأخذت أستنجد الدمع وأستصرخه وهو يتأبّى ويتمنع حتى عدت طُعمة للجوى اللاعج اللافح ، لا يطفئه دمع ، ولا يسكنه نحيب. ففررت من غرفتى أتلمس أسباب العزاء على شواطىء السين ، وفى الحدائق التى تزخر بجموع اللاهين واللاهيات من أهل باريس ، فلم يزدنى ذلك إلا حزنا إلى حزن ، وخيّل إلىّ أن الدنيا كلها بما فيها من لهو وضحك وعبث ومجون لا تحمل فى جوفها غير مرارة الداء الدوىّ الذى طال عناده وحار فيه الأطباء

ثم رجعت أبحث عن كلمة أودع بها ذلك الصديق الراحل فلم يُفتح علىَّ بشىء ، فطفقت أتلهى وأتعزى بالفقرات التى كتبتْ عنه فى الشورى والأهرام ، وأعجب كيف يهوى ذلك النجم وأنا مفحم لا أجد ما أقوله توديعا لضيائه الوهاج . وأخذت أروض نفسى على الصبر ، وأقنع ضميرى بان هذه طبيعة الحياه ، وأن كل حيّ الى فناء ، وأتمثل أمامى اهله وأصدقاءه وقد انصرف كل امرىء

إلى شأنه ، ولم تبق فى نفوسهم الا ذكرى تبرق حيناً وتخبو حيناً إلى أن تطويها يد النسيان ، واندفعت أعمالى الشاقة المضنية ترمينى بقوة فى هوة الشواغل اليومية . .آه . . وكدت أنسى !

غير أننى بالرغم من ضرورات الحياة الصاخبة التى كُتب علىّ فيها أن أكون جنديا لا يلقى السلاح أو يموت ، كنت أعود إلى نفسى لأمرح قليلا فى جوانبها الروحية ، وأقرأ فى ثنياتها ما أبقته يد الزمن مسطوراً فى سرائر الروح الحزين ، إذ ذاك كنت أشعر بالوحشة المزعجة التى رمانى بها القدر يوم اختطف صديقى عبد الباقى وخلاّنى من بعده أشكو فقد الصديق .

أشكو فقد الصديق !

إى والله ! فان الذين عرفوا الشيخ عبد الباقى سرور وعرفوا إلى أى حد كان ذلك الرجل النبيل يعرف حقوق الأخوة ، ويحفظ واجبات الصداقة ، يعرفون أن من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، أن يوجد له فى بره شبيه أو مثيل .

بقى أن أحدث القارىء عن السبب الذى أخرجنى من دنياى المادية ومضى بالقلم فى تقييد هذه الكلمات : ذلك انى اقتنيت منذ أيام كتابا فى أكثر من ٣٠٠ صفحة فى أجمل ورق وأنقى طبع .وهو مجموعة ما قاله رجال القانون فى تمجيد زملائهم

قتلى الحرب ، فثارت نفسى واضطربت: ألا يكون لنا أيضاً نحن شهداء؟ وهممت أكتب لجريدة الشورى كلمة عن الشهداء فهى جريدة قريبة العهد بهذا الوتر الحساس. ولكن أين هم الشهداء وأين تلك الحروب؟ . . هنا أحببت أن أربأ بنفسى عن تصور العامة من أدعياء المتحمسين ، ورأيت أن هناك أيضا ميدانا تتصاول فيه العقول لا يقل خطرا عن الميادين التى تتخاطر فيها السيوف ، وتتقاذف المدافع ، ويتفانى الجنود . فاذا استباح أحد لنفسه أن ينسى ما قدمه الشيخ عبد الباقى سرور من البلاء الحسن فى الثورة المصرية ، فسيذكر الناس جميعاً أنه كان من أنصار الرابطة الاسلامية، وأنه جاهد فى ذلك مخلصاً بقلمه ولسانه إلى أن أسلم الروح . . .

وسيقول السفهاء من الناس : وما هى الرابطة الاسلامية ؟ وسنجيب بأنها فوق ما تعلمون يا أجهل الناس بأسباب الحياة !

فسلام عليك ياعبد الباقى وعلى شمائلك الطيبة ، ورحمة الله على ودك الصادق المتين !

باريس فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٩

كوست و بيللونت

الشعب الفرنسى كله فى جميع أقطاره مشغول بالحديث عن الطيارين العظيمين كوست و بيللونت ، بمناسبة اجتيازهما الإطلانطيق : ففى جميع الجرائد والمجلات وفى المدارس وأندية الشباب والكهول وحفلات السيدات يتردد اسما هذين الطيارين مقرونين بالاحترام والإعجاب . وللفرنسيين حماسة عجيبة لهذا النصر المبين ، ويكاد فوز هذين الطيارين يطغى على جميع الانتصارات التى شهدها الفرنسيون . فان بطولة هذا العصر ترجع فى صميمها إلى الانتصارات العلمية . . وقد مضى الزمن الذى كان يعدّ فيه أسر الأعداء والنكاية بالخصوم مأثرة قومية ، وأصبحنا فى زمن لا فضل فيه لغير العقل والعلم وقوة الإرادة فى تذليل القوى الطبيعية ، وقهر آفاق السماء

لقد استمعت لطائفة من الأحاديث حول هذين الطيارين ورأيت كيف اتفقت كلمة القوم على أن شعار هذين الطيارين:

« النصر أو الموت »

ولا أكتم القارىء انى عدّلت هذه العبارة بعض التعديل فهى فيما سمعت : « الثروة أو الموت » وهم يقولون ذلك وفاقاً

للجائزة العظيمة التى كانت أعدت لمن يجتاز الاطلانطيق . وانما عدّلت هذه العبارة لأنى أحسب ان القوة الروحية اعظم دائما من القوة المادية : فهذه الثروة التى كان ينتظرها ذانك الطياران لم تكن فى معناها ومدلولها شيئا آخر غير النصر أو المجد

وهذا التعديل أقرب إلى طبيعة الشعب الفرنسى الذى يروض أبناءه على البطولة ويبث فيهم روح المثابرة والكفاح والصبر والثبات . وكل من زار البانتيون يذكر كيف وثب روحه ، وثار قلبه ، وهاجت نفسه حين وقف أمام اللوحة التاريخية التى تقول :

« الحياة الحرة أو الموت »

فقد امتاز الشعب الفرنسى بأنه يغفى ما يغفى ثم تكون صيحة واحدة كافية لإيقاظه ، ووثبته ، وفزعه إلى السيف والمدفع . وقد شقى الناس فى فهم طبيعة هذا الشعب : فهو فى أيام السلم شعب لين رخو ماجن خلع ، لا يرجى خيره ولا يتقى شره . فإذا نفخ فى الصور قامت قيامته وهبّ يناضل عن شرفه فى حماسة دونها حماسة الأسود فى الدفاع عن حرم العرين

على انه من الغفلة أن يظن أن المجد ينال بلا ثمن . هيهات ! فالفرنسيون ليسوا جميعا ظرفاء مونمارتر ومونبارناس . فهناك ألوف مؤلفة لا تعرف غير سهر الليل وكدح النهار فى تحقيق

مايعنيهم من المشاكل العلمية والأدبية والفنية ، وهناك ناس لايرون الشعر ولاالموسيقى إلا فى تلمس أسباب السماء . والمعضلة الحقيقية التى تواجه الرجل الشرقى حين يذهب إلى أوربا هى الشقاء فى فهم عبقرية هذه الشعوب الغالبة المنتصرة التى يقال لبنيها فى دروس الجغرافيا : « إفريقيا كلها محكومة بدول الغرب ، وليس فيها أمة مستقلة غير الحبشة » والشرقى يسمع ذلك ويعجب وهو لو تأمل لعرف أن السبب فى تقدم الغرب هو « حب المخاطرة » كما أن السبب فى تأخر الشرق هو انعدام روح المخاطرة . فقليل من الشرقيين من يقول : « المجد أو الموت » ولو أنهم قالوها مرة واحدة لحسب لهم ألف حساب . فحب الحياة هو باب الموت وحب الموت هو باب الحياة ، ولكن أكثر الناس لايفقهون !

والثروة التى استنكرنا أن تكون سر المخاطرة فى اجتياز الاطلانطيق هى شىء لا يستهان به ، ولكننا تعودنا التعامى عن الواقع ، فأهل أوربا وأمريكا يرون الفقر أشنع من الموت ، ويتلمسون أسباب الغنى من كل جانب ، ويكادون ينطقون الأرض والسماء ليعرفوا أسرار الكنوز التى وردت فى أساطير الأولين

ولقد أذكر انى أعطيت مرة لطلبة الثانوى فى دروس الانشاء هذه الحكمة العربية :

« القبر ولا الفقر »

فلم يفهموا مامعنى ذلك، وقال قائلهم: ان الفقر ليس بعيب، ولو رجعوا الى الواقع لرأوا الفقر مصدر العيوب، فهو الذى يذل نبلاء الأرواح، وأعزاء النفوس، وهو الذى يقعد بالرجل الشهم عما يسمو اليه من جلائل الأخطار

ولقد يذكرون أن كوست وبللونت غنما من هذه المخاطرة نحو خمسين مليونا من الفرنكات. ويذكرون انهما استغلاّ جميع الطرق فى هذا السبيل: فالاشرطة السينمائية، والصور الفتوغرافية والمحادثات مع الصحفيين، والخرافات التى أضافاها إلى سفرهما الشاقّ، كل ذلك دفع ثمنه بسخاء أىّ سخاء ممن طلبوه. وقد أسرف هذان الطياران فى استغلال هذه المخاطرة إسرافا فاحشا. ولكنه فى جملته غير بعيد من طبيعة الشعب الفرنسى، فالفرنسيون مشهورون بالحرص والتفكير فى الغد، والفرنسى من بين الناس جميعا يقدر دخله وخرجه وجميع أسباب رزقه تقديراً يتعدى خمسين عاما من أيامه المقبلة. وهو لايخطو خطوة واحدة إلا وقد حسب ما فيها من المنافع المادية. والتحية غالية عليه ان كان لاينُتظر من ورائها نفع. وعلى الجملة الرجل الفرنسى حيوان مهذب، واسع الحيلة كثير التدبير، وهو أحرص من النمل فى هذا الباب. ولقد أذكر أن الإسلام لايجرى على لسانهم إلا بالخير لأنه حرم المسكرات، ولكنهم لايفهمون كيف يمكن الإيمان بالقضاء والقدر

وكيف يصح التوكل ، ولا أدرى أنا من الذى علمهم كلمة «مكتوب» فهم يكررونها كلما بدا لهم أن يسخروا من تقاليد المسلمين !

والجانب المشرف فى اجتياز الإطلانطيق من باريس إلى نيويورك أنه محاولة فرنسية ، وأن جميع أجهزة الطيارة صنعت فى مصانع فرنسية ، وأن ذلك المشروع الذى نجح كان لطيارين يعتزان كل الاعتزاز بالقومية الفرنسية . ومن أجل هذا أُعدّ ذلك الاستقبال البهيج لذينك الطيارين فى مدينة باريس ، ففى صباح الأمس صدر منشور من حاكم المدينة يوصى فيه جميع الباريسيين أن يرفعوا أعلامهم على منازلهم ، وأن يزينوا شرفاتهم بالأزهار ، وأن يستعدوا لاستقبال أبطال الإطلانطيق بما توجبه المروءة والحماسة نحو رجلين خاطرا بحياتهما فى سبيل العلم والمدنية ، ورفعا اسم فرنسا بين شعوب العالم القديم والعالم الجديد

ومنذ الساعة العاشرة صباحا إلى الساعة الرابعة بعد الظهر كان أهالى باريس فى نشوة لا تعدلها نشوة ، فمنهم من ذهب إلى بورجيه حيث تقدم الطيارة من الهافر ، ومنهم من ذهب إلى الإيليزية حيث يظفر الطياران بترحيب رئيس الجمهورية ، ومنهم من ذهب إلى ميدان الأوتل دى فيل حيث تجرى الحفلة الرسمية . كل ذلك والمطر ينهمر ، والريح تعصف ، والباريسيون يقابلون عبوس الطبيعة ببريق الابتسام

وكان أجمل ماأُثر فى ذلك اليوم خروج الطيارين من عند رئيس الجمهورية وذهابهما مباشرة إلى قبر الجندى المجهول حيث وضعا ماأُهدى اليهما من الأزهار على ذلك القبر المعبود .

وقد لوحظ أن السيدات كن أكثر عددا من الرجال ، وهذا طبيعى فى مدينة يعد نساؤها موحيات الحماسة ، ومذكيات العزائم.

وأهديت إلى الطيارين أوسمة الشرف ، وساعات ذهبية وضعت أرقامها من الاثنى عشر حرفا التى تكون منها كلمتا (باريس نيو يورك)

وقد سمعت المتفرجين يحاور بعضهم بعضا عن الجائزة الأمريكية التى وضعت لمن يجتاز الاطلانطيق طائراً . قال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره : ان الحكومة الفرنسية لاتعطى ذهبا ولكنها تعطى أوسمة ! فتذكرت والأسى يحزّ فى القلب بعض الحكومات الشرقية التى لاتهب المخاطرين من أبنائها ذهبا ولا أوسمة !

على أننا لو قارنّا عزائم الشباب الفرنسيين بعزائم الشباب المصريين لرأينا فى المصريين شمائل توجب الزهو والاختيال؛ فالفرنسيون تشجعهم أمتهم وحكومتهم ، فى حين أن المصرى ينهض وحده بلا مشارك ولا معين ، ويقاوم المصاعب فى صبر واحتساب : يقاوم حين ينجح دسائس الحاسدين والكائدين ، ويقاوم حين يخفق شماتة الحاقدين وسخرية القاعدين ، وفى ذلك تكبير وتجسيم

للتضحيات النبيلة التى يبذلها الشباب المجتهدون فى بيئات وأجواء مثقلة بأوزار التثبيط والتعويق

فالى الأمام ياشباب مصر ، افتحوا ماشاءت لكم عزائمكم من أقطار الأرض وآفاق السماء ، والله معكم وهو خير الناصرين

باريس فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠

الفرنسيون

قال المسيو تارديو يخاطب جرحى الحرب

« على وجوهكم تتمثل شمائل فرنسا الخالدة ، فعندكم فى السلم كما كان عندكم فى الحرب : الشجاعة والصبر والثقة . أما الشجاعة ففضيلة القلب ، وأما الصبر ففضيلة الخلق ، وأما الثقة ففضيلة النفس ، وكل هذه الفضائل فرنسية . إن الأجنبى لايفهم هذا الشعب ولن يفهمه أبداً ، لاريب فى ذلك . إن هذا الشعب يُظهر فى سذاجة مالديه من النقائص السطحية فى أوقات الأمان ، وبذلك يحكم الأجنبى بأنه شعبٌ فارغ . ولكنه يظهر فى أوقاته العصيبة ، وساعته التاريخية ، بفضائل عجيبة تضمن له النصر المبين . وبين الفرنسى المتوسط والفرنسى المتفوق توجد هُوَّة لايعرف الأجنبى قرارها ، ومن البيئات المجهولة يخرج أبطال يفزع لرؤيتهم من كان يقدِّر أنْ ليس هناك غير الفراغ »

انتحار شاعر مصرى

فى سنة ١٩٢٦ تقدم الىّ أحد طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية وقال : أتسمح أن أتعرف اليك ؟ قلت : مع السرور . قال أنا أحمد العاصى ، كنت طالبا بكلية الطب ، ثم هجرتها ، لأن أعصابى أضعف من أن تحتمل مناظر التشريح وحدتنى آمالى على الانتساب لكلية الآداب ، راجيا أن يكون فى الأدب والفلسفة جوّ أهدأ وأدعى لراحة الأعصاب ... فابتسمت وقلت : لشدّ ما خدعت نفسك بهذا التغيير والانتقال من قيد إلى قيد ! لأننا فى كلية الآداب نعالج نفس الطريقة التى يعالجها الأساتذة فى كلية الطب ، وهم يسمون عملهم التشريح ونحن نسميه التحليل ، والفرق بيننا وبينهم أنهم يشرّحون الأجسام ونحن نشرح الأعراض ، هم يشرحون أجساما فانية ، ونحن نشرح أعراضا غالية كان ينبغى لها الصون التام فى ظلال الخلود . وليس شق الجسم الميت الذى يحوله قصر العينى إلى مشرحة كلية الطب بأقسى وأفظع من اهتمام أساتذة كلية الآداب باثبات أن أبا نواس كان سيىء الأخلاق ، وأن البحترى كان قذر الثياب ، وأن المعرى كان من الملحدين ، وأن المتنبى كان صعلوكا يتصيد المال وهو يدعى سموّ الملوك . إلى آخر

ما توجبه الدراسات الأدبية من هذا الهذر الممقوت . وأنت لو مضيت فى دراسة الطب لصرت مع الزمن طبيباً يخدم الانسانية ولكنك حين تمضى فى دراسة الأدب تصبح مع الزمن أديباً والعياذ بالله ! ورجال الادب قوم يعيشون فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ولا ينجح من بينهم إلا من يحسن القيل والقال ، وجوّهم فى الأغلب جوّ فتن ودسائس ونذالات يندى لها الجبين ، والبارز فيهم هو الرجل الوقح الذى يعرف كيف يخلق الأكاذيب للنكاية بزملائه الأبرياء

وهنا ازداد الشاب صفرة إلى صفرته التى كانت تغشّى وجهه بما يشبه صفرة الموت وقال : أنا لا أنتظر منك أن تحملنى على الرجوع مرة ثانية إلى مناظر الدماء فى كلية الطب

فأجبت: خير! امض فى دراسة الأدب وأنا سعيد بأن أراك بين طلبة كلية الآداب

* * *

كان أحمد العاصى هذا شابا قصيراً يبدو كأنه بدين وليس بذاك . وكان صوته خافتا أشد الخفوت يكلمك وكأنه يناجيك وكانت عيناه مثقلة بالتعب والخمود وكان يحضر الدروس بقلب غائب وفكر عازب ، ولا همّ له إلا قرض الشعر فيما يمر بخاطره من مختلف الشؤون . وكنت أمازحه أحيانا حين أراه مكبا على

كراسه يدوّن فيه غير ما يسمع أثناء الدرس. فكان يتكلف الرضا بالمزاح ، ثم تأتيني الأخبار بعد ذلك بأنه بكى بعد انصرافه حتى رحمه زملاؤه الطلبة وصاحبوه رفقا به طول الطريق. فعرفت منذ ذاك أنه مريض ، وأن من الخير لأن يلام على تفريط أو إهمال

وفى نهاية العام الاول من دراسته بكلية الآداب قدم إلىّ رواية ألفها ونشرها اسمها غادة لبنان ، ولست أدرى ما الذى أودعه تلك الرواية ، لانى شغلت عن تصفحها ، وفى العام الثانى أعد مجموعة طيبة من شعره وقدمها الى الشاعر شوقى بك ، فلما قرأها شوقى أعجب بها وشجعه على نشرها وأهداه أبياتا قدم بها ديوانه الى القراء . ان أبيات شوقى التى قدم بها (ديوان العاصى) الى الجمهور تنطق بما كان ينتظر من مصير ذلك الشاعر المسكين . فقد ارتاع شوقى لادمان ذلك الشاب على نظم الشعر فى التبرم بالحياة ومافيها من دواعى الضجر والهم والقنوط، وقد ضاعت تلك الابيات من ذاكرتى ، وليس يحضرنى منها إلا هذا البيت:

ولتعلمنّ إذا السنون تطاولت ان التشكى كان قبل أوانهِ

وقد مضى الفتى فى دراسته وهو فى نظر زملائه وأساتذته شاعر حتى ظفر باجازة الليسانس فى الآداب ، ثم عين فى مكتبة الجامعة المصرية ، ولقيته فى الايام الاخيرة فحسبته شفى من مرضه إلى أن وصلنى العدد الأخير من جريدة الصباح فعرفت انه انتحر

وأنه لم ينتظر أوان التشكى الذى أشار اليه شوقى ، فرحمة الله على ذلك الجسد الذى لم يستطع مطاولة الأيام!

لا أحسب أن الجرائد المصرية تلفتت إلى وفاة هذا الشاب وجريدة الصباح نشرت خبر وفاته منقولا فيما أظن عن محاضر البوليس ، وقد نشرت الخبر لأن فيه جوانب طريفة تشوق بعض القراء ، وخلاصة الخبر أن أحمد العاصى الموظف بمكتبة الجامعة المصرية كان يقيم فى المنزل رقم ١٢ بشارع سعفان بالعباسية مع خادمة له ، وكان لا يسليه فى وحدته غير كتابه أو قلمه ، وان أحاديثه مع خادمته القروية كانت تدل على أنه ينظر إلى الحياة نظرة غير طبيعية ، إذ كان يجرى بينهم مثل هذا الحديث :

— أنت أسعد منى يافاطمة فى هذه الحياة !

— وليه بقى ياسيدى ؟؟

— لأن لك أهلا يحوطونك بالرعاية أما أنا فلا أهل لى ! !

— بعيد الشر ياسيدى ، وأهلك جرى فيهم إيه ؟

— أنا خلقت من غير أهل ، وفى رأيى أن الموت هو أشهى ثمرة يقتطفها كل راغب فى السعادة !

وقد انتحر أحمد العاصى إذ سكب على جسمه كمية كبيرة من مادة كاوية نفذت إلى ثنايا قلبه . وقد وجد رجال البوليس بجانب مقعده رسالة مغلقة عنوانها « إلى من يهمهم أمرى » فلما

فتحت وجدت مكتوبة باللغة الانجليزية وفيها هذه العبارات :

« جبان من يكره الموت ! جبان من لا يرحب بهذا الملاك الطاهر ! إنى أستعذب الموت الذى هو كالرائحة الذكية عندى »

ثم وضع اسمه كاملا وذيله بكلمة (ليسانسيه فى الآداب)

***

لا أدرى كيف بدا لى أن أتأمل الصفحة التى نشر فيها هذا الخبر من جريدة الصباح فقد رأيت بجانبه فى الصفحة نفسها إعلانا عنوانه (افتتاح موسم الموسيقى والطرب) وإعلاناً آخر عنوانه (هل تريد جسما جميلا ؟) وكذلك تشابهت أمامى مناظر الحياة: سعادة يجاورها شقاء وبؤس يجاوره نعيم. والدنيا حلم قصير تزعجه يقظة الموت

كنت أمازح أحمد العاصى فأقول : اسمع ياعاصى ! فيجيب : أنا العاصى للشيطان . ولعله لذلك أطاع الموت لأنه سماه الملاك الطاهر ، ولو ظنه شيطانا لعصاه

لست ممن يظنون أن المنتحرين يبوءون بغضب ربهم ، لأنهم فى الواقع ضعفاء خانهم الصبر ، وأفناهم اليأس ، ولم تبق فيهم بقية من الجلد يفهمون بها مايجب أن يتحلى به الرجل الشجاع . وفى انتحار هذا الذى شكا أنه لا أهل له فرصة للتأمل فى قيمة الحقائق

المعنوية ، فذلك شاب موظف مستقر ماكان ينقصه الرزق، ولكنه كان شديد الفقر إلى العطف والحنان ، ولو كان بجانبه أب يواسيه أو أم تحنو عليه ، أو زوجة تصاحبه ، لطاب له العيش وابتسمت فى وجهه الحياة . ونحن فى الواقع نعيش أسرى عافيتنا وأعصابنا وليس بين الشقى والسعيد إلا متانة الجسم وقوة الأعصاب ، والروح وحده لا يكفى لسعادة الانسان ، وإنما المرء جسم وروح . ولعل السر فى تقدم الانجليز أنهم يؤثرون الألعاب الرياضية على العلوم النظرية ، أما نحن فنفكر أولا فى حشو الدماغ بأنواع المعارف والعلوم ونرى فى تمرين الجسم وتجديده وتنشيطه علامة من علائم النزق والطيش ، والميل إلى البطالة والفراغ . وقد يكون اهتمامنا بالجسم نوعا من المحاكاة والتقليد ، لا أثراً للاقتناع بما له من المزايا فى تكوين الشعوب

لايزال يتمثل أمامى أحمد العاصى يوم رأيته لأول مرة فى أوائل سنة ١٩٢٦ ويوم رأيته لآخر مرة فى أوائل الربيع الماضى ، فإليه فى عالم الأرواح أهدى هذه الكلمة ، وما كان ينتظرها منى ، ولكن الحر من راعى وداد لحظة ، فكيف وقد كان رحمه الله من تلامذتى الابرار

الحديث ذو شجون

الصديق

فى الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضى أرسلت إلى صاحب الشورى عنوانى فى باريس ، ورجوته أن يحول الجريدة إلى هناك ، وفى يوم السفر تلقيت فى الصباح عدداً من الشورى فظننت خطابى لم يصل إلى إدارة الجريدة ، أو أنه وصل بعدوضع هذاالعدد فى البريد ، فلما وصلت إلى باريس فى أوائل يونيه وجدت العدد نفسه قد سبقنى إلى هناك ، فعرفت سر المسألة : وهو سر واضح لا يزيد عن أن الأستاذ الطاهر أراد أن يودعنى يوم سفرى من مصر الجديدة وأن يستقبلنى يوم قدومى إلى باريس ، فهل يتفضل هـذا « الصديق » بقبول هذه الكلمة الصادقة كلمة الاعتراف بالجميل من رجل يعرف كيف تكون الصداقة وكيف يكون الأصدقاء ؟

ولعل القارىء يتلفت فيسأل كيف وضعت كلمة « الصديق » بين قوسين ؟ والجواب حاضر عتيد ، ولـكنه كريه الطعم مرّ المذاق ، ذلك بأن صاحب الشورى كان واسطة العقد فى طائفة من الاصدقاء شاءت سجايا الناس أن يتبددوا ، وقضت أهواؤهم

أن تنفصم عُرَى المودة وأواصر المعروف ، وفيهم والله من لا يزيده الاعراض إلاَّ قربا من النفس ، واعزازاً على القلب ، ومن لو تغيرت الدنيا ومن عليها ، وتبدل كل شيء فيها ، لبقيت وحدى أحفظ بين سرائر القلب ما كان له من خالص الود وصادق الجميل

تبدد أولئك الأصدقاء وبقى هذا الأخ المجاهد الذى نرجو أن يبقى وداده ذكرى طيبة لذلك العهد الذى لو بقى من نحب على ما عهدناهم فيه لـكان للدنيا عندنا لون غير هذا اللون المتقلب البغيض

أفى الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديونى باقيات كما هيا !

الذين لا يعلمون

ذكرت الشورى أن الحكومة المصرية ستقيم ضريح المغفور له سعد باشا على الطراز العربى . ثم قالت: لا على الطراز الفرعونى الذى اقترحه بعض الذين لا يعدون من مصر ولا من أوربا . وكان يكفى أن تقول : لا على الطراز الفرعونى الذى اقترحه بعض الذين لا يعلمون

الواقع أن عدداً ضئيلا من دعاة الوطنية المصرية «لا يعلمون» ما هى الوطنية . فهم يحسبون أن الفراعنة أقرب إلى مصر من العرب، مع أن قليلا من صدق الحس وسلامة الذوق يكفى

للاقتناع بأن مصر الحديثة مدينة من البداية إلى النهاية للحضارة الاسلامية. وأنه إن صح لأى قطر أن يتبرأ من العرب فلن يصح ذلك لمصر التى لم يكفها أن تستفيد من حضارة العرب، بل نهضت غير مرة بأعباء الحضارة العربية ونشرتها فى كثير من الأقطار، وهى اليوم مطمح أنظار العرب والمسلمين الذين يودون أن يفتح الله لهم أبواب المجد من جديد. وما ذلك على الله بعزيز

وبهذه المناسبة أذكر أنى كثيراً ما ألاقى فى باريس رجالا من الحجاز والشام والعراق وكثيرا ما نتداول الرأى فى انهاض الأمم العربية، فما يروعنى إلا شكواهم من أن مصر لا تقول بأنها أمة عربية

والواقع أيضا أن مصر لا «تقول» بأنها أمة عربية، ولكنها «عربية بالفعل» فليت إخواننا فى الشرق العربى لا يطالبوننا بأن «نقول» اننا عرب فان القول لا يغنى فتيلا. وحسب مصر أن تنهض حقا بإحياء الآداب العربية وأن تكون مكاتبها ومدارسها وجرائدها ومعاهدها وأنديتها مصانع لإيقاظ الروح العربى وميادين لبعث ذلك المجد الدفين

المعرض الدولى

للفن والطيران والبريد الجوى

اول ديسمبر سنة ١٩٣٠

أقيم فى هذا الأسبوع فى باريس المعرض الدولى الأول للفن والطيران والبريد الجوى تحت رعاية المسيو جاستون دومرج رئيس الجمهورية ورعاية وزير المعارف والفنون ووزير التجارة ووزير الطيران

وقد زرته يوم الافتتاح، وهو يقع فى متحف الفنون باللوفر وهو فى جملته وتفصيله فتح جديد فى عالم الفنون. والقارىء المصرى لا يتبين كيف يكون ذلك المعرض إلا إن وُصف له. لأن عهدنا بالطيران حديث، والطيران علم لا يقرأ فى الكتب، ولا يكفى فى معرفته أن يقال إن هناك خطوطا جوية تسير فيها الطيارات الانجليزية، فان الشعب لا يغرم بالطيران ولا يعرف كنهه إلا إذا قام أبناؤه فامتلكوا الأجواء ونافسوا المتحكمين فى الهواء. وقد كانت مصر إلى العام الماضى محرومة من السيطرة على خطوطها الجوية ولم يكن المصريون يعرفون عن الطيران إلا ما يقرءونه فى الكتب والصحف والمجلات، وهى ثقافة تكاد تكون سلبية فى نوع من العلوم لا يبرع فيه إلا المخاطرون الأقوياء، وقد أخذت مصر

— ولله الحمد — تهتم بالطيران اهتماماً عملياً لا نظريا منذ أتاح الله للشاب محمد صدقى أن يدخل مصر طائراً . ولو قد أتيح هذا الحظ لمن حذقوا الطيران من قبله مثل أنيس باشا لكان للشبان المصريين حظ أوفر من الاقبال على ذلك العلم النفيس . وإنا لراجون أن تكون فى الخطوات الجديدة تباشير بطولة وإقدام لعزائم الشباب المصريين الذين حبست نشاطهم ونخوتهم مطامع المحتلين الذين قدروا خطر الطيران ، وعرفوا أن غرام المصريين به قد يكون عهدا جديدا من عهود الحرص على الكرامة والاستقلال

والطيران فى ذاته مِران نبيل للقوى الإنسانية ، فليس من الضرورى أن يُقرن دائما بالحرب ، وأن يُفترض أن الناس لا يطيرون إلا ليستعدوا للفتك بعضهم ببعض ، فالذين يحرمون مصر من الطيران لا يمنعونها فقط من الاستعداد للحرب ، ولكنهم يحولون بينها وبين أقوى أسباب الكرامة فى العهد الحديث . وليتصور القارىء حال أمة مُنع أبناؤها من ركوب الخيل فى القرن الثامن عشر مثلا ، فان الحرمان من ركوب الخيل فى الأيام الماضية كان علامة على الذلة والخنوع ، وكذلك الحرمان من الطيران فى هذا الجيل يقضي على النخوة والكرامة ويعرِّض الشبان المصريين للرضا بالهوان . فمن الواجب على من إليهم الامر فى مصر أن يتنبهوا إلى هذه الناحية من الأخلاق ، وأن ينظروا الى الطيران

نظرة تساوى على الأقل نظرتهم إلى التمثيل ، فانى كمصرى لا أطرب كثيرا لانشاء معهد يتخرج فيه الممثلون والممثلات ، ولا أستطيع أن أتحدث بما عملته وزارة المعارف المصرية فى هذا الباب ولكن مما يشرف حقا أن تُنشأ مدرسة للملاحة ومدرسة للطيران وأن تُستغل حماسة الشبان استغلالا شريفا يفتح لمصر أبوابا من الفوز والمجد فى الحياة العلمية والاقتصادية. ولكن إلى من نتحدث وقد فُتحت لنا ابواب من الفتن والمعاطب ، وأصبح أولو الأمر فى شغل بأنفسهم ومجدهم الشخصى الذى لو وضع فى الميزان لكان أخف من الهباء !

المصرى لا يعرف الطيران لأنه محروم منه ، ولا يعرف الملاحة مع أن البحر يواجهه من الشرق ومن الشمال ، وهو على الجملة محروم من المخاطرات التى تخلق الرجال . وليسمح لى القارىء بهذا الاستطراد اليسير فانى أريد أن أقص عليه الحادثة الآتية :

كانت كلية الآداب بالجامعة المصرية قررت إيفاد اثنين من خريجيها إلى الحبشة لدراسة اللغة الحبشية . ثم عدلت عن ذلك. أتدرى ما السبب ؟ السبب بسيط ولكنه محزن : ذلك أن أحد الأساتذة بقسم الآثار أخذ يحرض الطالبين على الاحجام ويقول « اوع يا واد انت وهو . والله إن قبلتم أملص أودانكم . حبشة ايه وسخام ايه ! روحوا لندرا ولاّ باريس . !»

هذا استطراد ولكن لا أملك دفعه ، فقد كنت ليلة الأمس في الجمعية الجغرافية أشهد محاضرة المسيو مارسل جريول عن رحلاته فى الأقطار الحبشية . وكم كان أسفى شديدا حين سمعت المحاضر يتكلم عن الجهود التى بذلت لدرس اللغة الأتيوبية ، مع أننا كنا أولى بالتوجه إلى تلك الناحية لمعرفة لغة الأحباش ودرس عقليتهم . فستكون بيننا وبينهم مشاكل جدية خطرة فى المستقبل القريب . ولكن من الذى يهتم فى مصر بالمستقبل القريب أو البعيد ، إنما يهتم المسيطرون بالتحكم فى الشعب وإثارة حقده وغضبه شفاء لبعض الصدور . ولولا انعدام روح المخاطرة ما أحجم ذانك الفتيان عن الذهاب إلى الحبشة حبا فى لندرا وباريس ، وأكثر الشبان يفكرون فى أنفسهم ، ولا يعرفون ما يعود على أمتهم من الخير اذا آثروا الخشونة وانطلقوا يدرسون الشعوب الافريقية التى أصبحت قبلة الباحثين والمخاطرين

كان صديقى الذى ارسل إلىّ الدعوة لحضور افتتاح المعرض قال فى خطاب له « احضر فى الساعة الثالثة تماما إن كان يهمك أن ترى وزراء » فقلت فى نفسى : « عارفهم ! عارفهم ! » ومع ذلك ثار تطلعى إلى رؤية الوزراء . فذهبت قبيل الساعة الثالثة وانتظرت قريبا من باب المعرض على أراهم ، ولكنهم لم يحضروا فى الوقت المحدد لحضورهم ، فمضيت أشاهد المعروضات وأتلفت من حين

إلى حين أرقب قدوم أولئك الأعلام ، ولكنني لم أر أحدا ، وكنت أفهم أن حضورهم سيلفت الأنظار ، وسيكون فى حاشيتهم من يعلن المتفرجين بقدومهم ؛ ولكنه لم يقع شىء من ذلك ، ثم دهشت حين علمت بعد نصف ساعة انهم حضروا وشاهدوا ماأهمهم من مختلف المعروضات وانصرفوا ولم يشعر بهم أحد ، فعرفت انهم وزراء مختارون من الشعب لايحيط بهم المخبرون ، ولايحرسهم البوليس ، حيث لابلطة ولا مسدس ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون !

المعرض كله خاص بما أنتج الفنانون متصلا بالطيران ، وليعلم القارىء أن هناك فنانين ملحقين بالملاحة وفنانين ملحقين بالطيران. والغاية من اتصال الفن بالملاحة والطيران أن تُغرس فى نفوس الشعب عن طريق الفن ثقافة البحر والهواء . والقوم هنا يعملون على أن تكون صلة أبنائهم بالسياحات البحرية والجوية صلة عشق وهُيام لا صلة أُلفة وقبول ، وكذلك نجد بين الشبان الفرنسيين من يُغرَم بالملاحة والطيران غراما مبرحا يقضّ مضجعه ، ويكدر صفوه ويكاد يحول بينه وبين طعامه وشرابه

ومن أجل هذا أخبرنى المسيو جانجان أن وزير الطيران امتعض حين رأى فى المعرض لوحات فنية تصور بعض الحوادث المزعجة فى الطيران ، لأن هذا المعرض لم يقم لإعطاء الفرنسيين كل

المعارف الضرورية المتصلة بالطيران من نجاح وإخفاق ، ولكنه أقيم للدعاية للطيران وترغيب الفتيان فى ذلك العلم النبيل ، فمن الخطأ أن نفهم الشبان أن فى عالم الهواء كبوات وسقطات ، وإنما يجب أن نربى فيهم حب المخاطرة مصحوبا باليقين المطلق فى الفوز والتحكم فى آفاق السماء

عدد العارضين ١٨٣ أما المعروضات فشىء يعجز عنه الاستقصاء . فبعضهم عرض تماثيل صغيرة لمن ذهبوا ضحية الطيران ومنهم من عرضوا رسوماً مختلفة للطيارات . وبعضهم عرض صوراً فتوغرافية عديدة لمناظر أُخذت من الطيارات . وهذا نوع جديد من التحف النفيسة التى تمثل المدن والمعالم التاريخية كما يراها من يطل من جانب السماء . وفريق عرض أدب الطيران . وكلمة أدب هنا يراد بها مجموعات المؤلفات التى أراد أصحابها أن ينشروا ثقافة الطيران بين الجمهور ، ومن بين هذه المؤلفات روايات شائقة جذابة وضعت للأطفال فى حوادث متصلة بالطيران : بحيث يشب الطفل وفى ذهنه صور عديدة للمخاطرات الجوية التى يرجى أن يكون له من مجدها نصيب .

ومن الجوانب الطريفة فى هذا المعرض ما يراه المشاهد من الاوانى والادوات المنزلية حيث يسرح الطرف فى طائفة كبيرة من الصِّحاف والأطباق ، والملاعق والشوكات والفناجين والأكواب

والأسِرّة والمخادع والوسائد ، وكلها محلاة بصور الطيارات ومشاهير الطيارين ، كل ذلك لتدخل ثقافة الطيران فى المنازل والقهوات والدواوين ؛ وليصبح الناس ويمسون وعيونهم شاخصة وقلوبهم عالقة بذلك الفن المذكَّر الفحل فن الطيران

وهناك خاطر أعلنه المسيو اجالير العضو فى أكاديمية جونكور وهو إدخال رسوم الطيران فى الاقمشة الصوفية والقطنية والحريرية بدلا من الرسوم الطبيعية التى تمثل الازهار والاشجار والاطيار وشواطىء الانهار والبحار ، بحيث تصبح ملابس السيدات وفساتينهن ومعاطفهن وهى تموج بالخطوط الجوية ومناظر السباق فى الهواء. وبذلك تبيد بدعة زهر الرمان مرسوماً على صدور الملاح ، وتذهب علامة الاستفهام مرسومة تارة على عصابة الرأس وتارة معقوصة فى جدائل الشعر البراق ، وتصبح الزينة نهبا مقسَّما بين صور الطيارات وصور الطيارين . والغرض من هذا واضح وهو أن تصبح نفوس العشاق وقلوبهم وعيونهم محبوسة بين ذكريات عالم الهواء . وللقارىء أن يدرك أثر ذلك كله وهو : رياضة العقل والذوق والحِس على عبادة الطيران

***

أما الجزء الخاص بالبريد الجوى فهو عبارة عن مجموعات كثيرة مختلفة من الرسائل الجوية تمثل جميع الاقطار التى مرت بها طيارات

البريد . وقد حرصت على معرفة نصيب مصر من ذلك الجزء . وكنت استصحبت صديقى محمود أفندى الخضيري فقضينا نحو أربعين دقيقة نبحث عن رسالة مصرية بين ألوف الرسائل المعلقة هناك ، وأخيراً عثرنا على ثلاث رسائل مرت بمصر فى خط الهند ورسالة من القاهرة إلى الخرطوم فى الطيران الخاص مرسلة منها رسالة من (أبو صير) ،وثلاث رسائل مرسلة من الاسكندرية إلى باريس وكلها مرسلة إلى يونان لا مصريين فوددت لو عرفت كيف نظّم المعرض لأقدم إليه رسالة جوية وصلتنى من صاحب البلاغ .وقد حدانى حب اللغة العربية على تعقب الرسائل الجوية التى كتبت بحروفنا الجميلة فوجدت نماذج يحسن اثباتها هنا لما لها من الدلالة على نحو خاص من كتابة العناوين ،وأكثرها رسائل سورية من (رياق) كتب العنوان فيها هكذا :

« لحضرة الخواجه الياس حجار دام بقاه »

ورسالة من (دير الزور) كتب عنوانها هكذا :

« يحظى بمطالعة الشاب الاديب توفيق الشوتانى الأكرم »

ورسالة من اللاذقية كتب عنوانها هكذا

« سعادة الشيخ الجليل مولاى الأمير المعظم بدر الضحى السلام عليه »

وهناك رسائل عربية كتبت بخطوط مغربية لم أستطع تمييز

ما فيها لبعد خطها عن خطوط الشرق ، وقد حدثنا ابن خلدون أن خطوط أهل المغرب انحرفت عن الصواب لاتصالهم بالبربر. وهناك رسالة واحدة تركية كتب عنوانها بخطوط عربية

* * *

إلى هنا عرف القارئ اهتمام أهل الغرب بالطيران فلأضف إلى ذلك أنهم لا يزالون يعترفون بأن الطيران لا يزال فى قوة الطفل ولكنهم يبتهجون بالفروق العظيمة بين البداية التى قام بها (آدر) فى أواخر القرن التاسع عشر حين كانت طيارته لا ترتفع عن الأرض أكثر من بضع بوصات و بين ما وصل إليه كوست وبلاونت من اجتياز الاطلانطيق ، وهم يتمنون أن ينقضى العهد الذى يرغم فيه المسافرون بالطيارة على سد آذانهم بالقطن فرارا من وعورة أصوات المحركات ، ولكنهم يعودون فيقولون فى ابتسام: إن أصوات المحركات أفضل ما تُقتل به وحشة السكون فى فضاء الأجواء!

وقد سألنى الخضيرى أفندى حين خرجنا من المعرض: ماذا يقدم الفنانون المصريون لو طلب إليهم أن يقيموا معرضا لفن الطيران؟ وللقارئ أن يجيب إن كان يحضره جواب. ولكننا سنصل بعون الله وعزيمة الأمة إلى مساماة من سبقونا إلى التحكم فى ممالك الهواء

عودة الجنس اللطيف

الحمد لله والحب ! فقد عاد الجنس اللطيف . ومن أين عاد ؟
عاد منهزما من حرب البدع الجديدة بدع الأعوام القريبة التى حاول فيها الفتيات أن يكون لهن أشكال الفتيان بلا فرق ولا تمييز فقد مرت بباريس فترة كانت الفتاة هى الفتى فى كل شىء : فى ترجيل شعره ، وتصفيف طرته ، وترتيب هندامه . وكان الفتى فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يصنع ليتميز عن الفتاة . وليس فى مقدوره بالطبع أن يلجأ الى الفارق الطبيعى يعلنه ليعرف الناس أنه فتى لا فتاة !

عاد الجنس اللطيف إلى إرسال الشعر ، فانفتح باب الأمل أمام الشعراء ليتغزلوا من جديد فى الجدائل الذهبية - فليس هنا شعر فاحم مع الأسف الشديد - وعاد الجنس اللطيف أيضاً الى إعفاء النهود من الكبس والتجفيف ، فعادت الطبيعة ترينا رمان الصدور بجانب تفاح الخدود . وغضت الفتاة النظر عن التمادى فى تلك الضلالة العمياء ، ضلالة الرجولة فى جسم الأنوثة ، وصارت تمشى وهى ضعيفة الخطو مِكسال ، فتنتقل القلب من مكان الى مكان ، وعرفت قيمة الحياء والخفَر وتبينت أن سلاحها الحق هو نعومة

الضعف لاخشونة القوة ، فمضت تتثنَّى وتتكسّر فى رِقة دونها أخواط البان

***

كانت مشكلة الأمس هى مشكلة الشعراء الذين حرمتهم المرأة المترجلة من عرائس الشعر والخيال ، وقد فُضت هذه المشكلة والحمد لله ، ووجد الشعراء أماكن القول . أما مشكلة اليوم فهى مشكلة الحلاقين ، فقد زاد هؤلاء زيادة غير معقولة بسبب إقبال النساء والبنات على قص الشعر ، وقد مضت بدعة الشعر المقصوص ، فمن أين يعيش جيش الحلاقين العرمرم ؟ هذه هى المشكلة ، أو تلك هى النقطة ، كما يقول لا فونتين . ولكن لا خوف ، فالله عز شأنه يقول « وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها — وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » !

ليلة على شاطىء المانش

أخي الأستاذ أنيس ميخائيل

أكتب إليك هذه الرسالة من « رُوان » مدينة الماضي والاحلام والفن الجميل ، ولعلك تسأل كيف هويت إلى هذه البلاد . واني لمخبرك بأني ضجرت من باريس ، وفكرت في اختبار الأقاليم الفرنسية ، لأرى كيف يعيش أهالي الريف . وأرشدني أحد أصدقائي الفرنسيين إلى نورمنديا ، أغنى الأقطار الفرنسية وأقربها إلى سحر الطبيعة ، وأحفلها بالغابات والحدائق والبساتين . وهي سياحة فنية خالصة لا يشوبها إلا غرض واحد، ولكنه غرض علمي ، هو زيارة المسيو ديمومبين في هوتو ، وقد رأيت أن أمضي أولا إلى الهافر ثم أعود منها إلى روان . ولا تسأل كيف كان جمال الطريق : فقد تأنقت الطبيعة تأنقا لا مثيل له في هندمة نورمنديا وتتويج حزُونها وسهولها ووديانها بكل رائع شائق من الأزهار والأشجار وخمائل الكروم : ففي كل واد، وفي كل نجد، وفي كل سهل ، ترى المنازل الريفية الصغيرة منثورةً في سحر وروعة كأنها أمانٍ مجسمة تركت مِهادها من القلوب واحتلت بساط الخضراء ، وحيثما ألقيت بصرك من نافذة القطار رأيت

الأهالى ناعمين وادعين ومن حولهم مواشيهم وأطيارهم وماجمعوا من طيب المحصول . وقد عرفت بهذه السياحة النورمندية كيف اتفق لبرناردين دى سان بيير أن يكون شاعر الطبيعة ، وأن تزاحم مؤلفاته مؤلفات جان جاك روسّو ، فان لمناظر الوطن الأول وذكرياته أثراً قويا فى تكوين العقل والحِس والخيال

لقد طال بى الطريق ووصلت الهافر عند غروب الشمس ، وكان أول ما فكرت فيه أن أبدأ بتناول العشاء ، وكنت سمعت أن أهالى نورماندیا يمتازون بالبراعة فى طهى الطعام، ومع أنى قليل الاهتمام بهذه الشئون المادية قد تعلمت من الفرنسيين كيف أتأنق فى تخير طعامى وشرابى ، فالقوم هنا لا يرون فى الطعام والشراب ما نراه فى مصر من أنه للانسان كالبنزين للسيارة يُتخذ لوجهة نفعية صرفة لا أثر فيها للذوق . كلا ، وإنما تمضى المطاعم والمشارب على أنها شئون ذوقية روحية يتدخل فى تكوينها الفن والذوق والاحساس . وكلمة cuisine لهاعندهم مدلول قلما نفهمه فى الشرق عندما تذكر كلمة (طبيخ) التى تثير السخرية كلماجرت على اللسان . واسمح لى بهذه المناسبة أن أصارحك بأنى كتبت لجريدة المساء مقالا عن أحمد بن يوسف المصرى فلما ذكرت مؤلفاته لم أشأ أن أشير إلى كتابه فى (الطبيخ) فراراً من سخرية القراء . ولا مانع أيضاً من أن أصارحك بأن الأقدمين كانوا يقولون: « قل لى من

تصاحب أقل لك من أنت » وعبارة أهل هذا الزمان فى أوربا : «قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت» لأن أثر الطعام فى تكوين العقل والحس والذوق أعمق من أثر الرفيق والعشير . وإنى لأرجو أن تصل إليك هذه الرسالة فى لحظة تكون فيها «مفتوح الشهية» حتى تتذوق ما أقول !

كانت أكلة لذيذة فى مطعم المحطة بالهافر ، مضيت من بعدها أبحث عن مأوى فى أحد الفنادق، ولكن كيف والفنادق قليلة وليس فيها مكان واحد غير مشغول . لقد قضيت ساعتين كاملتين أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتى ، وأبيت فيه ، ولكنى لم أجد شيئاً ، فرأيت آخر الأمر أن ألجأ الى البوليس أساله كيف ينام الغريب فى ليلة مطيرة باردة على شاطىء المحيط . فأسرع البوليس الى التليفون وأخذ يستعلم من جميع الفنادق عن غرفة أىّ غرفة يقضى فيها أحد القادمين سواد الليل ، فأجيب بأن الفنادق كلها مشغولة وقد يرجى أن توجد أماكن خالية غداً أو بعد غد إن كان هذا القادم من الصابرين . وهذا الصبر يا صديقى شىء يتواصى به الناس ولكنهم لا يعرفونه، وكيف يصبر من قضى نهاره فى السفر على قضاء الليل هائماً يتنقل من مشرب إلى مشرب ومن ناد إلى ناد ! وقفت قليلا أتدبر أمرى فى مثل هذه الأزمة المفاجئة التى لا تمر ببال من يقدم إلى ثغر من الثغور الاوربية ثم رأيت أن

أضع حقيبة السفر فى مكتب الأمانات بالمحطة ، وأن أعود إلى المدينة أقضى فيها الليل ساهراً على أى حال

ولكن هذا الاخفاق لم يمنعنى من المحاولة ، والمرء يعجز لا المحالة ، فأخذت أسأل الناس فى طريقى عن منزل آوى اليه فساقتنى المصادفة إلى سيدة عوَان فقلت : هل من مأوى يامدام؟ فأجابت : عندى إن شئت ! فقلت : بكم ؟ فأجابت : (المبيت وكل شىء بمائة فرنك) فأطرقت استحياءً وقلت فى نفسى : المبيت مفهوم . ولكن (كل شىء) هذا ما معناه؟

إن كل شىء اسم لمجلة مصرية ، ولكن يظهر أنه هنا اسم لشىء آخر معلوم ! ثم رفعت بصرى اليها وقلت : المبيت فقط يامدام، والله الغنى عن كل شىء ! فقالت : من أين قدمت ؟ قلت من باريس . فقالت : ولكن مع هذا يظهر أنك أجنبى عبيط ! فقلت : تشتميننى فى بلدكم ! الله يسامحك يامدام ! وخليتها وانصرفت

وبعد لحظات رأيت سيدة تتوجه الى جماعة فى قهوة وتقول: إن سألكم سائل عن مكان للنوم فأرسلوه الينا فان لدينا غرفة خالية. فتقدمت اليها وقلت : أنا ذلك السائل المنشود ! فأجابت على الرحب والسعة . ومضيت معها بقلب فرح طروب . ولم أكد

أدخل تلك الغرفة حتى تقدمتْ إليّ فتاة تسأل ان كنت أشكو البرد وأحتاج الى وقود. فتلفت فاذا فتاة هيفاء، ساحرة الطرف أسيلة الخد، واضحة الجبين، لا أذكر انى رأيت مثلها فى باريس. فاندفعت فى طيش ونزق أقيدها باسباب الحديث. وقلت: أنت نورمندية يامدموازيل؟ فأجابت: لا، ولكنى بريتانية: فقلت: ياللشرف؟ أنت إذن بلدية إرنست رينان؟ فقالت ومن هو إرنست رينان؟ فقلت: الفيلسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم، وكتاب حياة المسيح. فقالت لا أعرفه. قلت: عجبا، إن الشيخ بخيت يعرفه وقد نقض فلسفته فى محاضرة ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤، فقالت: ومن الشيخ بخيت؟ فقلت: تجهلين هذا أيضا؟ هذا فيلسوف عظيم، وهو صاحب كتاب (منحة العبيد فى علم التوحيد) وكتاب...

ولم أكد أصل الى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس يدق دقا عنيفا متواليا وإذا ربة المنزل تصيح: مارى! انزلى، مارى! انزلى، ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول.. ونزلت الفتاة مسرعة، وعرفت أن ربة المنزل لئيمة، وأنها أبخل وأضن وأحقد من أن تسمح لزائر بمحاورة هذه الشقراء الهيفاء، فأسررتها فى نفسى وأقسمت لأتركنّ هذه الغرفة لتصفر فيها تلك العجوز الشمطاء... ثم خرجت متعللا بأن الغرفة لا توافقنى لأنها تطل

على الفِناء، وكنت أحسبها تشرف على الميدان . . .

ولكن إلى أين أذهب والمطر ينسكب بشدة كأفواه القِرب بحيث لا تغنى فى دفعه المطرية — ولا أقول الشمسية لأنا هنا نتقى بها المطر لا الشمس ! — الى أين يذهب الغريب فى هذه المدينة الموحشة وقد انتصف الليل أو كاد !

الى شاطىء المانش لأرى ما يفعل ذلك الأهوج المجنون بالسفن. ولا تستكثر هذا الوصف فان الذى لا يرى المانش لا يعرف كيف يكون جنون البحر وهوَج الرياح، وان السفن لتكاد تتحطم على الشاطىء من قسوة الأمواج . ولا تسأل كيف قاسيت فى تلك الليلة ، فإنى لا أذكر أنى قضيت ليلة أطيب منها ولا آنس ولا أروح فى حياتى ، وقد عذرت عشاق الطبيعة الصاخبة وعرفت كيف يكون طعم الحياة فى مواجهة الأخطار ، وعرفت الى أى مدى يجنى المترفون على أنفسهم حين يأبون الأن يعيشوا فى كنف الطمأنينة والهدوء .

وشدَّ ما كان صدرى يثور بالنشوة والطرب كلما تصورت أن الحياة أتاحت لى أن أعيش ليلة على النمط الذى كان يعيش عليه شعراء الإغريق ! وكم خاطر شعرىّ طاف بقلبي ! وكم أمنية عذبة مرت بالنفس وكادت تحملنى على أن أتحول الى بحار يبحث عن أسباب رزقه فى مصاحبة ذلك العُباب المجهول !

فلما كانت الساعة الثالثة صباحاً نزلت الى اليمّ أنظر ما يفعل الصيادون . وهم هناك مئات بين رجال ونساء وصبية وكهول يجمعون ما تسمح به الشواطىء من مختلف الأسماك . وساعة واحدة بين أولئك القوم تشعرك بجمال النشاط والسعى فى طلب الرزق الحلال ، وحياتهم كذلك صورة صادقة للانسان القديم . فقد تغير كل شىء إلا هذا النمط من استغلال شواطىء البحار. فأى شىء هذه الحياة الوادعة التى نحياها فى سجن ماأبدعت المدنية من ألوان التقاليد ؟ وأين نحن من ذلك المرح اللاجب الذى يحيا فى ظلاله من يعيشون على سواعدهم من شياطين الصيد . لقد ظللت فى هذه النزهة الطبيعية الى مطلع الشمس ، ثم عدت الى المدينة فوجدتها لا تزال أمامى أضيق من سم الخياط ، فأخذت القطار الى رُوان

١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

اختيال الطاووس

خواطر عن عالم الطير وعالم الحيوان

ليس لدىَّ ما يمنع من الاعتراف بأنى لم أر الطاووس وهو ينشر جناحيه زهوا واختيالا الا منذ يومين . وللقراء أن يسألوا أنفسهم متى رأوا مثل هذا المنظر الأخّاذ بالابصار والقلوب، فقد يكون فيهم ألوف لم يشهدوا الطاووس وهو يزهو ويختال

ولقد أحيا فى نفسى ذلك المشهد حسرة قديمة طالما غزتنى بصنوف الآلام لتقصيرى فى دراسة الطير والحيوان .ثم سكنت قليلا حين تذكرت اننى لم تفتنى دراسة الحيوان جملة واحدة : فقد اهتممت كثيرا بدراسة الحيوان الناطق الذي اسمه انسان ! وانى لأعلم عن ذلك الحيوان الذى يمشى على أربع وهو طفل ، وعلى اثنتين وهو شاب ، وعلى ثلاث وهو كهل ، ما يندر أن يعرفه باحثٌ سواى . فقد عرفت من أشتات الأصحاب والألّاف والزملاء والجيران والمنافسين والحاقدين والخصوم والأعداء مايكفى فى مادته لوضع كتاب فى خمسين مجلدا أو يزيد

على ان الأدب الذى شُغلت بدرسه وقضيت فيه أنفس أعوام شبابى ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق

واحلامه وتصوراته ، وكيف يحب وكيف يحقد ، وكيف يخطىء وكيف يصيب . وقد ابتلانى الله بطوائف كثيرة من الدساسين والكائدين واللئام فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان وطبائعه ونحائزه وميوله وأطماعه . ويظهر أن الله جلّت قدرته قد شاء أن أكون على شىء من العلم بطبائع النوع الناطق من الحيوان : فأنا أستطيع أن أقرأ خواطر الناس فى وجوههم وعيونهم ، وأستطيع أن أفهم ما يضمرونه حتى عن أنفسهم ، وما يدسونه بين السطور وفى ثنايا الحروف . وإنى لأجد فى درس بنى آدم لذة لا تعدلها لذة ، لانهم قد يكونون أرقى أنواع الحيوان ، فان لم يكونوا أرقى فهم على الأقل يحسنون النفاق ، والنفاق دليل الانحطاط ولكنه فى الوقت نفسه دليل الذكاء

وأى لذة أطيب وأشهى من أن ينافقنا انسان وهو يحسب أنه أتقن دور الخداع . ثم ينصرف فى اختيال الظافر فى حين اننا فهمناه ، وعرفنا ما كان من أمره وما سيكون !

على أنه ما الذى يفتننا ونحن ندرس الطير والحيوان ؟

أليس مرجع تلك الفتنة العلمية ما نجده من الشمائل الانسانية فى عالم الطير وعالم الحيوان ؟

ما الذى يروقنا من البلابل ؟

انه لا يروقنا منه إلا مظهر واحد هو قدرته على التلوين

والتنويع فى أغاريده بحيث يمكن أن يقال انه فنان . فهو لا يسجع اتفاقا وعلى وتيرة واحدة كما هو شأن الطير المغرد ، ولكنه يفتنّ افتنانا شائقا ويتنقل من لحن إلى لحن ، ومن صوت إلى صوت ، وهو فى ذلك كله يملك من أمره ما يملك الانسان ذو الصوت الحنون

وهناك حيوانات يفتننا درسها أشد الفتنة ، وهى الحيوانات الماكرة الخبيثة التى تذكر باخواننا بنى آدم ، عفا الله عنهم !

فهل رأيتم الدبّ ياحضرات القراء ؟

أما أنا فقد تشرفت بمقابلته اليوم وأنا أستعد لكتابة هذا المقال ، وأغرب ماراقنى منه أنه يبسط كفه من بين قضبان الحديد يلتمس برّ الزائرين الذين عودوه قطع السكر والخبز والفطير ، وتظهر على وجهه أمارات القلق والحيرة والعتب كلما أخلفه الناس ماعودوه . وقد انتظر طويلا فى صباح هذا اليوم عطف المتفرجين ولكنه لم يفز بطائل ، فمضى الى الحوض يستحم ! وهنا أحدثكم أنه كان يضع رأسه تحت صنابير الماء ثم يمدّ يديه فيمسح شعره ووجهه وأنفه بطريقة انسانية محضة كادت تحملنى على الاقتناع بانه آدمى ممسوخ !

وقد تحدثت مع صديق لى عن هذا الدب الألوف الذى يخطب وداد الناس فقال : ألوف؟ احذر أن تتوهم ذلك ، فقد قتل

اثنين من الجنود فى العام الفارط. فقلت : كيف ؟ فأجاب : سقط من أحدهما شىء فى هذه الحفيرة ، ونزل يلتمسه فهجم عليه الدب وافترسه ، ونزل رفيقه لإنقاذه ولكنه لم يسلم من مخالبه . وكانت لحظة فكرت فيها فى هذا الدب الخائن الذى يبسط كفيه فى ذلة يلتمس الطعام من أيدى الآدميين ،حتى إذا كانوا عنده جزاهم شر الجزاء ! أليست هذه شمائل انسانية ؟ قولوا الحق أيها القراء. فكم ناس وفينا لهم وفديناهم بأنفسنا سراً وعلانية ، ثم كان مثلهم معنا مثل الدب مع الجندى المنكود !

وقد شغل العلماء أنفسهم بدرس القرابة بين الانسان والقرد ، ومثل هذا الدرس جدير بان يقدم للباحث أمتع اللذات ، ففى الحق ان القرد يملك كثيرا من الشمائل والغرائز الانسانية ، وتكوينُ وجهه وحاجبيه وعينيه مما يقوى الشبهة فى أن الانسان قرد تطور الى الرقى ، أو أن القرد انسان تطور الى الانحطاط

وانى لاذكر ان أحد الاصدقاء من أساتذة كلية العلوم فى باريس حدثنى مرة أنه لاحظ فى إحدى سياحاته بالاصقاع الافريقية ان طائفة من القرود تنتظر شروق الشمس بما يشبه صلاة الصبح عند الانسان: وذلك انها تقف وأيديها مرفوعة الى السماء بما يشبه القُنوت

أذكر هذا ، وأذكر بجانبه أننا لا نعرف أشياء كثيرة عن الصلة بين القرد والانسان، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن اهتمامنا

بدراسة القرود مرجعه إلى ما ندهش له من شمائلها الانسانية ، وخاصة حين تتناول الطعام والشراب

وهناك عالم الطير ، ذلك العالم العجيب الذى ملك أقطار الهـواء

ومن ذا الذى ينكر أننا حين ندرس الطير انما نبحث عما بيننا وبينه من المشابهات والمقاربات ، ألم تجر الامثال فى جميع اللغات بما يمثل غرائز الطير تمثيلا يقربها كل التقريب من طبائع الناس ؟

ألسنا نستأنس حين نرى طبائعنا مصورة فى نحائز الطير : فهذا طائر جارح ينتزع غذاءه وهو يصول ، وذلك طائر وديع يطلب غذاءه فى رفق واحتيال ، وتلك أسراب تغدو ِخماصا وتروح ِبطانا حيث يرزقها الله كما يفعل فريق من المتوكلين

تلكم أيها القراء خواطر علت بها نفسى حين رأيت قصورى عن فهم عالم الطير والحيوان ، فالانسان فى رأيى هو مجموعة كاملة لشتّى المخلوقات ، وأنا قد عرفت الانسان وفهمت غرائزه وميوله وسجاياه. وما قيمة القلم ان لم نستطع الدفاع عن جهلنا بما فى هذا الوجود من طير أو حيوان أو نبات أو جماد ؟ لقد فتحت الباب على مصراعيه لمن يريدون أن يخدعوا أنفسهم ليقنعوا بوهم الظن حين يفوتهم علم اليقين !

وأعود فأتكلم عن الطاووس الذى حملنى على كتابة هذا المقال .

الطاووس طائر ذو جناحين ، ولكنه لا يستطيع النهوض لان ريشه عبء ثقيل. وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال. وهو الطائر الوحيد الذى رأيته فى حديقة النباتات فى باريس يتعفف عن هدايا الزائرين ، فقد تُلقى اليه قطع الحلوى فيتعامى عنها فى أنفة وكبرياء

وريش الطاووس مشهور بالحسن ، ويكاد صدره يفعل بالناظرين ما تفعل الصهباء بالألباب ، وليس شيء يجلّ عن الوصف بقدر ما يجل صدر الطاووس . والناظر الذى ألف ذوقه أن يقتات من الحسن لا يدرى كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله لذلك الطائر العزوف .

ولقد طال ارتيادى لوادي الطير فى حديقة النباتات ، وكان الطاووس فى كل مرة هو أفتن ما أرى ، ولكن كان يضايقنى منه شيء واحد هو تعقله . والتعقل هو أشد ما يؤذينا من أهل الجمال

غير أنى دهشت فى الزورة الأخيرة : فقد رأيت الطواويس كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع. ولأول مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه وكيف يفهم أنه من أجمل المخلوقات . رأيته وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال

ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب ، وفى هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله ، وأنه بذلك مفتون

وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يُسمع لها صرير يشبه حفيف الريح بين الأوواق . وأقول يشبه فقط : لأن تلك الرعشة الكهربائية التى يقوم بها الطاووس تعرض على الناظرين ألوانا فتانة من ريشه الجميل . وهذا الجانب من زهو الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل ، ولا يدرك قيمته إلا من يراه . ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها فى تواتر وانجذاب ، إذ يقولون : ما أجمله ! ما أجمله !

الطاووس طائر رقيق الذوق ، وله عواطف وأهواء ، وهو فى عالم الطير يشبه الشاعر فى عالم الانسان

ليس للطاووس قلمٌ يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق من الكتاب والشعراء ، وليس لديه قيثارة يغزو بها القلوب كما يفعل الموفقون من أهل الفنون ، ولكنه يملك تلك الرعشة الكهربائية حين يبسط جناحيه : فهو يتقرب بها إلى من يهوى فى عالم الطواويس

فياليت شعرى وقد فهم كيف يكون الغَزَل ، أهو أيضا يفهم كيف يكون الأسى وكيف يكون الأنين ؟ وهل كتب عليه يوماً أن يرى كيف تكون حسناته ذنوبا عند بعض الأسراب ؟

انى لأحنو على الطاووس أيها القراء ، فهو فيما رأيت يعنّى نفسه فى نشر محاسنه ، وتظهر فى سِيماه علائم القلق فى سبيل الوصل . فان كان هو أيضا يخفق كما يخفق بعض الناس فليست الدنيا اذاً إلا دار شقاء للجميع!

بك بعض مابى أيها الطائر الجميل ،وليس لدىّ بعض مالديك من آيات الحسن والاشراق

أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق ، وأنا أملك ذلك القلم الأسود المقصوف .فيا بُعد ما بينى وبينك حين تقوّم النفائس والأعلاق !

كلانا غريب فى هذه الديار ، ولكن الحسان تسعى اليك أسرابا أسرابا فى الضحى والأصيل ،أما أنا فأتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب ، ومن بستان إلى بستان ، ثم أعود وليس لدىّ ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ماقال المعذبون من شعراء الوجدان . . .

وسلام الله على كل ساهر الجفن مفطور الفؤاد !

أول ابريل سنة ١٩٣١

نزهة فى طيارة

وأخيراً طرت مع الطائرين !

فى هذه الأيام افتتح معرض الطيران فى القصر الكبير بالشانزليزية ،وكان لابد أن أزور ذلك المعرض لأرى الفرق بينه وبين المعرض السابق الذى شهدته سنة ١٩٢٨ ولأعرف إلى أى مدى تقدمت المعدات لامتلاك ناصية الهواء . ولكنى رأيت من القصور أن تظل صلتى بالطيران صلة ضعيفة لاتعدو مشاهدة الطيارات وهى جاثمة فى الجراج ، وكذلك صممت على أن أطير أولا قبل أن أزور معرض الطيران ، وتوجهت مسرعا إلى مطار بورجيه ، عليه تحيةٌ وسلام

ولا أدرى كيف بدا لى أن أُخبر بعض أصدقائى من أساتذة السوربون عما اعتزمته من تلك النزهة الجوية ، فقد قال قائلهم فى لطف : هل كتبت وصيتك ؟ وكان سؤالا لابد منه فى عهد لا يزال فيه الطيران طفلا فى المهد ولا يزال يتأثر بالجو ، ويعيش فى تقية من الامطار والرياح فضلا عن الزوابع والاعاصير. من أجل هذا تخيرت يوما مُشمِساً ضاحيا لاسحاب فيه ولاضباب وكان أمس الخميس ٤ ديسمبر من الأيام الساجية الضاحكة

فى أرض قلما يبدو فيها يوم سجسج مقبول .

ان الفرنسيين يسمون المطار port وهو كذلك يشبه الميناء . وشعور القادم على مطار بورجيه يشابه شعوره حين يقدم على ميناء مرسيليا أو اسكندرية أو بور سعيد ، وليس بين المطار وبين الميناء من فرق إلا أن المطار يواجهك فى هدوء وسكون ولا كذلك الميناء حيث تصطدم بصفير البواخر وأصوات الملاحين. ومطار بورجيه مطار فسيح جداً يمتد إلى أبعد ما تسرح العيون ، وفيه جراجات عديدة تأوى اليها الطيارات. وكان يوم أمس موعداً لقدوم بعض الطيارات من لوندرا . فقدمتْ بلا لَجَبٍ ولا ضوضاء ونزل راكبوها إلى المقصف فى وداعة وهدوء كأنما قدموا من باريس

إن الطيارة التى ركبناها طيارة صغيرة تسمى Ajub ليس فيها مقاعد لأكثر من عشرة أشخاص، ولم يفتنى أن أقول حين ركبت « بسم الله مجراها ومرساها ، ان ربى لغفور رحيم » ومرّ بالبال كل ما جرى لسيدنا نوح عليه السلام ، وأنا رجل كثير الذنوب كنت أخشى أن يكون حان حين التكفير ، ولكنى نجوت فاعتقدت بحق أن الله غفور رحيم!

كانت لحظة رهيبة حين أُغلق الباب وحين أيقنت أننا صرنا فى وديعة الهواء ، ومضت الطيارة على الارض بضع لحظات تمنيتُ

أن تطول لنظل فى رحاب الارض التى منها خُلِقنا وإليها نعود ،
ثم أزَّت الطيارة أزيزا شديدا كاد يصم الاسماع فعرفنا أنها أخذت
تشق الهواء

لاتسل كيف كان شعورى حين حلَّقت بنا الطيارة ، فقد
كانت دهشتى عظيمة جدا حين لاحظتْ أن الطيارة أرفق بركابها
من السيارة فوق الارض ومن الباخرة فوق الماء ، فسير الطيارة
سير لَين رفيق لا عنف فيه ولا اضطراب ، وأكاد أقول أنها أرق
وألين من المطايا الذلول التى تجوب البيداء . فما هو هذا الانسان
وكيف عقله وكيف خياله ؟ انه لمخلوق عجيب !

لقد شعرت بالعزة الانسانية حين توغلنا فى آفاق السماء .
وكنت من بين الراكبين كثير التلفت من النوافذ إلى ما نمر به
من المنازل والقصور والميادين والحدائق والبساتين . فراعنى أن
شعورى بجمال الطبيعة كان أعمق ما مر بى فى حياتى . وايقنت أن
الطير أكثر نعيما منا ، وأدق إحساساً ، وأعمق شعوراً ، وأبصر
بمواقع الحسن ، وأعرف بمواطن الجمال . وكيف لا وأنت على
الأرض لا تدرك من الطبيعة إلا بعض الجوانب ، حتى إذا
أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة فى زخارفها وتهاويلها ونقوشها
وصورها وجميع ما تتحلى به من الحسن المجلوب ، والجمال الموهوب.
وإن نظرة إلى بعض مناظر باريس التى أُخذتْ من الطيارة

لتريك الفرق البعيد بين المنظرين : منظر يؤخذ من مصور يقف على الأرض ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء

ركبنا الطيارة قبيل الغروب فتمتعنا بمشاهدة ما أشرفنا عليه من بدائع الأرض دقائق معدودات ، ثم غربت الشمس وأسلمتنا إلى الظلمات ، وبقى القمر يساهرنا ونساهره فيما بقى من نزهتنا القصيرة . والقمر فى هذه البلاد قليل السلطان يبدو فى غمرة من النحول والشحوب . لأنه لا يصل إلى الغرب إلا بعد أن يضنيه المسير ، كما أفترض أن يقول الشعراء ، وعدنا نتلفت إلى الأرض فيروعنا ما فى الشوارع من المصابيح ، وكان لذلك روعة فى نفوسنا لا تقل عما يشعر به المتطلع إلى نجوم السماء

***

لقد أفهمتنى هذه النزهة معنى قولهم « ساعة سعيدة » فقد كانت لحظاتى فيها من أسعد اللحظات

ولكن خاطرا واحدا أزعجنى وأثار قلبى من هدوئه وألقى بنفسى فى لجة من القلق والاضطراب . فقد تذكرت أن هذه المحدثات العجيبة بأيدى أهل الغرب ومن صنع أهل الغرب . وأهل الغرب لئام تطغيهم القدرة ، وتعميهم النعمة ، ولن تكون هذه المبتدعات فى أيديهم إلا وسائل إفناء وإهلاك وتخريب وتدمير . وتذكرت الطيارة التى ألقت قذائفها فوق مدينة القاهرة أيام الحرب

والتى قال فيها حافظ ابراهيم خمسة أبيات . وقد قيل يومئذ إنها طيارة ألمانية . ولا أعرف لأى سبب افترضتُ إذ ذاك أنها طيارة انجليزية أرادت أن تفهمنا أننا فى خطر وأنه لابد لنا من حماية الحلفاء . ذلك كان افتراضى وقد أكون من الواهمين !

أهل الغرب لا يوفون إن عاهدوا ، ولا يصدقون إن وعدوا ، ولا يبرون إن أقسموا ، وإنهم لمغرمون بنقض العهود ، وتمزيق المواثيق. ولست فى هذا المقام بحاجة إلى تذكير قرائى بالسبعين وعداً التى ظفرنا بها من ساسة الانجليز ، فقد يقال : إنهم سيصدقون وأنهم عما قليل ليصبحُنّ راحلين ، ولكنى أذكِّر من شاء ان يتذكر ممن خالطوا الأجانب فى زراعة أو تجارة أو صناعة ، أو شاركوهم فى جد أو فى هزل ، أو عرفوهم فى صداقة أو فى خصومة ، إنى أذكِّر من خبروا الأجانب بعض خبرتى لهم ، علّهم يتذكرون جميعاً أن كل من يمتّ إلى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة إنما هو إنسان خادع ، ماكر ، خبيث ، لا عهد له ولا أمان !

وقد شاع اعتقاد أن مطامع الأجانب لا تتمثل إلا فى حكوماتهم ، أما الأفراد فهم ملائكة أطهار ! وهذا كلام لطيف يصح أن يقال ويعاد فى القهوات حيث يتكلم الفارغون عن كل شىء ، ويخوضون فى كل حديث ! والواقع غير ذلك ، الواقع أن

الأجانب نفعيون، وأنهم لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا وفى أنفسهم غرضٌ دفين

فهل من الإثم فى شىء أن أروض قومى على أن يفهموا أن لهذا العصر أخلاقا وآدابا تغاير ما عرفوا من أخلاق وآداب، وأنه لا بد لمن يريد أن يعايش أهل هـذا الزمان أن يكون فى مثل لؤمهم وبغيهم، وأن يكون له ما لهم من قوة البر والبحر والهواء

إننى لأكتب هذا بعد ما عرفت عن قرب أن هذه السنوات العشر، سنوات السلام، لم تكن إلا ضرورة قضت بها الظروف، فإن الدول هنا يتقى بعضها شر بعض، ولولا تعادل القوى وتكافؤ المعدات الحربية لكانت هذه السنوات أيام لأْواء.

كانت ساعة سعيدة لولا هذا الخاطر المزعج. ولكن من يدرى لعل هذا الخاطر كان أنفس ما مرّ فى تلك الساعة، فقد آن أن نشبّ عن الطوق وأن نعبر عن إحساساتنا بغير عبارة الأطفال إذ يقولون حين يبتهجون: يا سلام! يا سلام!

عادت الطيارة إلى بورجيه، ورأيت أن أرى ما هنالك من مختلف الطيارات والمحركات. وصحبنى صديق فرنسى من أعضاء اتحاد الطيران ولسان حاله يقول: « **تفرّج وشوف** » فهذا فنار فى قوة عشرين ألف شمعة، وهذه طيارة تاكسى. وهذا دليل

الجو ، وهذا مرشد الطيار الحائر فى الضباب، إلى آخر ما رأيت من تلك الأعاجيب

ثم رأيت أنى أمسيت ، فأخذت سيارة إلى باريس ، وأنا أردد قول شوقى

أرى طوفان هذا الغرب يطغى وأهل الشرق سادته نيامُ
فإن لم يأتنا نوح بفُلك على الإسلام والشرق السلامُ

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

غمز لا يجدى

كان على يمينى فى إحدى المحاضرات الليلية، سيدة وكان بيدها ، شهد الله ، قلم وقرطاس ، لتدوين ما يقول المحاضر ، ولكنها بعد لحظات استسلمت لمغازلة النوم ثم أخذت تغطُّ غطيطاً منكراً وصل صداه إلى المحاضر حتى خفت أن يأخذه التهويم . ومن وقت إلى وقت كانت تستيقظ على دويّ التصفيق فتسرع إلى القلم وتشرع فى تسويد القرطاس ، ثم تعود إلى النوم والغطيط

وقد أزعجنى شخير تلك المرأة وفكرت غير مرة فى غمزها لتصحو . ولكنها كانت عجوزاً فانية . ولا فائدة من (غمز) العجائز الفانيات !

يوميات عيد الحرية

فى باريس

كيف تدعى الامم إلى الجهاد ـ المراقص العمومية ـ أساس الاخلاق ـ جنود الجزائر ـ حفلة الألعاب النارية على شواطىء السين ـ الأمل فى خلاص وادى النيل .

١٢ يوليه سنة ١٩٣٠

لقد شهدت مقدمات عيد الحرية : ففى كل شارع وفى كل ميدان وفى كل مورد من موارد اللهو والقصف تُقام شعائر الفرح وبشائر الابتهاج ، وقد أُعدّت المراقص العمومية فى الشوارع وفى الميادين ، وأخذ الناس يرقصون ، ولكن لم أشهد فى المراقص غير الأطفال ، فكلما صدحت موسيقى الرقص انطلق الصغار كأسراب القطا يرقصون رقصا ينقصه الفن ولكنه فى سذاجته جميل جذاب. ولعلهم كانوا يعجبون كيف خلا الميدان من المنافسين الأشدّاء الذين يعرفون كيف تكون المخاصرة ، وكيف يضم الصدر إلى الصدر والساق إلى الساق ، ومثلهم فى ذلك مثل الاطفال فى مصر تقام أمامهم الاعلام والاقواس فى الموالد العمومية ، فيذهبون

فرحين مستبشرين ثم يرون المولد خلواً مقفراً إلا من وثباتهم المرحة وجذلهم الفياض ، ولو فهموا لعرفوا أن الكبار يشغلهم المولد بأشياء أخرى ، فهذا تاجر ينظم عرائس الحلوى وذلك مهرج يعد الألعاب والصواريخ وهذا شيخ يفكر فى استقبال مريديه وزائريه ، وتلك سيدة « تبين زين وتدق الودع » وتكون الخلاصة أن الموالد فرصة تجارية عند الكبار ، والصغار لا يفهمون ذلك ، فهم يعجبون كيف يلعبون وحدهم من دون الناس !!

وقد رأيت أن أختبر شعور الباريسيين نحو ١٤ يوليه فعجبت إذ رأيت كثيرا منهم لا يأبهون له ، ولا يحفلون بقدومه فتذكرت الحكمة العربية التى تقول : « الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يبصره إلا المرضى » وكذلك يمكن أن نقول : « الحرية تاج على رؤوس الأحرار لا يبصره إلا المستعبَدون » فنحن الشرقيين الذين كتب علينا أن نعانى أهوال الظلم والاستبداد ننظر إلى عيد ١٤ يوليه نظراً يختلف أشد الاختلاف عن نظر الفرنسيين الذين طال عهدهم بالحرية ، وألفوا استعباد الشعوب

قال قائل منهم : ما الفرق بين ١٤ يوليه و١٤ يونيه ؟ انهما سواء !

وكتب أحد الصحفيين يقول : لقد أحسن محافظ المدينة فى إعلان إباحة الرقص العام ثلاثة أيام . فاننا سنرقص وسنرقص لننسى فى ساحات الرقص أثقال الضرائب !!

أما أنا فقد أعطتنى هذه الشواهد فرصة للتفكير. وقد وصلت إلى أن معاني الوطنية والقومية تحتاج إلى وَقود: فالشعب الذى يعانى أزمة اقتصادية أو اجتماعية غير مستعد للتصفيق والهتاف لحادث تاريخى مرت عليه أجيال، فمن شاء أن يحرك الشعب فليرفع عنه عبئاً ضاقت بحمله كواهله، وليفتح أمامه باباً من أبواب الرجاء، والرجل الذى لا يجد ما يشبع أمعاءه لا يهتز لما يغذى عواطفه. وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الأساتذة قال لى مرة: لقد كان غذاء الجنود فى الحرب الأخيرة أجمل غذاء شهده الشعب الفرنسى فكان الجندى يجد من أنواع الشراب والطعام وأسباب اللهو والمجون ما يحبب إليه البقاء فى الميدان

وكذلك كان الانسان كتلة من الاعصاب والحواسّ قبل أن يكون صاحب رأى أو مذهب أو عاطفة أو إحساس. ولست فى هذا ممن يقدمون الغرائز الحيوانية على المعانى الانسانية. ولكنى أحاول كشف الحقائق فى صورها الواقعة. ليعلم من لا يعلم أن الوطنية الباقية هي التى تبنى على أساس المنافع والمصالح المادية. فالشعب الذى تدعوه إلى الدفاع عن الحرية لأنها فقط معنى نبيل لا يصبر طويلا على الجلاد والكفاح فى تأييد المعانى الصرفة، أما الشعب الذى تفهمه وتصل إلى اقناعه بأن الحرية غرض مادى صرف وأنه ينبغى أن يكون سيد نفسه وأن يفتح أمامه أبواب الرزق والغنى

فانه يستبسل ويستميت لأنه يسعى إلى عمل محسوس ملموس ، فمن كان فى ريب من ذلك فليذكر كيف ساد المسلمون يوم كانوا يسعون لفتح ممالك الارض وجنى ما فيها من الخيرات والثمرات ، فلما شُغلوا بالتصوف ورياضة النفس على الزهد خملوا وضعفوا وضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

فى ١٣ يوليه

ابتداء من الساعة الثانية بعد ظهر اليوم تغير الحال فى باريس ونشط الجمهور للتمتع بعيد الحرية ، وكانت موسيقى الرقص تصدح فى كل مكان ، وهى موسيقا لها جاذبية خاصة يرقص الناس عند سماعها من حيث لا يشعرون . فلما جاءت الساعة السادسة انصرف الناس الى منازلهم يطلبون العشاء ، وكنت على موعد من صديق فرنسى ، فتعشينا معا وحضرنا رواية هزلية تمثل خيانة الأزواج وخرجنا قبل منتصف الليل نشهد المراقص العمومية

فان كان القارىء المصرى لا يعرف ما هى المراقص العمومية التى تسمح بها الحكومات الاوربية فى أعيادها القومية فلنذكر له أنها مراقص تقام فى الشوارع والميادين ، ولها حُرمة كبيرة لا تقل عن حرمة الصلاة عند المؤمنين . فاذا صدحت الموسيقا وتخاصر الراقصون كان حتما على مركبات الترام والاوتوبيس والسيارات أن تقف فى خشوع حتى يتم الدور ، فاذا تم تحركت خطوط المواصلات

لحظة قصيرة ثم يستأنف الرقص فيخشع كل ما فى الوجود. ومن مزايا المراقص العمومية أنه لايشترط تعارف سابق لمن تراقصها من الفتيات : فلك أن تهجم متى شئت لتخاصر من تشاء من ناعسات الجفون . ولا عيب فى هذه المراقص الا أن الرجال أحيانا يكونون أقل عددا من النساء فترى مع الاسف الشديد فتاتين تتراقصان ، مع أن الرقص كالحب يحتاج الى رجال وحبال ! وهذا يذكر بما نراه فى بعض مراقص القاهرة حين يكون النساء أقل عددا من الرجال فنشهد رجلين يتراقصان ، والجمع بين النظيرين جميل" إلا فى هذه الأحوال !

طفنا كثيرا حول المراقص وكان أبدع مرقص شهدته فى ميدان السوربون . كان الراقصون والراقصات يعدون بالمئات ، وكانوا يرقصون فى زحام شديد جداً تنقل فيه الخطوات ببطء شديد . كان هذا يجرى أمام الجامعة حيث كان تمثال أوجست كونت محور المرقص . ولاموجب للتفكير فيما يمر بذكرى ذلك الفيلسوف العظيم ، فهو أيضا بلا جدال قد أغرق شبابه فى لجة الفتون ، فمن العدل أن يغضى الطرف فى عالم الأبدية عن ألعاب الجيل الجديد

أتريدون الحق أيها القراء؟ أنا والله فى حيرة مما أشهد فى أعياد باريس ، هذا الرقص العام هادم لصروح الاخلاق ولكن الناس

هنا لا يلتفتون الى ذلك . أفتكون الأخلاق أمورا نسبية ؟ أو تكون كالنباتات لها أقاليم ولها أجواء : فبعض الاخلاق ينمو فى مصر ، وبعضها ينمو فى الشام ، وبعضها يتحول لونه وطعمه إذا نقل من أرض الى أرض ؟

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »

فى ١٤ يوليه

ماذا رأيت فى يومى هذا ؟ ستمر الأعوام ولا أنسى

لقد شهدت استعراض الجيش ، ورأيت رئيس الجمهورية الفرنسية وبجانبه سلطان مراكش ، وباى تونس ، وشقيق امبراطور اليابان : فرأيت كيف تكون عظمة الأمم التى قدِّر لها أن تملك وتسيطر وتسود

وكان من أهم المناظر التى طرب لها أهل باريس استعراض فرق الجزائر التى قدمت فى لباسها العسكرى القديم الذى كان معروفا منذ مائة عام حين فتح الجزائر بمناسبة العيد المئوى لذلك الفتح المشئوم

مرت تلك الفرقة الجزائرية بين الهتاف والتصفيق !

أما أنا فدارت بى الأرض ، وأظلم فى وجهى الفضاء وغلبنى الدمع

ويلاه ! هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين الصحراء، ملكتهم هذه الدولة العاتية فمزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، وأذاقتهم حلاوة الترف واللين فعادوا نبتاً يؤكل بعد أن كان فتاهم يقول .

وكم عاجم عودى تكسّر نابهُ   إذا لان عيدان اللئام وخاروا

ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز، وكانوا كلما لوّحوا باشارة الرضا ازددت حسرة إلى حسرة ودمدمت

يُقضى على المرء فى أيام محنته   حتى يرى حسناً ماليس بالحسنِ

كان أولئك الجنود يخطرون بخيولهم على شاطىء السين وهم صاغرون، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوروبا وأذلوها فى القرون الوسطى أشنع إذلال، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير . كانت خطواتهم يومئذ خطوات عزة وكبرياء ، واستطاع شاعرهم أن يقول

سكنوا بأرض الزعفران وغادروا

أرضاً تربّ الشيح والقيصوما

فى الساعة الثالثة من صباح ١٥ يوليه

لقد نجوت بحمد الله من شر هذه الليلة فعدت سليم الجيب والعرض ، ولم أزعج الكرام الكاتبين بكثير من الذنوب

كانت الألعاب النارية على شواطىء السين تجمع إلى جمالها اكثر سكان باريس وكان فرح الجمهور فوق كل تقدير . وكان للحب وللشيطان نصيب عظيم . استغرقت الألعاب النارية أربعين دقيقة مرت كأنها ثانية واحدة . ولم يحشر الله جيوش الحسن والجمال والملاحة والرشاقة فى أى بقعة كما حشرها فى هذه البقاع السعيدة شواطىء السين

وقد قضيت نحو ساعة فى اختراق المسافة من القنطرة الجديدة الى قصر المدينة وهى تقضى عادة فى خمس دقائق . ولكن ازدحام الناس والسيارات أطال الطريق

قضيت أربع ساعات هائما بين اللاهين واللاهيات واللاعبين واللاعبات فى ميادين باريس . ثم عدت الى المنزل وحدى فى ليلة لا يبيت فيها وحدهً إلا كل صبور ، والنفس قد تطغى فتكون على صاحبها أشد خطرا من حكام الباستيل . وقديما كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول عند الرجوع من الحرب « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر جهاد النفس » أفأستطيع أن أهنىء نفسى بهذا النصر المبين ؟ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

أما بعد فهذه هى المرة الرابعة التى أشهد فيها عيد الحرية فى باريس ، فهل يقدر لى ان أشهد عيد الحرية الكاملة على ضفاف النيل ! لن يبعد هذا الامل وفى مصر رجال

عيد الملاح في باريس

شهدت اليوم عيد الميلاح وهو عيد تأخر عن موعده فى هذا العام انتظاراً لصفاء الجو ، وهو فى الاصل عيد دينى ، ثم تحول إلى عيد دنيوى ، لأن الدنيا غلبت الدين فى جميع البقاع ، وتكاد أعياد العالم كله ترجع إلى أصول دينية ثم تحولت مع الزمن إلى أعياد دنيوية ، فان الانسان فيما يظهر يؤثر العاجلة على الآجلة ، ولا يدرك كيف يصح التفريط فى الرغد الحاضر استبقاء لما وُعد به من نعيم مجهول . ولسنا بهذا ندعو إلى إيثار الدنيا على الدين ، ولكننا نثبت هذه الملاحظة لنسجل بعض التغيرات العقلية والروحية التى أثرت عن إخواننا بنى آدم الذين يزعمون أن الله شرف بهم الارض وفضلهم على سكان الماء والهواء

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن موطن الذهب الرَّغامُ

وبعد فما الذى رأيت فى موكب الملاح ؟

رأيت الجمهور الباريسى وقد اصطف شبابه وكهوله من رجال ونساء على جانبى الجران بُلفار . وازدحمت الشرفات والنوافذ والسطوح بالمتطلعين المترقبين لمفاتن الحسن وملاعب الجمال .

وما هى إلا لحظات حتى علا الضجيج والهتاف فى استقبال الموكب المرموق

هذه إذاً ملكات الجمال ؟ إى والله ، هذه ملكات الجمال ، وتلك هى الأذرع البضّة ، وتلك هى القامات المشوقة التى تفضح الغصون الرِّطاب ، وتلك هى البسمات العِذاب تُلقى فى سخاء لجميع المتفرجين فى عدل وانصاف ، فلا ظالم ولا مظلوم فى هذا اليوم المشهود !

أى جمال هذا ياربّاه !

لقد كنت أتهم فرنسا بالإقفار من الحسن فمن أين ظفرت بكل هذه الظباء ؟ ومن أى واد من أودية السحر استطاعت باريس أن تقنص كل هذه الشوارد لتعرضها على الناظرين فى مثل هذا العيد ؟

لقد كنت أعرف أن الحسن فى فرنسا شخت ضئيل ، وكنت أرثى للمرأة الفرنسية حين تمدد على السرير كعود الخِلال أو كالدمية المسخوطة ، أو كالمومياء تتقدم الينا من وراء التاريخ !

فما الذى جدّ فى مظاهر التطور حتى رأينا فى باريس فتيات لهن معاصم ونحور ، وقدود ونهود ؟

ما الذى جد فى عالمكم يا أهل باريس ، لقد أثرتم أشجانى بما عرضتم فى هذا اليوم ، وأنا رجل طالما نعيت عليكم فقركم إلا من بوادر الظرف والذكاء ، وطالما أسِيت لبؤس فتياتكم كلما تخطرت

فى شوارعكم عذارى فينا وبرلين !

أفى الحق أنكم تملكون مثل هذه الكنوز ؟ وهل فى منازلكم ومقاصيركم وملاهيكم أمثال لهذه الاجسام الفينانة التى ترد الحليم وهو غوىٌّ أثيم ؟ أأنتم إذاً تفهمون كما كان يفهم العرب والمصريون واليونان والرومان أن المرأة يجب أن لايقل حظها من جمال الجسم عن حظها من جمال الروح ؟

***

ويلاه ! ما هذا الذى تراه عيناى فى موكب الملاح ؟

هؤلاء صبايا يخطرن فى نضرة الزهر ، ورقة النسيم ، ولكنهن جميعا مسوقات للإعلان ! فكل سِرب منهن قد قُرن الى سيارة مزدانة بالأزهار والتصاوير فى سبيل التنويه بالمتاجر العمومية ، فهذه سيارة اللوفر ، وتلك سيارة البون مارشيه ، وهاتيك سيارة السماريتين ، وهذه عجلة سينما مونج ، وتلك عجلة مسرح بيجال !

أكذلك يُعرض الحسن فى سوقكم يا أهل باريس ؟

وقفت أتأمل هذا الحسن المعروض فى حسرات وزفرات، لأنى أعلم أن كل معروض مَهين، والحسن أجدر بأن يرفع عن مواطن الهوان

ثم مرّ بالنفس خاطرٌ بدّد من آفاقها سحائب الحزن : ذلك أن الجمال لئيم ، ومن ذا الذى يجهل لؤم أهل الجمال ؟

الجمال لئيم ، لانه لا يؤمن بغير الجاه والمال ، ونحن قوم لم

نرزق غير الشعر والأدب والخيال ، فلا حظ لنا ولا خَلاق فى دولة الجمال ، فليخضع الحسن صاغراً لاصحاب المتاجر والملاهى لأنهم يملكون منابع الثروة ، ولننظر اليه لاهين شامتين بما رزىء به من التسخير الشائن فى شوارع باريس

أيها الجمال !

أنت لا تعرف من يعبدك ، ولكنك تعرف من يملكك ،

أنت لا تعرف من يسهر ليله ويشقى نهاره فى التسبيح بحمدك ، والثناء على لألائك . ولكنك تعرف من يملأ جيبك ثم يسوقك فى مدارج الذلة بلا رحمة ولا إشفاق

أنت لا تعرف من ينسج فى سبيلك روائع القصائد والرسائل ولكنك تخضع فى ضراعة لمن يحوك لك مبهرج الأثواب ، فامض فى هوان أيها الجمال اللئيم إلى حيث يشاء اللئام من أرباب المال

أنت لئيم أيها الجمال ، ونحن مع ذلك نعبدك فى لؤمك ، وكم على ظهر الأرض من لئيم معبود !

أيكون معنى هذا أننا نعبد اللؤم طائعين ؟

هيهات نحن نعرف أن الحياة قست عليك ، ونعرف أن المال صير الأرذال آلهة يعبدون ، ومن أجل هذا نرحمك ، ونرثى لك ، لأن من حقك أن تعيش ، وعواطف الشعراء لن تعود عليك بنفع جزيل ولا ضئيل

وهؤلاء الفرنسيون الذين عُرفوا برقة الطبع معذورون حين يرون الجمال سلعة تباع فى الأسواق لأن الحياة قست عليهم كما قست علينا وعليك ، فليغفر الله للجميع !

***

عدت إلى المنزل الذى أقيم فيه بعد شهود موكب الملاح ، وكان همى أن أسأل معبودتى هناك كيف تخلفت عن ذلك الموكب المشهود ، ولكننى رأيت فى المنزل عجوزا فانية لم أرها قبل ذلك ، فما كدت أفتتح الحديث عن الحسن حتى ابتدرتنى قائلة: أين أنت يابنى من حقائق الحياة ؟ أتحسب باريس هى كل ماشهدت ورأيت فى الجران بولفار ؟ إن فى باريس عالماً آخر : هو عالم الجد أو عالم الحزن إن شئت ، فليس فى باريس غير قسوة الجد ومرارة الأحزان

صدمتنى تلك العجوز بهذه الكلمات ، غيرانى تجلدت واقبلت على معبودتى أداعبها فى نزق وطيش ، فعادت العجوز تقول :

دع هذا يابنى ، واستمع الى حديثى فقد عركت الزمان ، وعرفت ماستعرف من اهوال الوجود . ان الحسن الذى تتغنى به باب من ابواب الشر ، وانه ليجنى على اهله قبل ان يجنى على الناس واولئك الفتيات اللاتى سحرن لبك فى موكب اليوم ستكون لهن هموم واشجان (وعما قليل ليصبحن نادمين) فلا تحسب ان الدنيا

ستبقى على تلك البسمات ، أو سترحم سحر تلك العيون . إنها أيام ثم تصبح كل جميلة سيدة مسئولة ، بين طفل يتدلل ، وزوج يتحكم، ودهر يطغى ويجور !

ثم زلقتنى تلك العجوز ببصرها وقالت : أمتزوج أنت ؟

فأجبت : لا ، يا سيدتى !

وهنا انبرت تلك الصغيرة الفتانة وقالت : اخدع سوانا يامسيو مبارك ! لقد سألت عنك مواطنيك فأخبرونى أنك متأهل وأن عندك خمسة أطفال ! فلا تقل إنى خطيبتك بعد اليوم

فتراجعت وقلت : إنها دسيسة يامعبودتى ، وما أشنع ما يكيد المواطنون بعضهم لبعض حتى فى بلاد الغربة !

ثم صعدت إلى غرفتى وقد اقتنعت أننى فى باريس أشد جنونا من أهل باريس . فليرحم الله ذلك العاقل المجنون

٢٣ ابريل سنة ١٩٣١

قلب المرأة

فى أكثر الشوارع فى باريس توجد مقاعد عمومية يجلس عليها السائرون إذا أجهدهم المشى واحتاجوا إلى الراحة بضع لحظات. لهذا الغرض وضعت تلك المقاعد ، ولكنها تستعمل فى بعض الأحيان لأغراض ثانوية ، فمن العشاق من يستفيد من تلك المقاعد إذا جَنَّ الليل وأُسدلت عليها ظلال الأشجار . ومن الفقراء من لا مأوى له فيتخذ منها مأواه ويظل جالسا عليها بين النوم واليقظة حتى مطلع الفجر ، وليس له أن يرقد وإلا طرده البوليس . وقليلا ما تكون تلك المقاعد موعداً لصديقين يفضلان أن لا يكون ملتقاهما فى قهوة تكلفهما بضعة فرنكات على شرط أن يكون ذانك الصديقان من الجرأة وفهم حقائق الواقع بحيث لا يهمهما الاتهام بالفقر والافلاس. فقد رأيت من الأساتذة المحترمين من ينتظرون زملاءهم على تلك المقاعد فى حين أنه يندر أن يوجد من الطلبة والشبان من ينتظر رفيقا له هناك

ولهذه المقاعد مظهر آخر من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء ، فعندها يلتقى العمال الذين امتد بهم الزمن وطالت عليهم الحياة ، ومع كل عامل كيس كبير فيه الخبز والجبن ، وفيه كذلك كأس

وسكين وشوكة . وبجانبه قارورة كبيرة فيها لتر من النبيذ الأحمر ، ثم يجلسون فرادى وجماعات وقد طالت لحاهم ، واغبرت شعورهم ، وعليهم خِرق بالية قذرة قد تكون كل ما يملكون لدفع غوائل البرد الشديد

وما هى إلا لحظة يفتح العامل فيها كيسه ، ويكسر خبزه ، ويملأ كأسه ، حتى تدور به الأرض ، وينقله الشراب إلى عالم الأحلام . إذ ذاك تراه يسمر مع رفاقه فى لطف ودعة وانشراح ، كأنه رئيس الجمهورية ، أو كأنه لم يقض يومه فى حفر الأنفاق ، ونقل الاتربة ، وحمل الاحجار .. ولبعض هؤلاء العمال خليلات مساكين صح فيهن قول الشاعر

لكل ساقطة فى الحى لاقطةٌ   وكل بائرة يوما لها سوقُ

فتراهم أحيانا وقد جاس الرجل الاشمط الى خليلته الشمطاء يبادلها أطيب الأحاديث ولكن للهرم والشيخوخة حكم قاهر فى مثل هذه الظروف ، فقد يندر أن يجرى الضم والعناق بين العشاق الكهول مهما بعثهم الراح ، وهى تبعث الأموات . وكثيراً ماترى رجلا وامرأة يتطارحان الشعر ويتحدثان عن كورنىّ وراسين وموليير ، فتحكم بأنه كان لهما شأن فى العالم المهذب ، ثم طاحت بهما الأيام .

وما أنس لا أنس عجوزا فانية جلستْ الى رفيقها على مقعد

فى ميدان (نوتردام) فجلست قريبا منهما أسترق السمع وأختلس بعض أطايب الحديث ، فلمحت المرأة مكانى وأقبلت تسأل : أنت اسبانى يامسيو ؟ فقلت : لم تبعدى يامدام ، فقد كان لى فى اسبانيا أجداد ، وأنا اليوم مصرى . فاندفعت تتكلم بحماسة ولباقة عن الفراعنة وتاريخ قدماء المصريين ، ثم سألتنى عما أحفظ من الشعر الفرنسى فاجبتها بانى حفظت كثيراً ولكنى لا أستطيع فى اللحظة الحاضرة أن أنشدها إلا مقطوعات قليلة ، وكذلك كنت أنشد البيت الاول من القصيدة وأقف فتتمها هى بلا تحبُّس ولا توقف كانها تغرف من بحر . ولكن المسكينة كانت تخلط ذلك بخطرات من الجنون حملتنى على الانصراف قبل منتصف الليل ، وكانت مستعدة الى المضىّ فى الانشاد حتى الصباح !

وفى مساء الامس بجانب السين وبالقرب من قنطرة سانت جنفييف رأيت الناس مجتمعين حول مقعد من تلك المقاعد ، فنظرت فإذا امرأة تناهز الخمسين لايزال شعرها أصفر وفيه بريق ، وإن سقطت أسنانها جميعاً وظلت أشداقها خالية كثيرة التلافيف . وهى واقفة يهاجمها الناس وتهاجمهم ، ولكنها تخلط جداً بهزل ، وتنتقل فى حِوارها من فن إلى فن . وكلما فرغت من شوط من أشواط لجاجها مدت بصرها وعنقها وهى تقول : لقد دفعت ثمن

ماشربت . فماذا تريدون ! عجباً لكم ، لقد دفعت ثمن ماشربت، أنا أنا ، من دون أن أحتاج إلى مساعد ولا معين . فذكرتني بذلك المتحذلق الذى كان يقول وهو من غروره فى مثل سكرها : مالكم تكأكأتم علىّ كتأكأكئكم على ذى جنة ،افرنقعوا . أوكما قال !

وفى لجة تلك الفورة كانت تتقدم المسكينة الى بعض الشبان فتناوشهم فى شيء من اللطف ، فمنهم من كان يثبت ومنهم من كان يفرّ ، وفى النهاية صمد لها شاب يقارب الثلاثين وأخذ يلاعبها فى جِدّ يشوبه هزل ، ومضت الملاحاة بضع دقائق والناس ينظرون لاهين ضاحكين ، والمرأة تهزم حيناً وتنتصر حيناً ، وبين الهزيمة والانتصار تستسلم الى أحلامها وهواجسها فتتغنى وتتمايل وهى تدمدم : لقد دفعت ثمن ماشربت فماذا تريدون ؟

وأعجب مافى الأمر أن تلك المرأة كانت تتجنى على ذلك الشاب فتذكر أنه من بلد منحط وضيع وتصارحه بأنه من الجزائر . فكان الفتى يثور ويقول : إن بلادى أقدم حضارة ومدنية من بلادكم ونحن خير منكم . وكان ذلك يجرى ونحن نظن أن الأمر مزاح فى مزاح وماهى إلا لحظات حتى اشتد اللجاج . وكانت المرأة تقول : أنا أرى الجزائر فى وجهك . أنا أرى الجزائر فى وجهك ! ثم غُلبت على أمرها وفاضت عيونها بالدمع السخين

وفى سَوْرة تلك المعركة تقدمت سيدتان محتشمتان كل

الاحتشام حتى لتحسبهما من عقائل القاهرة ، وليس على وجههما أى أثر من آثار التلوين والتزيين ، إن كان بقى فى باريس امرأة لم تعرف تلوين الجباه والشفاه والخدود ، فنظرت فاذا تانك السيدتان تخطوان خطوات حَذِرة هيوب نحو تلك المرأة التى بدّد رشدها الشراب وهما يقولان : هلمّ الينا يامدام ، أين منزلك يامدام ، يامدام أين تسكنين ؟ فى أى شارع ومن أى حى ؟ حدثينا ، أجيبى ، نحن معك حتى تصلى هادئة مطمئنة . . . كل هذا والمسكينة لا تعيرهما التفاتة واحدة لشغلها الشاغل بتلك الحرب الشعواء . وفى النهاية تغلبت السيدتان وانتزعتا المرأة من أنياب اللجاج والخصام ، ومضتا بها إلى حيث تقيم . . . فعدت أتأمل كيف يتكون قلب المرأة وكيف تحنو على بنات جنسها فى ساعات البأساء والضراء ، وذكرت أن باريس مهما استسلمت واستسلم أهلها إلى الترف والفساد ستظل تحفظ فى أعماقها بقايا الرفق والعطف والحنان ، وأن العواطف الانسانية ستبقى سليمة فى صميمها مهما طغت عليها المظاهر وأخفاها لتمدن المصنوع .

وذكرت تلك القصة القديمة التى تحدثنا أن ملكا زعم أنه يستطيع أن يحول الخصال والطباع من حال إلى حال بالتربية والتعليم ، وان وزيره كان يخالفه فى ذلك الرأى ، ويحكم بأن الطبيعة هى الطبيعة لاتتحول ولا تتغير مهما لوّنتها ظروف الزمان والمكان

وكان من ذلك أن عُنى الملك بتربية القِط الذى كان يداعبه تربية خاصة حتى كان القط يحمل الشمعة ويقف بين يدى سيده وهو خاشع مطيع ، واستقدم الملك الوزير ليريه أن التربية والتعليم يغيران الطباع ، ولكن الوزير كان أدهى وأمكر حيث وضع فى جيبه فأراً صغيراً ، فلما كانت المحاورة بينه وبين الملك بشأن القط الذى يحمل الشمعة ألقى الوزير الفأر على البساط ، فرمى القط الشمعة وانطلق يعدو خلف عدوه الذى أعدته له الطبيعة !

مضت السيدتان بالمرأة إلى حيث تقيم ، إن كان لمثلها منزل تأوى اليه ، ولكن الحادث تفرعت عنه مشكلة : ذلك بأن الشاب الذى كان يلاحى المرأة عربىّ من الجزائر ، والمشاهدون للنزاع أكثرهم عمال فرنسيون ، والعربى الجزائرى فى زعم هؤلاء منحط وضيع ، فكيف يتسنى له أن يلاحى امرأة أثقلها السكر وفارقها الوقار ؟ وكذلك برز له اثنان يناوشانه بقارص الكلام ، وهو يلاحيهما ملاحاة الأكفاء ويهاجهما بمثل ما يهاجمانه : ذم بذم ، وسباب بسباب . لكن هؤلاء جماعة وهذا واحد فرد ، وهم فى بلادهم وهو غريب ! فوقفت أنتظر ما سيكون على أقف فى صف ذلك العربى المغترب إن جد الجد واحتدم القتال . وما هى إلا دقائق حتى فاض الشر فتقدم الفتى إلى خصومه وفى عينيه نار تتقد وقال لهم : إن كنتم تريدون الحرب فانا عند ما تريدون

وفوق ماتظنون ، وان كانت عزائمكم لا تتخطى السباب والفحش والاقذاع فأنا أنصح لـكم بالاقتصاد فان هذا سلاح النساء والضعفاء

كنت أظن عند هذا أن ستقع الحرب بالفعل ، ولـكنى لمحت العمال الفرنسيين تراجعوا وتقهقروا وقال قائلهم : نحن نلومك على أن تتعرض لامرأة فى سن الخمسين ، هذا ينافى الذوق ، هذه وقاحة ، شاب مثلك لا يحسن به أن يهاجم امرأة فى مثل تلك السن . أما الحرب فأنت تعرف اننا لا نجبن عنها . ولـكن . . ولـكن . . .

وكذلك وقفت المشكلة عند هذا الحد وانصرف الفتى الجزائرى وهو يقول : لعنة الله على الجبناء !

وبهذه المناسبة لايفوتنى أن أذكر للقارىء أن العمال التونسيين والجزائريين والمراكشيين لهم فى باريس نفوذ رهيب ، ولهم فى كل حى عصابات تشبه عصابات الصعايدة فى الاسكندرية ، أفأستطيع أن أقول بأن هذا النوع من التشرد المخيف يشبه أن يكون عدواناً بعدوان واحتلالاً باحتلال ؟

٨ اكتوبر سنة ١٩٣٠

معرض الازهار فى باريس

تفضل المسيو بلانشو فارسل الىّ دعوة الى حضور معرض الأزها فى الشانزليزيه على شاطىء السين ، وكتب مع تذكرة الدعوة كلمة رقيقة جاء فيها : « ولكن أسرع ياصديقى فان الأزهار سريعة الذبول » ؟.

أىّ كلمة هذه؟وأى قوة سحرية ثار بها قلبى حين قرأت هذه الكلمة ؟ لقد كنت أعرف كما يعرف سائر الناس أن الأزهار سريعة الذبول ، وكنت أعرف فوق ذلك أن هـذا معنى قديم لم ينفرد باثارته كتاب الغرب وشعراؤه ، فقد أثاره أحد شعرائنا الأقدمين حين قال :

عهدتك ذا عهدٍ هو الورد نضرةً وماهو مثل الورد فى قِصَر العهدِ

ولكنى تلفتّ إلى قلبى أبحث عما كان ثارفيه من أمانٍ وآمال كانت أندى وأعطر من الأزهار الغضّة فى أسحار الربيع ، ثم ذبلت وذَوَتْ قبل أن تعمر أعمار الأزهار . فكم من وعد جذاب اخلف قبل أن يمضى عليه يوم أو بعض يوم ! وكم من لقاءة حلوة حسبتها مَشْرق وصال فكانت مَغْرب وداع ! وكم برق من بروق الحب تألق ثم غاب ! وكم حلم من أحلام الصبابة بددت غفواته

صروف الحياة ! وكم لحظة من لحظات العتاب شهدها القمر وغاب عنها الرقيب ، ثم عصف بها الدهر فأدرجها فى أكفان الفناء ! وكم غفلة من غفلات العيش أويتُ إلى ظلالها فى طُمأنينة الطفل ثم ثارت من حولها العواصف فألقتنى فى وادى الخطوب!

ويحك ياقلبى ! تعال أقاسمك العزاء . فقد كنت نعم الصاحب ونعم الرفيق ، وانك لتذكر كيف كنت أحنو عليك فأطوف بك بين سعير الحب ونعيم الجمال، وتذكر كيف بكيتك يوم قل" خفوقك. وخف" وجيبك ، وإنك لأهل لذلك ، فقد عرفت بك معانى الحب والعطف والشوق والحنين ، فلأقف بجانبك أشاطرك ما جنت عليك الملاحة من ألوان العناء

« أسرع ياصديقى فان الازهار سريعة الذبول »

انى لأعود إلى هذه الكلمة فأذكر أن لى فى دنياى معارض من الأزهار تختلف عن معرض الشانزليزيه على شاطىء السين : فان هذا المعرض يقع فى أسبوع من بعض الفصول ثم يمضى وله فى نفوس مشاهديه ذكرى طيبة ، ولكنها سريعة الذهاب ، فقد تطغى عليها حفلة راقصة من حفلات المساء، والأزهارُ على جمالها لا يعرف الناس مالها من الأنفس والأرواح، فهم يشهدون ذبولها فى حسرات خفيفة لا يمكن أن تقارَن بحسرات من يشهدون أنات العليل . والازهار أضعف من أن تهم بقبلات النسيم ، وضمات التوديع ، وهى بعد

ذلك حُسنٌ مكرر تجود به الطبيعة ويسمح بلقائه الزمان .

أما معارض الأزهار التى يسوقها الينا الحب، وينظّم أحواضها وعيونها فى أودية الذكريات فهى فُرَص تعرض فى جميع الفصول ، ومن عجب أنها تكثر فى فصل الشتاء . وهى معارض تثير جوى القلب لأنها فى الأغلب تقيم دقائق أو لحظات ثم تغيب فلن يقال فيها « يقام معرض الأزهار من ٢٦ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر » حيث تمكن المشاهدة مرة وثانية وثالثة ، كلا فقد تكون لمحة مخطوفة فى المترو ، أو فى المسرح أو فى الملعب، ثم لا يمكن بعد ذلك قرب أو لقاء

ولهذه الأزهار أزهار الحسن والصباحة أنفس وأرواح ، فهى إلى نفوسنا أقرب ، وإلى أرواحنا أسرع، وقد تتلاقى النظرتان فيكون فيهما من التناجى والتشاكى والتعاطف معان دقيقة تلقيها العيون وتفهمها القلوب ، ثم يفترق المتلاقيان وقد نهلت قلوبهما من نمير الحب فى حال لم يقع فيها تعارف ولا يُرجى معاد ، إلا أن يقدَّر التلاقى فى عالم الأرواح

وأنت فى معرض الأزهار قد تشترى لوحة فنية تذكر بها مايفوت من أَرَج الزهر النضير ، ولكنك فى معارض الجمال لا تملك شيئاً من ذلك ، أو لا تملك إلا الحسرات الباقية فى حنايا الأحشاء . . وفى معرض الأزهار قد تقول : إلى اللقاء ! لأن كل وردة وكل بنفسجة ، وكل قرنفلة تلهى النفس عن نظيراتها فى عالم

الأزهار ، ولكنك فى معارض الجمال لا تقول : إلى اللقاء ! لأن النفس التى ألفتْ دراسة الجمال تعرف أن كل وحدة من وحداته لا تغنى عن نظيراتها فى عالم الجمال : فلكل عينٍ سِحر ولكل ثغر فُتون

ومهما تعشّق الناس الزهر فلن يأرق لهم من أجله جفن ، ولن يقض لهم مضجع ، لأنه إن مات فسيبعث من جديد ، أما الجمال فحلم مشرّد يذهب فلا يعود . ولقد أعذر من قال

قالوا عشقت فقلت كم من فتنةٍ لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذى خلق الملاحة لم يشأ إلا شقائى فى الهوى وبلائى (١)

***

معذرة إليك أيها القارىء : فقد شغلتك بنفسى وإنى لعائد إلى موضوع الحديث

أول ما يلفت النظر فى معرض الأزهار أنه أقيم فى اللحظة التى يفصل فيها بين الخريف والشتاء . فكأنه تذكِرةٌ لما مرّ من أيام الصحو ، وتوديعٌ لأيام الشعر والخيال . وكأن الذين أقاموه أرادوا أن يحشروا فى صعيد واحد ما تفرق من بقايا الزهر ليستطيع شعراء الطبيعة وعشاقها أن يصافحوها للمرة الأخيرة من هذا العام على شاطىء السين

وهو كذلك دلالة على مهارة الجنّان الفرنسى ، فهو يعرف كيف يغرس الأزهار وكيف يعدها لمواجهة الزائرين فى يوم

(١) من شعر المؤلف

معلوم . وغرسُ الحدائق وتنسيق البساتين فن من الفنون العالية التى يشغل بها أصحاب الأذواق فى الغرب . وحسب القارىء أن يعرف أنه كان فى هذا المعرض مئات من الكتب القيمة فى تربية النحل والطير والأزهار والأشجار ، وليس من الحرج فى شىء أن أقول إن ما ألفه الفرنسيون فى هذا الباب يربى بكثير على ما ألفته أى أية من أمم الشرق الأدنى فى أهم ما يعنيها من الآداب فى نحو قرن من الزمان. وليسمح لى أن أقول إن كلية الطب المصرية لم تنتج فى نيف ومائة عام عشر ما أنتجه البستانيون الفرنسيون فى نحو عشرة أعوام

ولست بهذا أريد الغض من الجهود المصرية ، ولكننى أريد أن أوقظ من طال عليهم السُّبات ، فقد أصبح من العار أن نعلل أنفسنا بأننا أمة صغيرة العدد وأنهُ يكتفى منا بالقليل . هذا خطأ فان الجمهور المصرى كاد يقارب نصف الجمهور الفرنسى . على أن الأمم لا يقاس جهدها بالعدد . ولكنه يقاس بالحذر والحرص واليقظة والطمع فى امتلاك نواصى المجد . ونحن نملك أخصب الأراضى فى العالم ، ولكننا حين نقيم معرضا للأزهار يكفينا بهو من أبهاء فندق سميراميس ، على أن فينا مع الأسف الشديد زهادة تامة فى استغلال الأرض ، ولا نكاد نعرف من أنواع الفواكه والأزهار والبقول غير أنواع معدودات ، ولا

يهوى الى مدرسة الزراعة إلا الطلبة الذين عُرفوا بالتخلف فى الحياة المدرسية، مع استثناء من أعرف من الشبان الأذكياء، وفى هذا دليل على أننا نُقبل على الطبيعة بقلوب تُعوزها الحرارة وسواعد ينقصها النشاط . والشعر العالى الذى يوجد فى عوالم الزراعة بعيد من أذهاننا ، فقليل من طلبة الزراعة فى مصر من يدرك أن ليلة مقمرة فى سهول الريف أحفل بالشعر والموسيقى والغناء من ليلة صاخبة فى ملاهى القاهرة . وما أريد أن أزيد !

يرى الزائر أول ما يرى فى ذلك المعرض أودية مهندمة من الأشجار المثمرة ولكل طائفة منها وضع خاص يروع الذوق وهى تريك مبلغ مهارة الانسان فى تهذيب الطبيعة ، وكيف يمكنه أن يروض الأشجار على مسايرة الأوضاع الهندسية بحيث يصبح الشجر مَخْدع زينة ومجنى فاكهة . والقوم هنا يريدون أن يملؤوا الصور المادية بالحقائق المعنوية ، ففى كل شجرة سرّ ، ولكل حوض روح

وقد صُفّت الفواكه من كل نوع على جانبى كل ممر من ممرات المعرض بطريقة مغرية فاتنة تقنعك بأن من الضّعة أن يعيش الانسان على الخبز والماء ، على حين أنه لو جدّ ونشط لعرف كيف يحيا من فضل ما تنتج الحدائق والاعناب

وفى كل ركن من أركان المعرض تقوم مدارس صغيرة تعلمك

كيف تصنع بنفسك مربّيات الفواكه ، وكيف تربى النحل والطير وكيف تقى الزهر آفات الجو ، وكيف تحرث الارض بمحاريث دقيقة ، وكيف تجنى ، وكيف تحصد ، وكيف تنقل الماء إلى المشاتل والاحواض

وكم تمنيت لو أُتيح لى أن أرى كيف صُفّت أزهار المعرض، فانها وضعت بحيث يظن الرائى أنها هكذا خلقت ، وأنه لم يقم بتنسيقها إنسان ، فحيثما تلفتّ فسهول مبسوطة قام فيها البنفسج والقرنفل والشقيق ، أو نجود عالية تسامت اليها الأزهار فكستها فى رفق وحنان

وما أنس لا أنس كيف لاحظت أن الحظوظ تصيب الازهار كما تصيب الرجال ، فمن الازهار ما كان حظه ان لامَسَ الارض فوجد بذلك سبيلا الى النضرة والنماء ، ومنها ما كان حظه أن يوجد فى تربة صناعية مجتلَبة فكان يجاهد فى مطاردة الذبول .

كان معرض الأزهار شعراً كله ، وما كان ينقصه إلا الندى فقد وضعت من فوقه سقيفة من الزجاج حالت بينه وبين أنداء السماء : فصار بذلك كالعروس بين الستائر والحجال

***

ولقد رأيت أن أتأمل مايصنع المشاهدون فى مثل هذا الجو العَطِر ، ورأيت الرجال يكثرون لحص الاشجار المثمرة ويجمعون

ما تناثر حولها من الاعلانات ، ويوغلون فى الأبراج المشيدة لتربية النحل والطير ، ويقبلون على الكتب التى وضعت فى أروقة المعرض. أما النساء فكن يجتمعن حول الفواكه فى حماسة دونها حماسة الفتيان فى تعقُّب أسراب الفتيات، وكن يكثرن فحص الزهريات وأدوات صنع المربَّى . ومنهن من كانت تقبل على مشاهدة ما كان هناك من صغار التماثيل

وقد رأيت ثلاثة رجال يدرسون المعرض بعناية فسألتهم السماح بمصاحبتى لهم لأرى كيف يدرسون وكيف يفهمون ، فانا رجل فلاح ولى حديقة مثمرة، ولكن الجنَّان المتواضع الذى أقمته فيها يستفيد من غربتى فيقيم المواشى فى جانب ويبذر البرسيم فى جانب ! وكذلك يكون الفلاح ابن الفلاح

ولكننى لم أستطع الصبر أكثر من ساعة . ثم انصرفت عنهم بعد التحية والثناء ، وعدت أتأمل وحدى خمائل الأزهار . وبعد لحظة عدت على نفسى باللائمة . ولكنى اقتنعت بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لاتعطى سرها إلا المرجل المنفرد ، وهى أشبه بالغوانى تنفر من الصاحب والشريك

وقد أعيانى التعب من فرط التأمل ، فاكتفيت فى النهاية بنظرة باكية ودّعت بها الزهر المهدّد بأرواح الشتاء، وخرجت أتأمل المعارض الحية فى أحياء الشانزليزيه بقلب مقسَّم محزون

وإنى لأكتب هذه الرسالة فى نفس اللحظة التى تُقَوَّض فيها خمائل المعرض ، وأكاد أشهد من وراء حجاب كيف يُقبل العمال بسواعد قوية فيجمعون الأزهار أكداساً أكداساً بلا رحمة ولا حنان إلى حيث تُلقى ذابلةً فى تيار السين

فاليك يا مرتعَ النواظر بالأمس أقدم التحية ، تحية شاعر مغترب ، مفطور القلب لمصرع الزهر النضير ، ولو ملكت فى تكريمك غير هذه السطور لقدمت نفسى فِدية خالصة فى عالم قلّ فيه من يفدى الجمال

باريس فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٠

من غربة الى غربة

بين القاهرة وباريس

صديقى فؤاد

كتبت إلىّ تقول : « فى مصر فراغٌ لغيابك . وفى قلوبنا شوقٌ لحديثك » فهل لك أن تعيرنى قلبك لحظة واحدة لأحدثك عما فعل فى نفسى خطابك الجميل ؟

إنك لتذكر كيف كنت أعيش فى مصر، وتذكر كيف كانت تمضى الأيام والشهور ولا تُتاح فرصة صغيرة أتحدث فيها إلى صديق أو أذهب إلى حفلة ساهرة ، أو أشهد منظراً من مناظر اللهو والطبيعة على ضفاف النيل . وأصدقائى الذين يراسلوننى فى باريس هم أنفسهم الذين كنت أراسلهم فى القاهرة على قرب المزار ، يوم كانت أعمالى لا تسمح بملاقاة من فى طريقى منهم بالقاهرة أو من يجاورنى فى مصر الجديدة ، ويوم اطّردت الشواغل اطراداً مزعجا لا يترك فراغا فى صباح ولا هدوءاً فى مساء .

ولكن هل من الحق أن ضرورات العمل والجد هى وحدها التى كانت تحبسنى فى قفص من حديد ؟

ما أظن ذلك ، فقد كانت هناك ساعات مختلسة أقضيها على

الشواطىء وفى الحدائق ، وكانت هناك لحظات يومية أقضيها فى المترو صباحا ومساء ، وكان فى هذه وتلك ما يكفى لمتعة النفس ، وطمأنينة القلب ، وراحة الروح . فهل أجدى ذلك علىّ شيئاً ؟

وهل غيّر من قَلَقى واضطرابى ؟ وهل نقل نفسى إلى قرار أو سكون ؟

الحق أن المشكلة الباقية الخالدة هى أزمة القلب . فانى لا أعرف أشقى من ذلك الصاحب الذى يسكن بين الضلوع ، إنه صاحب ولكنه فى الوقت نفسه عدو وحبيب ، قد سعدت به وشقيت ، ومتّ وحييت ، وأنا به بين حزن دائم وفرح مخطوف . ولا أستطيع أن أصف لك كدر الساعات التى كنت أقضيها على شاطىء النيل فى هدآت المساء ، ولا تستطيع أن تقدر كيف كان انقباضى وضجرى من مناظر الرائحين والرائحات ، والغادين والغاديات ، على ذلك الشاطىء الخالد الذى شهد ماشهد من وَثَبات النفوس وخَفَقات القلوب فى مدى مالا يعلم إلا الله من طوال الأجيال

فهل يمكنك أن تقدر أن ذلك كان مرجعه إلى خِذلانٍ فى الحب أو إخفاق فى المجد ؟

أنا لا أحسب ذلك : فإنى رويت من الحب ريًّا لا ظمأ بعده ، ولم أترك لغيرى غير أوشال ، وكلما أرسلت الخاطر لأشهد ما كان من غفلات الصبا وغوايات الشباب عدت وأنا قرير العين ، جذلان الفؤاد

والمجد ؟ أنا لم أخفق فى سبيل المجد يوما من الأيام حتى اقول مع الطغرائى .

ما كنت أحسب أن يمتدّ بى زمنى   حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتنى أناسٌ كان شوطهمو   وراء خطوىَ لو أمشى على مَهَل

وأوضح من ذلك أنى أخطو فى سبيل العلم والأدب خطوات هادئة طبيعية ، لم يلهبها حِقد ، ولم تشعلها منافسة ، ولم يجر فى خاطرى يوماً أن أُسرع الخطا لأسبق هذا أو ألحق ذاك . وما شعرت — يشهد الله — بالحقد على متقدم أو الشماتة بمتخلف.

وقد تدهش إن حدثتك أنى أنظر إلى الشهرة وبعد الصيت بعين يسودها الحياد منذ جئت إلى أوربا فى سنة ١٩٢٧ فوجدت الدكتور سنوك قد نشر عنى رسالة باللغة الهولندية ولقينى المسيو ماسينيون فهنأنى وأخبرنى أن الدكتور سنوك قلما يفعل ذلك ، فوقفت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف إلى أى حد وصل بى الارتياح ، ثم لم أجد الا فراغا مطلقاً . وفى كثير من الأحيان يلقانى أفراد من الأجانب الذين يهتمون باللغة العربية فينشدونى شعرى فأقف أتأمل أثر ذلك فى نفسى ثم لا أجد أيضاً إلا فراغا مطلقاً. وقد اقتنعت بأن الصيت والشهرة لا يعدوان أن يكونا من الخرافات فإنه لا أثر لهما فى نفسى وأنا حى ، فكيف أهتم بما يكون لهما من الأثر بعد الممات !

أضف إلى ذلك أنى مقتنع بأنه لا يشقى نفسه فى سبيل الشهرة والصيت غير صغار الناس ، فهناك أفراد لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا حيث ينتظرون الجزاء . وكم شهدت من أناس يقتتلون حول الشهرة ، وإن الرجل منهم ليصفرّ وجهه وتأخذه الرعدة والقشعريرة حين تقع عينه على كلمة هوجم بها أو لوم وجّه إليه . وكم رأينا من أذلاء لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أدعياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال هذا مؤلف بارع ، وذاك كاتب مجيد ، وذلك شاعر بليغ ! وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع : فلتعرف إذن أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف : اصنع معروفا واكتب لنا كلمة فى تقريظ كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ومنذ ذلك اليوم أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية : إذ أعرف أن أكثر التقاريظ من وضع المؤلفين

أنا قليل الرغبة فى سماع الثناء وقليل الاهتمام بما يوجه إلى من نقد ، وإنى لأعرف أن هناك ناساً ينبحوننى كلما ذُكرتُ عندهم أو جريت فى خواطرهم كما تنبح الكلاب القمر حين ترى خياله على صفحات الماء . وفى يقينى أن الرجل كل الرجل هو الذى يهتدى بوحى ضميره غير مأخوذ بلوم أو ثناء

فما عسى أن تكون تلك الوحشة القاتلة التى لا تفتأ تغزو قلبى وتفتك بأحشائى ؟ وما مصدر تلك الأشجان التى لا أتذكرها إلا فزعت يوم كان المترو يشارف محطة الحمامات ثم يغادرها إلى كوبرى الليمون ، وأروع ما كنت أقاسى فى تلك المنطقة كان يقع فى اللحظات الدامية لحظات الغروب حين تواجهنى الشمس بتسليمة التوديع ، والشفق من حولها يشبه الخدود الداميات، إنها لحظات مفزعة مخيفة كان قلبى يجتازها فى وَجيب وخفوق ، وكنت فيها أشعرَ الناس إن كانت حقيقة الشعر أنه وجْدٌ وإحساس لا قوافٍ وأوزان .

وليست تلك اللحظات على قسوتها بأقلّ خطراً من الساعات التى أقضيها بعد العشاء على شواطىء السين فى هذه الأعوام ، وإنى لأشعر أن هذا النهر يدرك ما بينى وبينه من علائق وصلات : فأنا فى باريس غريب ، وهو فيها كذلك غريب ، فقد يندر أن يرى هذا النهر ساهراً غيرى يمشى وحده فى سكون الليل من قنطرة إلى قنطرة ومن شاطىء الى شاطىء كأنه موكل بمراقبة السفن وعدِّ الأمواج !

وما أحسب نهر السين رأى قبلى من يتلمس روحه وأسراره فيصغى إلى خريره فى قنطرة أوسترليتز ثم يسافر ليسمع هديره فى رُوان . على أننى لم ألق منه شيئاً من الجزاء : فقد كنت ولا أزال أسايره بنفسٍ حيرى وقلب محزون

ماهى إذن أسرار الغربة التى أعانيها فى القاهرة وأقاسيها فى باريس ؟ انها لاترجع إلى خذلانٍ فى حب ولا إخفاق فى مجد، أتظنها ترجع إلى غدر الأصدقاء ؟

اللهم غفراً! فأنا لا أحفظ عن أصدقائى غير الجميل . ويضاف إلى ذلك أنى لم أقدّر فى حياتى أن الصداقة مما يوضع فى موازين المنافع، إنما الصداقة علاقة روحية تُبنى على أساس الصدق والاخلاص ونسيان النفس ، ولم يقع مايكدر صفوى غير أحداث صغيرة مرت بالقلب ومضت كما تمضى آثار النسيم على وجه المحيط ، وكان مبعث الأسى أنى كنت دائماً أفترض أصدقائى من الملهمين الذين يعلمون ما كان وما سيكون من أسرار النفوس ،ثم كنت أتلفت فجأة فأجدهم كسائر الناس يستمعون اللغو ويصدقون الأراجيف .هنالك كنت فأحزن وآسى ، ولكن حزنى ما كان يقع لأنى علقت بأصدقائى أملا ضاع، إنما كان حزنى وأساى لشعورى بالغربة فى عالم الأرواح ، فأنا رجل أفهم أن الصديق ينبغى على الأقل أن نُوفّر عليه أتعاب المحاماة فى الدفاع عن نفسه لدى الاصدقاء ، وأفهم أن الصديق لا يُنتظر منه فقط أن يتغاضى عن هفوات صديقه ، إن كان له هفوات، بل يجب أن تعمى عينه وتصمّ أذنه ان وجد ما يوجب تعقب الأصدقاء المختارين

وأشد ما يزعجنى أنى مريض بالوفاء،وأرى من النذالة والخسة وحقارة النفس أن تكون الصداقات كالأثواب تغير تبعاً للأيام

والفصول، ويتخذ بعضها للأفراح وبعضها للأحزان، وأربأ بنفسي أن يقال: هذا صديقٌ غدَر وصاحبٌ خان!

ويعز عليّ أن يحرم صديقى من مناصرتى ووفائى، ولكن كيف وأنا رجل لا عمّ لى فى الحكومة ولا خال؟ ألا فلتعلم أنى أعتقد أن البر لا يوجد إلا حيث أُوجد، وأن الصداقة لا تكون إلا حيث أكون.

وأعتقد فوق ذلك أن الصداقة الصحيحة هى النعمة الباقية، والعز المقيم، من أجل ذلك يعز عليّ أن يُحرم صديق من وفائى وإن تغير وحال. وكم حملنى الواشون على مهاجمة بعض الناس، ثم عزّ عليّ أن أكون أقلّ رفقاً وعطفاً من كثيّر بن عبد الرحمن إذ يقول:

وما أنا بالداعى لعزةَ بالجوَى ... ولا شامتٌ إن نعلُ عزّة زلَّت

فلا يحسب الواشون أن صبابتى ... بعزة كانت غمرةً فتجلَّتِ

وإنى وتهيامى بعزة بعد ما ... تخلَّيت مما بيننا وتخلَّتِ

لكالمرتجى ظل الغمامة كلما ... تبوَّأ منها للمقيل اضمحلت

كأنى وإياها سحابة مُمحل ... رجاها فلما جاوزته استهلت

وعساك تذكر أنى كنت فى صف الحزب الوطنى حين كان يهاجم سياسة سعد باشا طيب الله ثراه، ألا فلتذكر أن حماستى كانت تفتر فى مهاجمة ذلك الرجل حين ألمح فهمه للصداقة وحرصه

على الأصدقاء ، فقد كنت أرى فى ذلك الجانب كل معانى النبل وجميع دلائل الرجولة والإخلاص ، فان الرجل الذى لايخلص لصديقه لايعرف كيف يخلص لوطنه ، لأن العواطف متشابكة الأصول والفروع يمدّ بعضها بعضاً . وقد عابوا عليه رحمه الله أنه صرح بحرصه على إيثار الأقرباء . وأنه قال : لو استطعت لأقمت دولة زغلولية لفظا ومعنى ودماً . وفاتهم ما فى الصراحة من معانى الشمم والشجاعة والإباء فان كل رجل فى الدنيا يتمنى لو استطاع أن يكوّن من أقربائه أمةً موحَّدة ، ولكن أين من يجد من قوة نفسه وصراحة يقينه ما يساعده على مثل ذلك التصريح

والرجل لم يكن طاغية حين قال ما قال فانه علل فكرته تعليلا يُقره العقل والذوق حين صرح بأنه يقرب من يثق به ويعتمد عليه

والذين عابوا على سعد باشا إيثاره لأصدقائه وأقربائه لم يستطيعوا إقناع أحد بأنهم بَرَرة أطهار . فقد كانت لهم مآرب وأغراض ، ولم يكونوا يؤثرون من يؤثرون وَفقاً للنزاهة الأفلاطونية . بل التبس عليهم الأمر فكانوا لايفرقون بين العدو والصديق ، لأنهم لم يصادقوا غير أنفسهم ومنافعهم ، ولم يقتربوا من أحد أو ينفروا منه إلا وفقاً لما لهم من كيد مدفون ، أو حقد مكنون

وأعود إليك يا صديقى فأخبرك أن الأزمة الباقية هي أزمة

القلب: فقد فهمت كل شىء، وعرفت كل شىء، وبقى قلبى كالغابة المجهولة فى ضمير الظلماء، فان قلت لك إنى أشكو خيبةً فى الحب أو إخفاقاً فى المجد، أو غدراً من الاصدقاء، فاعلم أن هـذه كلها محرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول، وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الاحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا مافى أنفسهم من القلاقل والثورات

وأنا لم أنجح فى شىء من ذلك، لان استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات أوحزب من الاحزاب: فأنا عند أنصار الحزب الوطنى شعبىٌّ يناصر الوفديين، وعند الوفديين خيالىٌّ يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب

وأنا بين المؤمنين ملحد، وبين الملحدين مؤمن، وأنا برٌّ عند الفجار، وفاجرٌ عند الابرار، فأنا فى كل بيئة أجنبىٌّ وفى كل أرض غريب

وهنا يكون الفزع الاكبر إذ أعود إلى قلبى وجها لوجه، وهو قلب خَطِر. والموت عندى أهون من مواجهة مافيه من أهوال وخطوب فليت شعرى أين المفر؟ ومتى يكون القرار؟

ويرحم الله المتنبى إذ قال:

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة؟   وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يُسمى

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

ذكرى الزهراء

كتب مراسل (الأمى دى بيبل) فى مدريد رسالة عما شاهده فى معرض الفنون هناك، وقد دارت بينه وبين أحد الاسبانيين محاورة عن مناوشات الملكيين والجمهوريين فجاءت فى حديث الاسبانى الكلمة الآتية :

« ولكن برشلونه ليست كل اسبانيا وليست قهوة الزهراء كل مدريد »

قهوة الزهراء ! أى ذكرى تثيرها كلمة « الزهراء » من معالم الفردوس الاسلامى المفقود ! ومن العجيب أن كلمة « الزهراء » فى نطق الفرنجة أوضح من كلمة « الحمراء » عند بعض المصريين الذى يسمون بعض معالم الغناء فى القاهرة والاسكندرية « الهمبرا » مجاراة لتحريف الاوروبيين ، وكان أولى لهم لو نطقوها « الحمراء » ولكنهم لا يعرقون !

لقد مضى كثير من العهود القديمة ، والناس يذكرون فقط أن مُلك العرب بالاندلس كان عهد عظمة للاسلام ، ولا يذكرون بجانب ذلك أنه كان متنفسًا للشرق كله بدون نظر إلى الديانات والاجناس ، فمن لأهل الشرق من يغنيهم هذا البيت الحزين :

لم أبكِ أطلالك لكننى   بكيت عيشى فيك إذ ولّى

أيام البحر ولياليه

باريس فى ١١ يونيه سنة ١٩٢٨

صديقى . . .

أيدهشك — وقد تغير مابينى وبينك وعصفت العواصف بذلك الود الوثيق — أن أكتب اليك من هذا البلد النائى البعيد ؟

لاتدهش ياصديقى ، فأنت تعلم أنى رجل لا أستطيب الحياة إلا إذا وجدت قلباً يخفق بجانب قلبى ، ولست والله بناسٍ أيامك وعهودك : حين كنت تفيض بالبر وتذخر بالحنان . وانى لعاذرك فيما اجترحت من القطيعة وما جنيت من التغاضى ، فقد تغير أو كاد من كنت أحسب أن ستغيض البحار وتزول الجبال ، قبل أن يغيض الود من صدره ، وقبل أن يمر بباله أن مابيننا عرضة للزوال

وانى لأحمد الله على أن وجدت أصدقائى لايعدمون المعاذير حين يقدمون على هدم ماشقيت فى بنائه من صروح الوداد ، فان أشد ما أخافه وأخشاه أن يتبينوا أنهم أساءوا إلىّ بغير حق ، فيجدوا فى قلوبهم مسّ الحزن ومرارة الندم الوجيع ، وانى

ليسرنى أن تهدأ حرارة الاخلاص فى صدور الذين أعزهم ، وأحنو عليهم ، وأضمر لهم أجمل الود وأصدق الوفاء ، فليس يرضينى أن يقاسوا الذى أقاسى ، وأن يبيتوا معذَّبين بفضل ما قدموا من صدق الولاء ، فقد علمتنى الأيام أن الاخلاص قد يكون جريمة ، وأن الوفاء قد يفتح لصاحبه باب الخيبة والحرمان

فإن كنت فى ريب من ذلك فاذكر كيف يؤوّل النبل وكيف تُفسّر السماحة عند بعض الناس ، فقد رأيت من يعد الحياء ضعفا ، ومن يرى ضبط اللسان حَصَراً وعِيّاً ، ومن يضيف المجاملة إلى التملق والرياء ، ورأيت من يحسب أنك لا تفى له — حين يكون الوفاء من سجاياك — إلا لأنك ترى أسباب رزقك تحت رحمة رضاه ، وبفضل هؤلاء فهمت لأول مرة قول أبى فراس :

وفيتُ وفى بعض الوفاء مَذلةٌ ... لانسانةٍ فى الحىّ شيمتها الغدرُ

ومالى أبعد وفيك وحدك أصدق الشواهد وأصرح الامثال ، أفتستطيع أن تخبرنى ماذا تملك من ضرى ونفعى وأنا أحفظ عهدك ، وأنسى غدرك ، منذ عُقدت بيننا أواصر المودة طوَال مالا أدرى كم أعدّ من السنين ؟ انك تعرف انك لا تملك لى ضراً ولا نفعا ، ولعلك تجد كثيراً من الجهد والمشقة حين تحاول تعليل ذلك العطف من رجل لا يخشى بأسك ، ولا يرجو خيرك ، ولا ينتظر أن تغير الايام من طبعك فتكون من الصادقين

وكل ما أرجوه أن لا تذهب بعيداً فى جورك وظلمك ، فان لك ساعات من النحس تحملنى فيها عامداً على مخاشنتك وتكاد تفلح، ولك الويلُ إن أفلحت فى إثارتى إلى سخطك ، فإن لمحة من بوارق الغضب إن غضبت لكافية لسحقك ومحقك وتبديد ما انتظم من أحلامك حين آثرت أن تجنى على من لا ذنب له ولا تفريط فيه ، اعتمادًا على أنك فلان بن فلان!!

وما أنس لا أنس تلك اللحظات المظلمة التى تثور فيها نفسى وأكاد أهمّ بالبطش بك وأرمى بأيامك وعهودك فى هاوية من العقوق ، ثم يتراءى وجهك المشرق وكأنه لبغيه سماء شاتية مثقلة بالسحب السوداء ، أو قلب جاحد رماه الغىّ بأوزار الضلال !

***

ومهما يكن من شىء فقد ابتليت بك فى دنياى ، وأبى وفائى إلا أن أظل أسيراً يمقت الحرية ويفزع من التفكير فى يوم الخلاص ، فاستمع إذاً حديثى إليك فقد يكون فيه عزاء لقلبى أو عطف لقلبك ، وسبحان من لو شاء لفجَّر الصخر بالماء النمير

***

خليت مصر منذ أسبوع وخليت ورائى فيها هموماً مريرة أثقلت كاهلى وأمضَّت عيشى وراضتنى بعد الجموح ، وكنت أحسبنى أقسى وأصلب من أن أعترف بأن فى الحياة غيوماً تحجب

شمس النعيم من حين إلى حين ، ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عيني لفراق الاسكندرية ولم يخفق القلب لفراق الوطن العزيز ومرت بالنفس طوائف من الذكريات الحزينة تمثلتُ فيها كيف شقيتُ بأهلي وأصدقائي ، وكيف ضنّ وادى النيل بنفحة من نسمات البر على من يشقى ليسعد ، ومن يفنى ليقدم له أسباب الخلود . ثم أخذ قلبي يذخر ويفيض بألوان من الحزن الثائر العنيف إلى أن غابت معالم الاسكندرية وشيعتها بهتاف الوداع ، وكم فى الدنيا من ظالم محبوب !

ثم ماذا ؟ هذا جرس يصلصل ، وهذه أفواج من المسافرين تمضى إلى الغداء ، وانا كذلك أمضى إلى حيث يمضون بين الفتور والنشاط ، ولكنى ألفت منذ أزمان أن أهتمّ بغذاء عينى وقلبي وروحى ووجدانى ، قبل أن أهتم بما تطلب الامعاء ، فأخذتُ أترقب وأنتظر حتى أعرف من جليسى المختار على المائدة ، ووقفت بعيدا ادرس الوجوه والشمائل ، وأتعرف مواقع الحسن فى اعطاف من تقل السفينة من أسراب الظباء ، وما هى الا لمحة حتى وقع طائر قلبي على فتاة جسمها ريّان فينان كأنها من صبايا دمياط ، ويالوعة القلب من صبايا دمياط ! وما كادت تختار مكانها من المائدة حتى رأتنى أمامها وجها لوجه وكأننا رفيقان يلتقيان

لا تسل كيف طارت هموم صدرى فى تلك اللحظة ، وكيف

محا ذلك الوجه كل ما خُط بقلبي من سطور الشجون ، وكيف تناسيت ما رمانى به اصدقائى من سهام العقوق ، وكيف اقبلت أسألها من هى ، وفى اى عش درجت ، ومن أى نبع رويت . وقد عرفت انها فرنسية نزحتْ إلى مصر ، فأقسمت لها ان خصوبة جسمها هبة من هبات النيل ، وان مصر لذلك جديرة بالتقديس

ثم كانت فى البحر ليال وايام استطعت فيها ان استبد بذلك الغصن الرطيب ، واستطاع شيطانى ان ينفرد بها فى ساعات الرقص فلم يخاصرها أحدٌ سواى ، ورأيت بعينى كيف يكون الحب والعذاب فى حياة قصيرة لا تزيد عن خمسة ايام فوق بحر الروم

ولكن أتدرى ما الذى وقع بعد ذلك ؟ لقد وقع انْ اخذنا نتناجى فى اليوم الخامس ، ونراجع ماكان من حياتنا وما نرجو ان سيكون ، فعرفت ، ويا هول ما عرفت ، انها ليست حديثة العهد بالنضال ، وانها صرعت بمصر كثيرا من النواب والوزراء ، فانقبض صدرى ، واستُطير فؤادى من الفزع . فجزعتْ وقالت : ما خطبك ياسيدى ؟ فأجبت فى هدوء مصنوع : لاشيء يامولاتى ولكن لا يرضيني فى هواك ان اكون الشهيد الأخير ، وان كان فى ميدان الضحايا مُتَّسَعٌ للجميع !

أرواح الذكريات ؟!

صديقى . . .

أَنت تحيا حياة طيبة فى دنيا فاتنة مملوءة بالرغد والرفاهية وطيب العيش ، ولك من شبابك ومالك وجاهك ما كان لعمر بن أبى ربيعة ، طيب الله ثراه ، ومنحه فى أخراه ما منحه فى دنياه ! لذلك يقل اهتمامك بالذكريات ، والتطلع إلى مافات . أما أنا فرجل مكدود لا يتاح لى طيب العيش إلا بمقدار ، لذلك تراني أُبدىء وأُعيد مالقيت من الطيبات فى اللحظات الخاليـة ، ولا أقول فى الايام الخالية ، لانى لا أذكر يوما طاب لى كله ، ولا اذكر انى عرفت كيف يكون الصَّبوح والغَبوق فى يوم واحد أو ليلة واحدة. ولعل هذا هو السر فى أنى أعرض أحيانا لبعض الجوانب الحسية من متعة الحياة فأصفها بِشَرَهٍ وافتراس كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كانها آخر ماسيلقى من طيبات دنياه !

فلا تعجب إذن ياصديقى إن رأيتنى أعود إلى ماصفا من أيامى فأتذكر ماوقع فيها من الغفلات الحلوة العذبة التى يمر طيفها بالقلب فيبدد مافيه من سحب الهم والاكتئاب . وعساك تذكر تلك

الايام العصيبة أيام الدراسة حين كنت توصيني بأن أضع فى كل ركن من أركان غرفتى خريطة وافية لأجزاء العالم القديم والجديد حتى تنطبع فى ذهنى صور العالم بجباله وأنهاره وبلدانه ، وحتى لا يجد أستاذنا اسماعيل رأفت بك ، يرحمه الله ، مقتلا يأخذنى منه إذا جلست أمامه أؤدى الامتحان فى الجغرافيا ووصف الشعوب . أنت تذكر ذلك ، فيما أظن ، فاذكر بجانبه إن شئت أننى عُنيت بعد ذلك بطائفة أخرى من الخرائط ، علقت كل خريطة منها فى زاوية من زوايا القلب

وهنا تستطيع أن تفهم معني قولهم : كم فى الزوايا من خبايا . وهذه الخرائط متعددة الاشكال والالوان ، ففى كل خريطة نقط عديدة منها السوداء والبيضاء والحمراء ، وفيها نقط خفية لا أدرى ما لونها لأنها تمثل بعض جوانب من النفس يغلب عليها الشك والارتياب . وهذه المجموعة من الخرائط فيها دائى وفيها شفائى ، وإليها المرجع كلما جن الليل واطفأت المصباح ونظرت من النافذة أتأمل من خلف ستار ما يصنع جيراني : فهذا شاب يقضى سهرته وحيدا فى غرفته ، ولكنه ليس بوحيد لأنه مشغول بتمرينات مهمة فى ضرب العود حتى لألمح العرق يتصبب من جبينه ، وهذه فتاة تغازل صورتها فى المرآة ، وهذان قرينان يتناولان القهوة ويسمران بعد العشاء

أَما أنا فوحيد وحدة كاملة لا رفيق لها ولا أنيس ، أَقرأ ما أقرأ حتى تصرخ جفونى من الألم ؛ وأعود إلى مذكراتى أرتبها فى رفق ، ولكن ذلك كله لا يمنع من ان أَنظر الساعة فأجدها لم تتخط العاشرة ، وأَنا لا أصافح النوم إلا بعد نصف الليل ، فماذا أصنع إذن ؟ لا شىء إلا أن أعود إلى تلك الخرائط التى علقتها فى قلبى فأراجعها واحدة واحدة فى غبطة وارتياح لا يعدلهما شىء من طيبات الحياة . وهذه المراجعة لذيذة جداً ، لأنها ليست من تلك المراجعات المملة المضجرة التى يُضطر اليها المتقدمون إلى الامتحانات العمومية من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات ، هى مراجعة لطيفة لخرائط وجدانية ، يتراءى فى بعضها الشيخ زكى مبارك بعمامته البيضاء ، وفى بعضها الآخر يتراءى زكى أفندى مبارك بطربوشه الأحمر . وفى جوانب أخرى يتراءى المسيو زكى مبارك فى قبعته الرمادية . ومن العجيب أن هؤلاء الأشخاص الذين يختلفون فى ملابسهم وأزيائهم يلتقون عند نقطة واحدة هى الحظ العاثر والفؤاد الخفاق

إن الذى رزقك رغد الحقائق هو الذى رزقنى لذائذ الخيالات والأَحلام ، فلا تحسب أَنك أسعد منى حين تمتطى سيارتك وتصاحب شيطانك من ميدان إلى ميدان ، فان لى من أحلامى سعادة باقية دائمة تتجدد نضارتها كلما نفضت تلك الخرائط بين يدى لأذكر متى نعمت ومتى شقيت ، متى فرحت ومتى حزنت ، ومتى

طربت ومتى جزعت ، أما أنت ففى دنيا صاخبة تحسبها شيئا وليست بشىء ؛ وليست لك قدرة مع الأسف على تذوق الذكريات لأن النعيم طغى بك ، وأنساك ما فى الماضى من متَع كانت جديرة بالحياة لو وقعت لرجل حساس من الذين رزقوا قوة الخيال وعرفوا كيف يكون استحضار الأرواح : أرواح مادفنا على الزمن من ذكريات الحب والوجد والوفاء . أفتحسب ياصديقى أن ابن زيدون كان يخادع نفسه حين قال

يدنى خيالك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاكِ

هيهات ، هيهات ! ان ابن زيدون لم يخدع نفسه بذلك . فالواقع ان نعمة الخيال من اعظم النعم التى منّ الله بها على عباده الشعراء . إن احلام اليقظة أوفى وامتع من احلام النوم : لأن اليقظان املك لنفسه ، واعرف بخواطره ، واقدر على تمييز ما يتراءى له من اشباح النعيم ، وانت لا تنكر ان الاحلام حياة ثانية ننعم بها وادعين ولكل دور من ادوار الحياة احلام خاصة به ، فالطفل حين يحلم يفتح فاه ويطبقه فى رفق وحنان ، لانه يحلم بثدى أمه الرءوم ، وأمه فى ذلك الحين هى كل شىء فى دنياه ، وذلك الثدى المعسول هو كل ما يملك ذلك الوليد الغرير . أما نحن فأحلامنا معقدة أشد التعقد ، ونكاد نزعج فى النوم ، لأن أعباءنا ثقيلة ، ولا ترينا الاحلام غير صور مرعبة مخيفة من صور التكاليف والفروض .

وبهذه المناسبة اخبرك ان أحلامى المزعجة فى باريس ترجع فى صورها المختلفة إلى أصل واحد : هو الذهاب لاعطاء درس أو إلقاء محاضرة بعد مضى ربع ساعة من الوقت المحدد . ويرجع هذا الفزع فيما أظن إلى انى كنت دائما احرص الناس على التبكير ، حتى لأذكر انى كنت أصل دائما قبل الميعاد بنصف ساعة . وهذه الوسوسة فى المواظبة تجلب لى الآن احلاما مزعجة لايذهب شرها عنى إلا إن قمت فأوقدت المصباح وقلت بصوت مسموع : أنا فى باريس ! أنا فى باريس ! فلينتظر تلامذتى ماشاءوا فى القاهرة ، فاننى لست هنالك ، ولست عن انتظارهم بمسئول !

الاحلام لا تجمل إلا فى الطفولة ، من اجل ذلك كنت اقول لك حين تأوى إلى مضجعك : نم هنيئا ، واحلم أحلام الاطفال !

أما قوة الخيال وجبروته فى استحضار أرواح الذكريات فنعمة عجيبة أنعم الله بها كاملة على أخيك ، فانا أرد كل غائب ، وأبعث كل ميت من ذكريات الماضى ، وأتمثل كل شىء حين أشاء ، وأنت الآن أمامى بحوادثك اليومية ، وأكاد أراك تنتقل من قهوة إلى قهوة ، ومن مرقص إلى مرقص ، ومن ملعب إلى ملعب ، فى حيرتك الدائمة تبحث عما لا تجد ، وتجد ما لا تريد ، وأكاد ارى صديقنا (١) يخرج من الفصل فيقال له : كيف حال

الطلبة: فيجيب «جتهم داهية دا شيء يطلع الروح» ! وصديقنا (ح) ذلك الاديب الالوف المولع بتتبع سقطات الشعراء والكتاب من بين الناس ، لا أزال أراه مهموما محزونا يبحث وينقب عساه يظفر بخبر طريف يطالع به اخوانه اذا تلاقوا فى المساء فى ملهى من ملاهى الجزيرة ، أو التقوا مصادفة فى الطريق ، وهذا النوع من تلمس هفوات الادباء شر لابد منه ، أو هو شر جميل عاش بفضله كتاب الاغانى على مر الاجيال

الاحلام هى التى جعلت المتنبي يظفر بأنس من لا سبيل إليه حتى استطاع أن يقول فى نشوة الظافر الطروب .

بتنا يناولنا المدام بكفه من ليس يخطر أن نراه ببالهِ

وقوة الخيال فى بعث الذكريات هى التى جعلت أحد الشعراء يتغنى ويقول

تريك عين الوهم حتى كأننى

أناجيك من قرب وان لم تكن قربى

وهى كذلك التى تحيينى حياة صادقة كلما تمثلت ما طاب من غفلات الماضى ، أو تمثلت ما سيطيب من غفلات المستقبل القريب والبعيد ، وثمراتها أشهى وأطيب وأمتع من ثمرات الامانى الشاردة التى أقنعت جحدرا فى سجنه ، وحملته على الاطمئنان إلى الرضا بأن محبوبته تشاركه فى رؤية الليل والنهار والهلال ، إذ يقول :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تدانِ
نعم وأرى الهلال كما تراهُ ويعلوها النهار كما علانى

ونحن بالاحلام والخيال نحيا حياة طويلة مملوءة بالانس والرغد ،ولنا من ذكرياتنا الحلوة ما ندفع به مرارة الساعة الحاضرة ، ولنا من الامل فى طيبات المستقبل ما نقتل به جيش التشاؤم المضجر الذى ينتابنا فى ساعات السأم والملال

إلى هنا تحسبنى ياصديقى أثِرًا لاأحب إلا نفسى فالذكريات كما ترى حياة وبعث للايام السوالف والليالى الخوالى ، وهى كذلك وقود من اللذات أقدمه لتلك النفس القلقة الحيرى المولهة ، التى لا تهدأ ، ولا تقف عند حد من حدود المطامع ، أو رسم من رسوم الاهواء ، وهى فوق ذلك كله غذاء شهى لنزوات القلب ، ونزغات النفس ، ووثبات العقل ، وهفوات القلب

ولكن رويدك ، فاخوك أطيب من ذلك نفسا ، وأعف ضميرا ، وأكرم قلبا . إن لى من تلك الذكريات أنصبة روحية صِرفة لا يشوبها طيش ولا نزق ولا جموح ، وفى تلك الذكريات جوانب طيبة لم أرد بها غير وجه الله ، ولم أبتغ منها غير جمال الصدق وعذوبة الوفاء

انى ما رجعت إلى تلك الخرائط الوجدانية إلا تمثلتُ فيها صورا ورسوما وأشباحا لصداقات قديمة ، وعلاقات ماضية أراد

الزمن أو شاءت تقلبات الناس أن تضاف إلى غيابات التاريخ : فأولئك قوم كانوا فى صداقتهم كراما بررة ، ولكن الموت قضى عليهم ، وهؤلاء قوم لا يزالون أحياء ، ولكنهم كذبوا بعد صدق وخانوا بعد وفاء. فماذا ترانى أصنع فى ذكريات اولئك وهؤلاء ؟

أما الذين قضى عليهم الموت فلى فى ذكرياتهم شئون غريبة تستثير الدمع، وأعزهم علىّ المنسيون منهم الذين ما عادوا يمرون بخاطر أو يجرون على لسان . فذلك الطفل (عبد الحسيب) الذى اختطفه الموت بعد عام من حياته لا يزال يتمثل إلى قلبى وروحى فى عقله ورزانته ، وتلك الطفلة (سُكينة) التى سميناها بهذا الاسم لصباحة وجهها راجين أن تذكر بسميتها الجميلة الحسناء سُكينة بنت الحسين ، سكينة هذه لا تزال تطفر أمامى وتثب على سريرها الصغير ، ولا أزال أتمثل كيف كانت تعالج سكرات الموت فى نبرات حلوة عذبة حسبتها لغفلتى تغريدات طائر لا تأوهات عليل .

وأخى سيد ؟ ويلاه ! ماذا أقول ؟ لقد شهدت أيام مرضه وحضرت لحظاته الأخيرة ورأيت كيف قام فزِعاً فقبل يدى ليغمض بعد ذلك عينيه أبد الدهر ، وقاسيت أهول منظر شهدته فى حياتى حين كفنته بيدى وأسلمته إلى الفناء

أفتحسب من المروءة والنبل أن نبخل على هؤلاء بنفحات الذكرى ؟ هؤلاء بذلوا فى برنا كل ما كانوا يملكون ، فالطفل

كان يسخو بنظراته الرقيقة ، والطفلة كانت تجود يبسماتها العذبة الحلوة التى تفيض بنورها على حنايا القلب والأحشاء ، وذلك الشاب اليافع كانت مخايله تعِد بأشرف أنواع البطولة لو أمهلته الأيام ، وسبحان من تفرد بالبقاء

أما أصدقاؤنا الذين غدروا بنا وتناسوا ولاءنا واخلاصنا فلى معهم شأن آخر : هم لا يزالون أحياء ولكنى ارحمهم فوق ما أرحم الموتى ، ذلك بأن الموتى مضوا وراحوا قبل أن تمتحنهم هذه الدنيا الغادرة وقبل أن ترغمهم ضرورات الحسد وحاجات العيش على قطع ما وصل الوداد ، وفصم ما ربط الولاء ، ولهؤلاء أيضا مقابر تزار . لكن كيف ؟ لا تسأل عن ذلك ، فليس عندى جواب ويكفى أن تعرف انى أميز بين الوجهين للشخص الواحد : فهذا وجه قائم وهذا وجه مضى ، وما لقيت صديقا غدر إلا كدت أستوقفه وأقول له : ما أشبهك بصديقى فلان ! لقد كان له وجه كوجهك ، واسم كاسمك ، وعمل كعملك ، وجاه كجاهك ، ولكنه رحمه الله كان لا يغدر ولا يخون !

هؤلاء أيضا بذلوا فى برنا كل ما كانوا يملكون فى اللحظات التى كانوا فيها أوفياء ونبلاء ، أفتراني أنساهم وكانوا قرة العين ، ومنية النفس ، وبغية القلب ، وقِبلة الروح ؟ هيهات ، هيهات ! فلقد فُطرت على البر والوفاء والاخلاص ، وبغَّض الله إلىّ نقائص

القطيعة والجحود والعقوق .

وبعد فهذه رسالة كلفتنى قطرات من الدمع فى باريس ، ذلك البلد الذى لا يعرف أهله ما البكاء إلا فى الروايات والاساطير. وكل ما أرجو لك ، أيها الصديق العزيز ، أن يبارك الله فى نضارة شبابك، وطهارة وجدانك،وأن لا تحملنى الظروف على أن أترحم عليك وأنت حىٌّ تغدو وتروح . والسلام

٥ اكتوبر سنة ١٩٣٠

هادم اللذات

لنا صديق فى باريس مفتون بالجلوس فى بول ميش ، وتلك أكبر مُتعه أن يشهد الغادين والغاديات ، والرائحين والرائحات ، فى حى الشباب

وهو فى أغلب الاحيان يجلس وأمامه كأس وفى يده سيجارة ، ثم يرمى بعينه وبفؤاده الى اقتناص ما يري وما يدرك من أسرار الجمال ، وهو فى تلك اللحظات أشعر الناس : لأنه يتحول الى جذوة من الشعور والإحساس

وقد جلس فى صباح اليوم كعادته وكان قد أجهد نفسه بالليل فى دراسات مضجرة تقتل الأعصاب ، فرمي ببصره علَّه يشهد من روائع الحسن ما يذهب السآمة عن عقله المكدود . ولكن

نظره اصطدم بمنظر السواد على باب المنزل الذى يواجهه ، فعرف أن هناك مأتما وأن هذه ساعة بكاء وانتحاب عند الجيران المجهولين

وهنا استولى عليه الخوف ، ومرّ بخاطره الحديث الذى يقول : تذكروا هادم اللذات

ولكن ذلك الصديق عاد فألقى على دنياه نظرة ساخرة .

ثم ألقى على نفسه هذا السؤال :

اذا كانت دنيانا ستنقضى بمثل ما انقضت به دنيا هذا الميت فلمَ نتحفظ ونتبلَّد ونتوقر فراراً من سفالة المنافقين الذين يأمرون بما لا يأتمرون به ، وينهون عما لا ينتهون عنه ؟ أليس الحزم أن نغنم دنيانا قبل أن تفوت متأسين بأبى الحسن التهامى إذ يقول :

فاقضوا مآربكم عِجالاً انما   أعماركم سفَرٌ من الاسفارِ
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا   ان تُستردّ فانهنّ عوارِ

وما كادت تفرغ الكأس حتى نُقل الميت ونُزع السواد وعاد الشارع والسابلون إلى الجذل المألوف . وبذلك اطمأنّ صاحبنا إلى أن الحياة أقوى من الموت ، كما أن الصراحة أشرف من النفاق ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

الان فهمت

كنت فى حدائق فلاحا مقسَّم الجهد بين الفأس والمحراث ، وكان لا يغيظنى من حياة الريف غير فصل الشتاء . وكنت أسمع أهالى سِنتريس يقولون (لما يخضر التوت، البرد يموت) وكذلك كنت أتأمل اشجار التوت وأترقب اخضرارها لابشر نفسى بالربيع ،ولكننى كنت أجد الاشجار الصغيرة تسرع الى الاخضرار وأجد الاشجار الكبيرة تخضر فى بطء قريب من الجمود . وما أذكر أنى شغلت نفسى بفهم هذه الظاهرة الطبيعية

وقد غاظنى شتاء هذا العام فى باريس فما كاد ينتصف مارس حتي أخذت أترقب اخضرار الاشجار فى حديقة النباتات . ولاحظت أيضا ان الاشجار الصغيرة هى التى تسرع الى الاخضرار ، فتذكرت أيام الحداثة فى حقول سنتريس يوم كنت أترقب اخضرار أشجار التوت

ومع انى لم أكن بليد الذهن بدليل أن اسمى (ذكى) - بالذال لا بالزاى فى هذه المرة ! - لم أفهم السر فى تبكير صغار الشجر الى الاخضرار الا فى هذه الايام :

ذلك بأنها فى ميعة الشباب ، والشباب أكثر إحساسا بنضارة الربيع

أعاذنا الله من كهولة القلوب ، وشيخوخة الأرواح !

نجوى القلب على شواطئ السين

تصارعُ فى سَلْمِ الجمال وحَربهِ مخاطر منها طارفٌ وتليدُ
فيالكَ من صبٍّ على البين مُولَعٍ أثارتْ شجاهُ أعينٌ وخدودُ
رشادكَ لا تجزع فكم من صبابةٍ تحمّلَ عنها القلبُ وهو عميد
ستأسو عذارى النّيل آثار ما جنتْ عليك عذارى السّين حين تعودُ

رَعَى الله فى الوادى العزيز عقيلةً عزيزٌ عليها أن يقال بعيدُ
تذكّرها الآصال ما كان بيننا فترعَدُ منها أذرعٌ ونُهودُ
جنيت عليها ما جنيت من الهوى وخلّيتها تفنى أسًى وتبيدُ
وكم من أمانٍ للشباب تقطعتْ مرائرُ من أحداثها وعقود

أتمضى ليالى الصيف لا تنقع الجوى مباسمُ بالعذْب النمير تجود
ويدرُجُ فى مغداهُ أسوان صاديًا فؤادٌ بأثقال الشجون يميدُ
وتخلو مغَانى النيل من لَهو فاتكٍ لهُ من رُباها جَنّةٌ وخُلودُ
ويحيا أسير الحزن فى ميعة الصبا فتىً مَرِحٌ طاغى الشباب مَريدُ

سيذكرنى الناسون يوم تَشوقهمْ شمائلُ من بعض الخلائق سُودُ
سيذكرنى الناسون حين تروعهمْ صنائعُ من ذكرى هواى شُهودُ
فوالله ما أسلمتُ عهدى لغدْرَةٍ ولا شاب نفسى فى الغرام جُحودُ
ولا شهد الناسون منى جنايةً على الحبِّ إلاَّ أن يُقالَ شهيدُ

باريس فى ٥ أغسطس سنة ١٩٢٧

بين الرشد والغواية

صديقى عبد المجيد

أكتب إليك هذا وقد قهرنى البرد على المكث فى غرفتى، فان الجليد يتساقط على الناس وهم سائرون فى الطرقات ، وليس لدىّ من مرافق الحياة مايتمتع به أكثر الجيران ، فنحن فى يوم أحد ، ولكل جار فنوغراف يستمع إلى أناشيده وموسيقاه ، أو أهل يعطفون عليه ، أو أصدقاء يسألون عنه ، فى حين لا أجد ما أدفع به السأم والملال غير ثلاثين كتابا أو تزيد ، مبعثرة فى أرجاء الغرفة فى اضطراب له روعته وجماله فى ساعات النشاط ، ولكنه فى ساعات السآمة ثقيل ممجوج ؟ أضف إلى ذلك أن هذه الكتب قلتنى وقليتها لطول ما اصطحبنا وتجاذبنا الأحاديث فى الصباح والمساء، وهى فوق ذلك متنافرة الطباع ، متباينة الأشكال، فمن لغة إلى أدب ، ومن فلسفة إلى تشريع ، ومن جد إلى هزل، حتى لأحسب أنه لا يمنعها من العراك غير خوف البوليس !

وقد فكرت فيما أقتل به هذه الساعات الباردة فلم أجد غير الكتابة اليك ، ولكن ماذا أكتب ؟ أتريد شيئاً جديا ؟ هيهات

فان الجِد فى هذه الساعات أقسى من البرد ! فلم يبق إلا أن أحدثك عن بعض الغوايات التى تقع فى باريس ، ثم نظرت فرأيت أن هذه الرسالة ستصل اليك فى شهر الصيام ، وهو شهر له حرمة وكرامة فمن الخير أن نباعد بينه وبين جميع ألوان الرفث والفسوق . والغواية فى جملتها ترجع إلى الدنايا التى عناها الشاعر حين قال :

إذا ما المرء صام عن الدنايا ﻓﻜﻞ شهوره شهر الصيام

ولكنى تذكرت أن هناك مخرجا من هذا المأزق : فقد كنت أرى ناسا يُقتدى بهم ، وينعمون بجميع مظاهر التبجيل والاجلال كنت أرى أولئك الفضلاء المبجَّلين يعرضون لمحارم الله فى غير تورع ولا تحرج ، وينالون من اعراض الناس بلا توقر ولا عفاف ، فاذا نالوا من شهوات اللسان والزهو والخيلاء ما يبتغون رفع الرجلُ منهم بصره إلى السماء وقال : اللهم إنى صائم ! اللهم انى صائم !

وكانوا يقولون ذلك فى ضراعة وخشوع ، بحيث لا مجال للشك فى انه قد غُفر لهم ، فان وصلت اليك رسالتى بخير فاقرأها كلها . ولا تنس أن تقول فى ختامها : اللهم إنى صائم ! اللهم إنى صائم !

أما أنا فسأقول عند الفراغ من تحريرها : اللهم إنى فى باريس ! اللهم انى فى باريس ! وأنت تعلم معنى ذلك ، فان رحمة

الله وغفرانه يشملان هنا سكان الأرض والسماء ، وما ظنك بمدينةٍ اللهوُ فى عرُف أَهلها لباقة والوقارُ عندهم جمود ، أَول ما تقع عليه عين الوليد فيها أَكواب الشراب وأَول ما تسمع أُذنه أغانى الفتك والمجون . ولله حكمة فى كل ذلك فلو مشينا هنا على الصراط المستقيم كما تمشون فى مصر لهلكنا ، ان كان صحيحا ما نسمع من أنكم تمشون على الصراط السوى فى شهر رمضان ، ولو شاء ربك لهدى الناس أجمعين .

***

بسم الله أفتتح الحديث

لى صديق فرنسى يحمل أَكبر الدرجات وأعظم الألقاب مضت به الايام حتى ألقته فى حدود السبعين ولكنه كشاعر ناشوقى قد بقيت فى وجهه بقايا من عهد الشباب ، فان الذى يري شوقى حين يبتسم يقدر أنه كان جميل الملامح فى صباه ، وكذلك صديقنا الاستاذ (ب) قد بقيت فى وجهه على الزمن آثار ملاحة وصباحة بحيث يقدّر الرائى أنه كان من أجمل الشبان فى عهده القديم

جلسنا مرة نتحادث فى حفلة ساهرة ، وكان الراقصون والراقصات يتناهبون لذات الوجد المكبوت ، فسألنى : أتجيد الرقص ؟ فأجبت : لا أحسن منه غير الجنجلة ! ثم قلت : وأنت

ياسيدى الاستاذ ؟فأجاب: كنت قديما أرقص ، ثم تركت الرقص منذ ثلاثين سنة !

— ياساتر ! ثلاثين سنة !

— نعم ثلاثين سنة ، فقد تركته فى حدود الاربعين

وهنا دفعنى الفضول فقلت : لقد بقيت فى وجهك ياسيدى الاستاذ علائم وَسامةٍ وجمال ، فكيف كان حظك عند النساء ؟ .

— النساء؟ ماذا تريد ؟ أنا طول عمرى رجل مستقيم !

— العفو ياسيدى الأستاذ ، إن كنت وجدت فى سؤالى ما يُحرجُك ، وأنا فى بساطة أسألك : هل كانت لك وقائع تشبه وقائع ألفريد دى ميسيه ، أو كانت لك صبوات تذكّر بصبوات لامرتين ؟ ؟

— الآن فهمت ما تريد ، ويظهر أن سمعة فرنسا فى الخارج سيئة جِدًّا من هذه الناحية ! وأحب أن أجيبك بأنه لم يقع لى من حوادث الحب ما يذكّر بمن تعرف من شعراء الوجدان . الحب صعب المرام جدًّا ياصديقى . فما رأيك؟ إن الرجل المحترم لا يتاح له الحب إلا فى حالين : أن يحب فتاة ، أو أن يحب امرأة والرجل لا يحب فتاة إلا إذا كان يريد الزواج . وما عدا ذلك من حب الفتيات خطرٌ لا يقدم عليه رجل يحسب حساب العواقب

أما حب المرأة — المرأة المتزوجة — فهو من كبريات المشاكل فى هذا الوجود ، وذلك أن الحب لا يراد به ذلك العبث الكلامى الذى يجرى فى الأندية والحفلات ، فإن هذا حب الأطفال ، والمرأة لا يرضيها ذلك . والعاشق الذى يكتفى بمعسول الأمانى والأحاديث عاشق أحمق مأفون لا تحبه النساء ، فلم يبق إلا العشق الجدى الرصين الذى يتغاغل فى المشاعر والأحشاء ، وهذا العشق كثير التكاليف ، لأن المرأة عندنا حين تحب تعصف بكل ما يملك محبها من عقل وثروة وجاه . وانت تعرف أن العشق لا بدّ له من ساعات خَلوة . وغيرُ معقول أن يكتفى العاشقان بغرفة فى فندق فإن هذا ابتذال ، فلا بد إذن من جناح خاص فى منزل مقبول . ولا بد إذن من أثاث ورياش وطعام وشراب . وهذا كله ماذا يتكلف؟ رباه ! إن العشق شىء ثقيل ! ولنفرض أننا وجدنا السبيل إلى المغارم المادية . فكيف نجد الوقت ، أتحسب أنه تكفى ساعة أو ساعتان ؟ هذا عندكم يا أهل الشرق ، أما العشق عندنا فحسابه طويل ! وكيف تنتظر أن يجد رجل مثلى فرصة للحب ، وهو يكدح من الصباح إلى المساء ؟ ومن هى المرأة المتزوجة التى تستطيع الفرار من تكاليف الزوجية لتسعف عاشقها بما يحتاج إليه قلبه من عطف وحنان؟

ثم سكت الرجل فجأة وقد علت وجهه غَبرة الحزن والقنوط

وما هى إلا لحظة حتى قال :

— وأنت ما شأنك ؟ وكيف حالك فى الحب ؟

فأجبت فى ابتئاس :

— لم يكن لى من الحب نصيب غير الخيبة والاخفاق ، والآن عرفت سبب شقائى ، فقد كنت أحسب أن حرارة الوجد كافية لامتلاك القلوب ، وفى ذلك السبيل ألفت كتاب « مدامع العشاق » وزاد حزنى حين رأيته لم يقدمنى خطوة نحو « تلك النفس » التى أوحت إلى قلبى فصوله الطوال ، وفى هذه اللحظة فقط عرفت أن العشق كثير التكاليف ، وأن القلب وحده لا يغنى فى امتلاك المرأة ، وأن عالم العواطف انما هو عالم قلوب وجيوب . . ! ويرحم الله من قال :

اذا اجتمع الجوع المبرِّح والهوى
على الرجل المسكين كاد يموتُ

والله المستعان على الغربة والحب والإفلاس !

*
* *

وعلى ذكريات الحب أذكر لك الفكاهة الآتية :

أكثر الاجانب المقيمين فى باريس لا يعرفون غير النساء العموميات ، ومن النادر أن يتصل رجل أجنبى بامرأة فرنسية شريفة لان المرأة الشريفة هنا لا تقع إلا حين تحب ، وهى لا

تحب بسهولة كما يتوهم أكثر الناس ، وقول شوقى :

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

لا يمثل غير الفتاة الساقطة التى تنتظر أول قادم ، أما المرأة الشريفة فالوصول إليها من أعسر ما ينال ، على أن الفتيات الساقطات لا ينلن أيضا بتلك السهولة التى يمثلها بيت شوقى،ومن هنا يقع ذلك المنظر المضحك حين تجد جماعة من الشبان المصريين يجلسون فى قهوة من قهوات الحى اللاتينى ثم يتشاكون ويتبا كون لتعاسة حظوظهم فى الحب ' والسعيد منهم من يختلق قصص الحب اختلاقاً ليغيظ بها اخوانه ، ويوهمهم أنه من دونهم سعيد على حين لا يعرف من فصول الحياة غير فصل الجفاف !

وقد حدث مرة أن وجدت فى بعض المكاتب كتابا عنوانه « الحب الأثيم » فاشتريته فى الحال على أجد فيه وصايا مفيدة أنفع بها أولئك الاخوان المحرومين وقد كنت أختلق لهم حكايات أوهمهم بها أنى أعيش فى باريس عيشة عمر بن أبى ربيعة فى المدينة وكانوا ينتظرون أن أعود عليهم بشىء من الفضل،والمحسنون قليل !

أتدرى ماذا وجدت فى ذلك الكتاب؟

وجدته أولاً يصور الحب بصورة الشىء الممنوع . ورأيته يشترط فيمن يؤهل نفسه لمخاطر الحب أن يحسن الرقص ، وركوب الخيل ، ولعب السلاح ، إلى غير ذلك من الشئون الدقيقة

التي يجب أن يبرع فيها المتأنقون ، ورأيته فى النهاية يبحث عن الاماكن الخالية المأمونة التى يذهب إليها العاشق مع معشوقته .

وهى فى رأيه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأماكن المأمونة أمناً مطلقاً لا ريب فيه .

ثم قال : وهذه الأماكن كضرورات الشعر لا سلامة منها ، فمن الحمق أن يأمل العاشق فى الظفر بمكان خال بعيد عن أعين الرقباء وأهل الفضول

القسم الثانى : الأماكن التى اشتهرت بكثرة الزائرين ، مثل متحف اللوفر ، وسان كلو ، وفونتيبلو ، وهى أماكن لا يليق بعاشق يحترم معشوقته أن يصحبها هناك وإلا عرضها للقيل والقال

القسم الثالث : الأماكن التى اشتهرت بالهدوء وقلة الواردين وفى رأى المؤلف أن هذه الأماكن خطرة جدا : لأن العشاق جميعا يتوجهون إليهيامعتقدين أنها خالية ، وأنها مأمونة الجوانب فلا عاذل ولا رقيب

لكن أتدرى يا صديقى ما هى تلك الأماكن المشهورة بالهدوء والسكون ، التى تصلح لمواعيد الحب ؟

إن المؤلف لم يذكر إلا موضعا واحدا ، أتدرى ما هو ؟ وأين يقع ؟

إن ذلك الموضع هو : «قسم الآثار المصرية فى متحف اللوفر» !

قسم الآثار المصرية ؟ غضبة الله على باريس، وعشاق باريس! أهكذا يكون احترام ما ترك الفراعنة من معجزات الفنون ؟ ألا يخشى أولئك الداعرون أن تحل بهم لعنة خوفو ورمسيس ؟

كذلك ثارت نفسى حين وصلت إلى هذه النقطة من ذلك الكتاب ، ثم عدت فذكرت أنه لا ضير على التماثيل المصرية أن تشهد انحلال الأخلاق فى مدينة من مدن الطغيان ، فانه لا يذهب هناك للغزل والعبث إلا رجل يخون زوجته أو خطيبته ، أو امرأة تدوس على ما فى ضميرها من بقايا كرامة الزوجية ، أو فتاة تعق أباها وأخاها وخطيبها حين تنسى حرمة العرض فى سبيل الغواية، إنه لا ضير على التماثيل المصرية أن تشهد نزق العابثين والعابثات فى المدينة التى تسمى « مدينة النور » فستظل التماثيل المصرية هى هى خالدة ، وستفنى كل هذه اللذات المخطوفة فى أقل من لمح البصر حيث لا بقاء إلا للحق ، ولا كرامة إلا للخُلُق الجميل

١٥ يناير سنة ١٩٣١

ألوان من اتجاهات الأذواق

صديقى . . .

تذكر أنى أرسلت اليك رسالة عن الرشد والغواية ، وتذكر أنى وعدتك بالعودة إلى مثل ذلك الحديث ، فالآن أوجه إليك القول مرة ثانية على شريطة أن تفهم أنى لا أدعوك إلى ترك التحفظ والوقار ، ونبذ ما أنت عليه من ايثار الصمت والتورع عن الفضول

أنت تعرف مابينى وبين صديقنا « ب » وتعرف أن إخاءنا بنى على أساس المجاملة ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وتعرف أن لدينا من التسامح ما يكفى لإغضاء العين على بعض الأقذاء ، فلست منه وليس منى ، ونحن مع ذلك إخوان فى السراء والضراء .

غير أنى لا أنكر عليك أنى أحب أن (أنكد عليه) ولو مرة واحدة ، وهو انتقام طفيف ترضاه نفسى ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذاعة بعض مايلهو به فى باريس .

وقد تسأل : وما موجب ذلك ؟ وأجيبك فى صراحة: إنى أحقد عليه لأنه يجد من الفراغ ومن المال ما يمكنه من إحياء عهد

عمر بن أبى ربيعة ، وكنت أحب أن أكون ذلك الرجل لو ساعفتنى المقادير . وهو فوق ذلك ينغص علىّ تلك المتعة العقلية التى شاء الله أن تكون أجمل ما أطمح اليه من طيبات الأرزاق

وانى لأذكر أنه صادفنى مرة فى حديقة لكسمبور ومعى كتاب موضوعه « روح القرن السابع عشر » فأخذ يندد باقبالى على الماضى ، وإغفالى مافى العصر الحاضر من مفاتن ومغريات . . وكان (المضروب) يقول ذلك ويده فى خصر فتاة لو وقعت عليها عينك لدارت بك الأرض وتخاذلت من عزمك الأوصال !

وله من نوع هذا الجنون مناكر كثيرة حملتنى على مطاردته والتصميم على هتك ستره لدى قراء (المساء) وقد أنذرته بالفعل فهو منذ ثلاثة أشهر يصابح موزع المساء فى باريس ويماسيه ، وأنا أقسم أنه سيلقى منى مايكره . ولكن ما الذى يكره هذا الخبيث ؟

انه لا يخشى إلا خطرا واحداً ، ذلك ان له أبا صالحا يصلى الفجر فى سيدنا الحسين ، والظهر فى السيدة زينب ، والعصر فى السيدة فاطمة النبوية ، والمغرب فى السيدة سكينة ، والعشاء فى مسجد قاضى الشريعة الامام الشافعى الذى قضى بين أمه وأبيه ، رضوان الله عليهم أجمعين ! وهذا الأب الصالح يرسل الى ابنه فى باريس ثلاثين جنيها شهريا وهو مبلغ ضئيل لا يتناسب مع ثروة

ذلك الشيخ الجليل ، ولكنه يؤثر التقتير على ابنه لئلا يفسد فى بلاد الفساد ، والابن من جانبه لا يزال يكاتب أباه شاكيا باكيا ، لأن الثلاثين جنيها لا تكفى للخبز القَفار ! والوالد يقرأ تلك الرسائل فى اطمئنان ، لأنه يعلم أن الثلاثين جنيها كافية ، وأن عيشة الخشونة أنفع له ، وأجدر بأن تحمله على الانقطاع للدرس ليجتاز امتحان السنة الأولى فى كلية الحقوق بعد أن قضى فيها أربعة أعوام !

وهذه الاشارة كافية لأن تقدر كيف يضطرب كلما هددته بالكتابة عنه ، وهو هداه الله يقول فى خشوع : إن حالى يشبه حال فلان ! وفلان هذا الذى يعنيه شاب مصرى تعجزه الامتحانات لأنه لا يتلقى الدروس الا فى قهوة دار كور ! وهو يخشى أن يستقدمه أبوه الى مصر ، فهو لذلك يقول لمحادثيه وهو يتوجع :

أنا جالس على تل من البارود ، وهناك شرارة نار تقترب ثم تبتعد ، وتقرب ثم تبعد ، وأخشى أن تمس البارود ؟

وهذا كما ترى من الخيالات الشعرية البديعة ، وأستبعد أن يكون تلميذ قهوة دار كور هو صاحب هذا الخيال

وقد صممت أخيرا على الكتابة عنه ، ولكنى سأطوى اسمه عن القراء لئلا يكون فيهم من يصلى مع أبيه فى السيدة زينب أو سيدنا الحسين ، وبذلك تظل شرارة النار بعيدة عن تل البارود إلى حين !

ولست أرجو بذلك أن يقلع عن الغواية ، فذلك شأن لا يهمنى على الاطلاق ، وانما يهمنى فقط أن يكف عن مغايظتى فلا يقرأ علىّ رسائل الحب التى تصله من خليلاته ، ولا يأتى لزيارتى ومعه ثلاث بنات من الكواعب الملاح ، كبراهن رفيقته ، والوسطى بنت عمتها ، والصغرى بنت خالتها . فتلك أشياء تذهب بالرشد وتغرى بالجنون

وهذا إنذار لا يغنى فيه أن يعتذر بأنه يقرأ علىّ تلك الرسائل الدنسة لأشرح له بعض ما يخفى عليه من التعابير التى تدق عن فهمه ، لأنى لست مترجما فى دائرة أبيه حتى يضطرنى الى توضيح تلك المشكلات ، وان كنت أعترف بأنى أستزيده أحيانا من تلك الرسائل التى كان مِدادُها من لُعاب إبليس ، والتى تحمل القارىء والسامع على تصديق من يقول :

أرى طِيب الحلال علىّ خبثاً　　　وطيب العيش فى خبث الحرامِ

*
* *

لصاحبنا هذا طرق كثيرة فى الصيد ، فلنذكر بعضها هنا تمهيداً للمفاجآت التى سنكف بها من طِماحه اذا مضى يتلمس أسباب اللهو فى باريس

وأخبث طريقة كانت له ما وقع منه يوم نشر فى احدى الصحف الأسبوعية اعلانا هذه ترجمته:

(شاب مصرى مستقيم يقضى نهاره فى الدرس و يحتاج إلى

فتاة مقبولة الصورة متينة الأخلاق ترافقه فى بعض السهرات لتذهب وحشته وتعينه على فهم الروايات الكلاسيك التى تمثل فى الأوديون وفى الكوميدى فرانسيز)

وقد أطلعنى على هذا الاعلان قبل نشره وكلمة (مستقيم) أضيفت باقتراحى ؛ وقد كاد يرفض لظنه أن هذه الكلمة قد تنفر بعض الملاح . ولكنى أقنعته بأنها ضرورية . على الأقل لحفظ سمعة مصر فى الخارج، ولأنها فوق هذا كلمة طالما انتفع بها المنافقون الذين يضمرون الإفك ويظهرون الصلاح ، وهى بعد ذلك كله تنفى عن الاعلان صبغة المجون ، وتضيفه إلى الشئون الجدية ، وتلك تحفظات قد يحتاج اليها بعد حين

وفى صبيحة يوم دق التليفون فاستمعت ، وإذا صاحبنا يقول :

احضر حالا فقد تسلمت اليوم أكثر من خمسين رسالة ؛ وأحب أن أدرسها معك فلا تتأخر ، أرجوك

خمسون رسالة ! يا ابن الخنزير ! « أستغفر الله ، فان أباه من الصائمين القائمين »

وما هى إلا لحظات حتى كنت عنده وقلت : (هات يا ولد ، هات ، حتى نشوف الخبر ايه !)

وفى مثل هذه المواقف تظهر براعة الفتيات الفرنسيات ، فان اللغة الفرنسية من أغنى لغات العالم بالأوصاف ، والمرأة الفرنسية من أعرف النساء بالصياغة الفنية لعبارات التودد والتلطف والاقبال

وقد جلس صاحبنا بجانبي وأنا أقرأ بصوت مرتفع ، وهو يقاطعني من لحظة إلى لحظة قائلا : « يعنى إيه؟ » أو قائلا : « وإيه رأيك فى البنت دى ؟ » أو قائلا فى لؤم « دى مش قد كده ، خليها لك ! »

وكانت الرسائل تختلف اختلافا ظاهراً فى مراميها وأغراضها باختلاف الكاتبات . وقد وجدت فى بعضها نوعا من الصدق . لأن هناك فتيات محرومات من نعمة الألفة ومرافقة الفتيان ، هؤلاء كتبن فى صراحة أنهن فى حاجة إلى الرفيق ، ولا يشترطن إلا العفاف ، وكتبت إحداهن تعلن رغبتها فى مصادقة (صاحبنا) حبا فى مصر ذات النخيل ! ومنهن من قالت انها تود أن ترافق فتى مصريا شاء له حسن الطالع أن يركب الجمل فى صباه !

وهناك بنت ملعونة كتبت رسالة فى غاية من الخلاعة ، وقد زعمت أنها أجمل مخلوقة مشت فى شوارع باريس ، وأنها بالرغم من جمالها الساحر لم تخضع لمخلوق ، ولم يذق شهدها أحد من العالمين ، وقد ختمت الرسالة بقصيدة من نظمها فى وصف عفافها الفائق وجمالها الفتان ، وهى قصيدة تتوافق كل التوافق مع الاغنية المصرية التى تقول :

ايه رأيك فى خفافتْى ايه رأيك فى لطافتْى
مُش خِفّه شربات مُش رِقّه دلكات

ايدِ تِسوّى الجنهات جنب البرلنتى
دا جمالى ما وردشى ومثالى ما صدفشى
حوريةً م الجنة هربانه بالعنيه
لناس تتهنّا لوصالى تتمنى

***

حبيّبه بالميّه تعجبنى الحريه
يدوبوا ما أسألشى بوصالى ما اسمحشى
على نارهم خلّيهم بدلالى أكويهم
من صغرى ألاموده لجمالى معبوده
عشاقى تِتزلل عن تقلى ما اتحول
كده طبعى يا لطافه كده ذوقى يا خفافه
مش خفه شربات مش رقه دلكات

ومن أغرب ما جاء فى تلك الرسائل ما كتبته إحدى البنات تسأل صاحبنا عن مستقبل وزارة صدقى باشا ، وعن رأيه فى الدستور الجديد . وقد قررنا فى الحال إبعاد صاحبة هذه الرسالة لأنها « غلباوية » ولأنه يحتمل أن تكون من الجواسيس وصاحبنا كما تعلم جالس على تل من البارود ، وقد يرسل إليه صدقى باشا بعض الصواريخ جعل الله كلامنا خفيفاً عليه ، آمين

قرأنا الرسائل بعناية ، وميزنا ما رأيناه جديرا بالجواب ،

وأجبنا على سبع وعشرين رسالة من بين ثلاث وخمسين ولكن ما الذى وقع بعد ذلك ، انتظر انتظر ، إن الله مع الصابرين .

باريس فى ٢٥ مارس سنة ١٩٣١

على اطلال الجمال

ولّى شبابك لم ننعم بنضرته ... ولم نفز من تمنّينا بمأمولِ
فمادّ كار عهودٍ منك ماظفرتْ ... فيها الأمانى بوعدٍ غير ممطول
أيامَ تعصِفُ بالأحشاء دامية ... بناظر من بقايا السحر مكحول
وتستطيل علينا فى صبابتنا ... بمائسٍ مُترَف الاعطاف مطلولِ

***

ياقلبُ هذى رسوم الحسن موحشةً
فى مَهْمَهٍ طامسٍ الاعلام مجهول
فاندب رجاءك فى دنيا وُعدتَ بها ... أحالها الدهر مغنىً غير مأهول
لا تلمح العينُ فى شتى جوانبهِ ... إلاّ نوازىَ قلبٍ فيه مكبول
ولا ينال المعنّى من مشاهدهِ ... إلاّ عوادى حزنٍ جِدّ موصولِ

***

يامن تشفّع ماضيهِ لحاضرهِ ... بواضحٍ من جميل العذر مقبولِ
ليغفرِ الحب ما أسلفت من صَلَفٍ ... إلى محبٍ مُعنّى القلب متبولِ
فقد نَعِمنا على ذكراكِ آونةً ... بسائغ من نمير الوصل معسول
واليومَ نعبد فى نجواك وادعةً ... أطلالَ حُسْنٍ لمن يهواك مبذول

٢٥ أغسطس سنة ١٩٢٧

فى ليلة العيد

صديقى

لست أكتمك أنى شرعت أتزود لهذه الليـلة منذ أسابيع وزادى كما تعرف هو اجترار الأشجان ، فقد مرت سنون وأنا أنتقل من شجَن إلى شجَن ، وكادت تمحى أوقات السرور من ألواح الذكريات . وكان الخيال الذى تشبثت به وأعددته لهذه الليلة هو ذكرى تلك الفتاة التى رحلت عن سنتريس فى يوم عيد ،فقد أذكر أنها خلتنى غريباً بين أهلى ، ولم تترك لى ما أوقد به نار الأسى غير تقليب صفحات البحترى فقد انقطعت إليه يوم ذاك وأخذت أنشره وأطويه بين الجوى والبكاء

وكذلك مضيت فاستعرت ذلك الديوان من أحد الأصدقاء فى باريس ، وأقبلت عليه أتصفحه لأتذكر به ذلك الغرام المفقود فماذا وجدت ؟ وبم شعرت ؟

لقد وجدت شعر البحترى خاليا من المعانى الوجدانية،وكدت أومن بأنى خلقت لنفسى ذلك الشاعر يوم كنت أحب، فلما

انقضت اللوعة مضى معها سحره ، وعادت قصائده وكأنها أبدان بلا أرواح

أهذا هو البحترى الذى كنت أحب لأجله كل من اتصل بالبلاد السورية وأعبد من أجله ساكنى منبج والشهباء ؟

أين شعره ؟ وأين روحه ؟ وأين غرامه ؟

لقد كانت كل كلمة فى ديوانه تفعل فى قلبى ماتفعل النار فى القصباء فمالى أقرؤه فأراه خامدا لا روح فيه ، وأبحث عن بيت يروقنى فلا أجد ، وتشقى عيناي فى البحث بين ألفه ويائه بلا طائل ولا غناء!

ثم كان صباح هذا اليوم فذهبت الى الكولليج دى فرانس لأسمع محاضرة المسيو ماسينيون عن الهوى العذرى ، وانطلق الرجل يتكلم بلغة عذبة تغلب عليها النبرات الباريسية الجذابة التى يعرف سحرها من عاشر أهل باريس الأصلاء ، وكانت بداية الحديث خاصة بالمحبين الذين زعموا أن هواهم باق لايزول وكيف كانوا فى دعواهم كاذبين ، فكدت أذوب من الخجل وأحسست جبينى يتندى من الحياء ، فقد أقسمت ألف مرة أو تزيد لأحفظن ذكريات فتحية على مر العشى وكر الغداة ، ثم قهرتنى الأيام على تناسيها ، فلم أذهب لزيارتها منذ تسع سنين

ولكن المسيو ماسينيون عاد فأشار إلى أن أكثر المحبين يظلون أسرى لذكريات النظرة الأولى وأنهم ينسون ما ينسون

ثم يهتاجون لأطياف الماضى البعيد ، ويعودون فيقاسون لوعة الحنين

وهنا غلبنى الدمع وكدت أفزع إلى النشيج . ولكن كيف والمسيو ماسينيون يوجه إلىّ نظره وحديثه فى عناية والتفات ؟ وكذلك أخذت أحول نظارتى وأدارى دمعى متمثلا بقول ابن الأحنف

كم من صديق لى أسا رقه البكاء من الحياء
فإذا تلفت لامنى فأقول ما بى من بكاء
لكن ذهبت لأرتدى فطرفت عينى بالرداء

ولم تكد تنتهى المحاضرة حتى اطمأننت إلى أن القلب لا تزال فيه بقية من الجوى ؛ ومضيت فصافحت المسيو ماسينيون وذكرته بقول البحترى

وأود أنى ما قضيت لبانتى منكم ولا أنى شفيت غليلى
وأعد برئى من هواك جناية والبرء أعظم غاية المخبول

والرجل لا يدرى ما أريد لأن صبابة البحترى لم تخطر له على بال ، ولأن الشاكى من السلامة لم يكن رجلاً سواى !

ثم انطلقت أهيم فى شوارع باريس وأنا فرح جذلان ، لأنى عرفت أن فتحية لاتزال تثير دمعى ، وأننى خليق بأن أراجع معالم النظرة الأولى ، يوم كنت أقول فيها :

ياطفلة الحسناء والدرة العصماء

ما خدكِ الفتانُ　　وطرفك الوسنان
إلا بقايا الأمّ　　ذات اللثات الحُمّ
أشبهتها فى الدَّلّ　　وجفنها المعتلّ
وخدها الأسيلِ　　وخصرها النحيلِ
فاستوصفيها الحبا　　واستودعيها الربا
فقد تناهى العمرُ　　ونال منها الدهرُ

***

يا زهرةً فى العينِ　　ونغمةً فى الأُذْنِ
وطفلةً فى المنظَرَ　　وغادة فى المخبر
لا مسَّك الغرامُ　　فإنه ظلاَّمُ

ثم تناولت غدائى فى طمأنينة المحب الموصول ، وإن كنت لاأدرى أين تكون اليوم فتحية ، وكيف حال أجفانها السود ، وكفها المخضوب ، وحديثها المعسول

لقد كنت سمعت أنها تشكو مرض القلب ، فكيف حالها اليوم ، وكيف أهلها الأعزاء

ومن بينات الحب أنْ كان أهلُها　　أحبَّ إلى قلبي وعينيّ من أهلى

إنى لأغدر الناس إن لم أختص هذه المظلومة بما أملك من رفق وحنان ، فقد مر عهد كنت لها كل شيء ، وكانت لى كل شيء ، ولا يعلم إلا الله كيف أضاءت هذه الفتاة قلبي وحياتى مدةً من الزمان

ثم تناسي كلانا صاحبه ، منذ تبدّى لنا الدهر وهو أضنّ وأبخل من أن يهجع عن المحبين السعداء

صديقى

ذلك هو حديثى عن ليلة العيد ، فقد تناسيت أشجانى ، وقصرت ليلى على التسبيح بذكرى فتحية ، فليت شعرى أيمر بخاطرها فى هذه الليلة طيف ودادنا القديم ؟ أم تراها فتحت قلبها لشواغل الحياة ، واطمأنت الى أن عهدنا كان حلُما فذهب ، وكان أملاً فضاع ؟

ولنعد الآن إلى البحترى لنرى كيف راجعته الحياة ، حين راجعنا الشوق ، ولننظر كيف يقول

أنبّيك عن عينى وطول سهادها ووحدة نفسى بالأسى وانفرادها
وإن الهموم اعتدن بعدك مضجعى وأنت التى وكلتِنى باعتيادها
خليلىَّ إنى ذاكرٌ عهد خُلةٍ تولّت ولم أذمم حميد ودادها
فواعجبى ما كان أنضر عهدها لدىّ وأدنى قربها من بعادها
وكنت أرى أن الردى قبل بينها وأن افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسىَ من عاديت من أجل فقده بلادى ولولا فقده لم أعادها

وهذه ياصديقى أبيات لم أبحث عنها . ولكنها واجهتنى صارخة حين فتحت الديوان ، ولننظر كيف يقول من قصيدة ثانية

ضمانٌ على عينيك أنىَ لا أسلو وأن فؤادى من جوًى بك لا يخلو

ولو شئت يوم الجزع بلّ غليله
محبٌ بوصل منك إن أمكن الوصلُ

ألا إن وِرداً لو يذاد به الصدى وإن شفاء لو يصاب به الخَبْل

وما النائل المطلوب منك بمعوز لديك بل الاسعاف يعوز والبذل

أطاع لها دلٌ غرير و واضحٌ
شتيتٌ وقدٌ مرهف وشوًى خَدْل

وألحاظ عين ما علقن بفارغ فخلينه حتى يكون له شغل

وعندىَ أحشاء تساق صبابة إليها وقلب من هوى غيرها غفل

وما باعد النأى المسافة بيننا فيفرط شوق فى الجوانح أو يغلو

هذا هو البحترى الذى قضيت أسابيع أقلب ديوانه فلا أرى فيه غير أشباح. فياعجبا كيف عاودته الروح وكيف عاد إليه سحره القديم! إن فى ذلك لدليلا على أن الشعراء لا يحيون إلا على ألسنة القراء، والشاعر الذى يجد قارئا يفهمه كالمغنى الذى يجد سامعا يتذوق أغانيه، ومن هنا كان الشعراء يتفاوتون فى حظوظهم عند الناس، فهذا يثير عاطفة طال غزوها للقلوب، وذاك يثير خالجة لا تطيف بالنفوس إلا لماما، وبقدر تغنى الشعراء بهواجس الأحاسيس يكون نصيبهم من الخلود

***

صديقى! لقد غفت العيون، وطوى الليل تحت سدوله أرباب

النعيم وأنضاء الشقاء ، فكم من قلب يتذوق أكواب الحب ، وكم من كبد تتنزى فوق جمرات البؤس ، وأنا فى دنيا صاخبة من أشجانى وأحزانى : فهذا وجدٌ فتىٌّ ، وذاك وجد قديم ، وتلك صبابة دفنتها منذ عشر سنين وبعثتها ليلة العيد ، كل أولئك يغزو قلبي فى قسوة دونها قسوة الحظ العاثر على الرجل النبيل ، وأين أنا ياترباه ممن أحنو عليهم وأذيب فى حبهم لفائف الفؤاد ؟

وما يدرينى لعلى منسىٌّ من جميع من أشتاق إليهم وأبدد بذكراهم لجب النهار وهدوء الليل !

لاتزال عندى من الشوق بقايا ، فهل عند من أهواهم من العطف بقية ؟

أم كتب علىّ أن أقضى العمر فى التغنى بقول بعض الشعراء:

سيذكرنى الناسون يوم تشوكهم ... شمائلُ من بعض الخلائق سُودُ
سيذكرنى الناسون حين تروعهم ... صنائع من ذكرى هواى شهود
فوالله ما أسلمت عهدى لغدرة ... ولا شاب نفسى فى الغرام جحودُ
ولا شهد الناسون منى جنايةً ... على الحب إلا أن يقال شهيد

وإليك يا صديقى أقدم أطيب الأمانى بأن يعيد الله عليك أمثال هذا العيد ، وأنت على ما أحب لك من عافية البدن ، ونعيم القلب ، وهدوء البال . والسلام

فهرست

SOUVENIRS DE PARIS

Peinture des luttes entre la passion et la raison,
le bien et le mal dans la Ville - Lumière

par

ZAKI MUBARAK
Directeur de l'enseignement de l'arabe
à l'Université Américaine du Caire
Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

Le Caire
1931



